الدكتور عبد المجيد عبد السّلام المحتسِب

اتجاهات التفسير

في

العصْر الرّاهِن

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الدكتور عبد المجيد عبد السلام المحتسب

اتجاهات التفسير

في

العصر الراهن

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

الطبعة الثالثة ـ منقحة

١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م

منشورات مكتبة النهضة الاسلامية

هاتف ٣٣٥٨٤ ـ ص.ب ١٣١٦٣

شارع سقف السيل

عمان ـ الاردن

الطابعون

جمعية عمال المطابع التعاونية

عمان ـ تلفون ٣٧٧٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجاً .

والحمد لله الذي له ما في السموات والارض ، وله الحمد في الآخرة ، وهو الحكيم الخبير .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وخيرته من خَلقه ، خاتم النبيين ، وأشرف المرسلين .

ورضي الله عن أصحابه الغرّ الميامين ، ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين.

وبعد ، فموضوع هـذا البحث « اتجاهات التفسير في العصر الحديث » . وهو موضوع كنت أشعر منذ أعوام خلت بميل الى معرفة أبعاده والوقوف على المستقيم والمعوَجّ من هذه الاتجاهات .

ولقد كثر المفسرون في عصرنا . وفي كل عام يخرج تفسير للقرآن الكريم ينحو نحواً معيناً ، والمسلم يقرأ في هذا التفسير أو ذاك ، ولا يكاد يتمثـل صورة واضحة لاتجاهات التفسير إلا اذا كان القارىء مستنيراً .

ولهذا كانت الحاجة ماسة الى رصد اتجاهات التفسير في العصر الحديث ،

ودراسة هذه الاتجاهات دراسة عميقة مستنيرة، ومعرفة الأصيل منها، والتنبيه الى الانحراف الذي طرأ على بعضها .

وقد رأيت أن أقسّم هذا البحث الى كتابين ، أدرُس بعض هذه الاتجاهات في الكتاب الأول ، وفي الكتاب الثاني أدرس سائرها .

ورأيت أيضاً أن يكون الجزء الأول من هذا البحث في تمهيـــد وفصول ثلاثة ، ففي التمهيد كان لا بد لي من أن أتحدث عن أوضاع المسلمين العـامة بصورة موجزة منـــذ أوائل القرن التاسع عشر الى الربع الأول من القرن العشرين .

والفصل الأول كان دراسة للاتجاه السلفي في التفسير . وهو اتجاه أصيل يمتد من عهد السلف الصالح من المفسرين القدامى رحمهم الله .

ولقد اخترت ثلاثة تفاسير مشهورة تمثل هذا الاتجاه تمثيلاً إن لم يكن دقيقاً فهو قريب من الدقة . وهذه التفاسير هي : محاسن التأويل للقاسمي ، والتفسير الحديث لمحمد عزّة دَرْوزة ، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب.

ورأيت أن أفرد الفصل الثاني لدراسة اتجاه الشيخ محمد عبده في التفسير . وهو اتجاه عقلي توفيقي يوفق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية .

ولا بد من الحديث عن أولئك الذين ترسموا خطوات محمد عبده في التفسير ، ومنهم : الشيخ محمد رشيد رضا ، والشيخ محمد مصطفى المراغي ، وعبد العزيز جاويش ، والشيخ محمد جمال الدين القاسمي ، وعبدالكريم الخطيب ، ومحمـد المبارك عبدالله شيخ علماء السودان .

ورأيت أنه لا بد من الإشارة الى بعض من تأثروا باتجاه محمد عبده في غير ميدان التفسير ، وهو ميدان الفكر والبحوث الأدبية والإسلامية .

وفي الفصل الثالث كان لا بد من دراسة الاتجاه العلمي في تفسير القرآن

الكريم . وحتى تكون الدراسة شاملة مستوعبة تتبّعت جذوره القديمة ، ودرسته في إبّان رواجه القوي في العصر الحديث . وكان لا بد من تقديم صورة واضحة عن إنكار القدماء ثم المحدّثين لهذا الاتجاه ومن تسجيل موقفي منه .

ولا أعلم ، حتى الآن ، أحداً نهض بدراسة هذا الموضوع في بحث خاص قائم برأسه ، مما دفعني الى القيام به .

ويجب عليّ وأنا في هذا المقام أن أذكر الجهد الرائع الذي قام به الأستاذ محمد حسين الذهبي ، ففي الجزء الثالث من كتابه « التفسير والمفسّرون » دراسة عامة عن التفسير وألوانه في العصر الحديث . فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً .

ويعلم الله أنني بذلت الجهد ما استطعت ، ولم أقصّر في الرجوع الى المراجع التي توضح هذه الاتجاهات توضيحاً مرضياً .

ولا أزعم أن عملي هذا يخلو من الشوائب والهفوات والثغرات ، فالكمال لله وحده .

وإني لأرجو أن أكون موفقاً في دراسة هذا الموضوع . والله من وراء القصد ، وهو وليّ التوفيق .

عبد المجيد عبد السلام المحتسب

تمهيد

أوضاع المسلمين العامة منذ أوائل القرن التاسع عشر :

سيطرت الدولة العثمانية على معظم العالم الإسلامي في القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي . وفي القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي تم للدولة العثمانية ضم البلاد العربية إليها ، وامتد سلطانها امتداداً كبيراً .

ويدخل في نطاق الوحدة السياسية الكبرى للدولة العثمانية شبه جزيرة الأناضول والعراق والشام ومصر والحجاز واليمن وبعض النفوذ على الساحل الشرقي لإفريقيا .

وكانت الدولة العثمانية تعنى بقوة السلطان وتنظيم الجيش وأبهة الحكم والاشتغال بالفتوحات . وقد أهملت اللغة العربية مع أنها ضرورية لفهم الإسلام وشرط من شروط الاجتهاد . ولم تُعن بأمر الاسلام من حيث الفكر ومن حيث التشريع ، فانخفض مستواها الفكري والتشريعي .

وبسبب ذلك كانت الدولة قوية قوة ظاهرة ، ولكنها في الحقيقة ضعيفة ضعفاً بيناً بفعل الضعف الفكري والتشريعي . إلا أن هذا الضعف لم تلاحظه الدولة حينئذ لأنها كانت في عنفوان مجدها ، وفي أوج عظمتها ، وفي منتهى قوتها العسكرية [١] .

(١) انظر الدولة الإسلامية ص ١٣٢ .

ولقد عاش الشرق الأوسط ، كما يسميه الغرب ، خلال العصر العثماني الأول (نهاية القرن الثامن عشر الميلادي) في عزلة سياسية واقتصادية وحضارية .

فلم يصل الشرق الأوسط عنصر واحد من العناصر المكونة للحضارة الغربية والمدنية الغربية التي كانت تسير بخطى سريعة في طريق التقدم فيما بين القرن السادس عشر وأواخر القرن الثامن عشر .

وأكد هذه العزلة شعور من الشك والريبة في البلاد الإسلامية إزاء الفرنجة . وهو شعور نما واستقر منذ الحروب الصليبية [1] .

وبدأ شعور المسلمين بالحاجة إلى النقل عن الغرب في أوائل القرن التاسع عشر حين أحست الدولة العثمانية بالضعف وهي دولة الإسلام الأولى يومذاك أمام دول الغرب الفتية . فأخذ السلطان سليم الثالث في بناء نهضة حربية تقوم على تنظيم الجيش حسب النظم الأوروبية الحديثة ، وإنشاء مدارس للحربية والبحرية واستقدام بعض المهندسين والعسكريين من السويد وفرنسا والمجر وإنجلترا للاستعانة بهم في إنشاء الصناعات الحربية ، وتدريب فرق الجيش على النظم والأسلحة الجديدة وإدارة مدرسة الطوبجية .

وكان انشاء أول فرقة نظامية في الجيش العثماني سنة ١٧٩٦ م . ثم توقفت هذه المحاولة بعض الوقت عقب عزل السلطان سليم الثالث سنة ١٨٠٧ م ، ولم تستأنف هذه المحاولة الا بعد أن نجح خلفه السلطان محمود الثاني فيالقضاء على الانكشارية سنة ١٨٢٦ م

وفي ذلك الوقت أو بعده بقليل كان محمد علي باشا يسلك الطريق نفسه محاولاً بناء نهضة حربية عقب تنصيبه والياً على مصر سنة ١٨٠٥ م ، فأخذ في انشاء جيش حديث مدرب على النظام الأوروبي ، ودفعه ذلك الى سلسلة

---

(١) انظر الدولة العثمانية والشرق العربي : ص ١٤٠ وما بعدها .

من الإنشاءات في ميادين التعليم والهندسة والطب لسد احتياجات ذلك الجيش الحديث، مستعيناً على ذلك باستخدام ضباط ومهندسين وأطباء من الاوروبيين وبإرسال بعثات من الطلبة الى أوروبا .

ولم تلبث تونس أن اتجهت هذه الوجهة نفسها حين أحست بحاجتها الى حماية نفسها من النفوذ الأجنبي المتزايد ، فأنشأت جيشاً نظامياً ، وافتتح أحمد باشا باي الأول مدرسة للعلوم الحربية لتخريج ضباط وطنيين لهذا الجيش ، كان يديرها أحد الإيطاليين . وكان يقوم بالتدريس فيها مدرسون من الانجليز والفرنسيين والإيطاليين ، ثم كان خير الدين باشا أول مدير وطني لها .

وأدخلت أسرة القاجار ، التي حكمت ايران في القرن التاسع عشر ، النظم العسكرية الأوروبية على جيشها وفتحت من أجل ذلك كلية للعلوم والفنون سنة ١٨٥٢ م تسمى « دار الفنون » قامت على أساس غربي وكان اساتذتها من الأوروبيين [1] .

كان اتصال الإسلام بالحضارة الغربية في هذه المرحلة محصوراً في الجانب المادي الآلي منها ، ولم يكن يستهدف أصحابه الا وصل المسلمين بأسباب القوة ، لكي يكونوا أنداداً لأعدائهم . فإصلاح الجيش في تركيا جاء عقب هزائمها المتتالية أمام الجيوش الروسية التي أعاد بطرس الأكبر تنظيمها وتسليحها على النمط الاوروبي .

والانشاءات الحربية الجديدة في مصر جاءت عقب هزيمتها أمام جيوش نابليون التي أدهشت المسلمين بفنونها العسكرية الجديدة .

وتنظيم الجيش في تونس وانشاء مدرسة العلوم الحربية جاء عقب احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ م .
وادخال النظم العسكرية الاوروبية في الجيش الايراني جاءت عقب ازدياد الضغط السياسي والاقتصادي من جانب روسيا وبريطانيا .

---

(١) انظر الاسلام والحضارة الغربية : ص ١٢ وما بعدها .

ولكن تسربت مع النظم الحربية الجديـــدة نظريات سياسية وعناصر حضارية وثقافية غربية. فقد استلزمت الاصلاحات العسكرية الجديدة اصلاحاً في نظم التعليم وفي براجه، واستلزمت استقدام خبراء ومدرسين من الاجانب، كما استلزمت ارسال بعوث علمية الى مختلف المعاهد الاوروبية .

على أن بعض الحكام المسلمين كان يعمل على أن تصبح بلاده جزءاً مـــن الغرب ، فالسلطان محمود الثاني الذي قضى على الانكشارية كان يترسم خطى الحضارة الغربية في كل شيء ، فاستبـــدل الطربوش الرومي بالعمامة ، وتزيا بالزي الاوروبي ، وأمر بأن يكون هو الزي الرسمي لكل موظفي الدولة العسكريين منهم والمدنيين ، ثم جاء ابنه عبد المجيد فسار على منوال أبيه ، وأصدر عقب توليته المنشور المعروف باسم(فرمان الكلخانة) في سنة ١٢٥٥هـ، ١٨٣٩ م الذي رسم فيه طريق الإصلاح الجديد وبين قواعده وفي مقدمتها الحرية الشخصية ، والحرية الفكرية ، وتسوية غير المسلمين بالمسلمين ، والذي كان بداية للعصر المسمى بعصر التنظيمات . وفيه توالى صدور القوانين واللوائح المقتبسة من الحضارة الغربية ، فأنشئت المصارف ، وتعاقدت الدولة معها على قروض نظير أرباح ، وأدخلت نظُم إصلاحية على السجون (حسب ما تقتضيه الإنسانية والعدالة) ، وسمح لغير المسلمين أن يلتحقوا بالخدمة العسكرية . ثم صدرت آخر الامر (مجلة الاحكام العدلية) في سنة ١٨٦٩ م ليعمل بهـــا في المحاكم النظامية التي أنشأها السلطان عبد العزيز وقتذاك .

وفي ذلك الوقت كان الخديوي إسماعيل يسير سيرته في إدخال الحضارة الغربية وترسّم خطاها [١] .

وهؤلاء المبعوثون الذين أرسل أكـــثرهم الى فرنسا كانوا يقرؤون الكتب الفرنسية ، ويشاهدون الحيـــاة الفرنسية في أحفل العصور بالصراع الفكري الذي يصحب الثورات ، وكانت فرنسا تعيش في أعقاب الثورة الفرنسية وما

(١) انظر الاسلام والحضارة الغربية : ص ١٤ — ١٦

صاحبها وتلاها من قلق فكري لم يبلغ نهاية مداه . وقد احتل هؤلاء المبعوثون من بعدُ مكان الصدارة والقيادة في مختلف الميادين وبدؤوا يترجمون منذ سنة ١٨٣٠ م وينشرون كتباً في غير ما تخصصوا فيه من فنون . ومع المعلمين الذين استقدمهم محمد علي باشا للمدارس ، ومع الفرنسيين منهم بخاصة ، جاءت أفكار فولتير وروسو ومونتسيكو الذين وُجدت مؤلفاتهم في مكتبة احدى المدارس المصرية في سنة ١٨١٦ م . ولم يكن في تقدير محمد علي أن يتعلم مبعوثوه أكثر من الخبرات التي بعثوا لتحصيلها في تنظيم الجيش والرقي بالصناعة والزراعة والاقتصاد والتنظيم الاداري .

وتأثُّر أعضاء البعثات بما شاهدوه في المجتمع الأوروبي واضح فيما كتبوه أثناء إقامتهم في أوروبا أو بعد عودتهم منها .

ونستطيع أن نلمس ذلك على سبيل المثال في عضوين من الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين ، أحدهما مصري أقام في باريس خمس سنوات من (١٨٢٦ – ١٨٣١) وهو رفاعة الطهطاوي ، والآخر تونسي أقام في باريس أربع سنوات من (١٨٥٢ – ١٨٥٦) وهو خير الدين التونسي .

وترجع أهمية هذين الرجلين الى أنهما بكتاباتهما وآرائهما قد جلبا هذه البذور الغربية وألقياها في التربة الإسلامية .

للمرة الأولى نجد في ديار الإسلام كلاماً عن الوطن والوطنية وحب الوطن بالمعنى القومي الحديث في أوروبا الذي يقوم على التعصب لمساحة محدودة من الأرض ، يراد اتخاذها وحدة وجودية يرتبط تاريخها القديم بتاريخها المعاصر ليكوّنا وحدة متكاملة ذات شخصية مستقلة تميزها عن غيرها من بلاد المسلمين وغير المسلمين وللمرّة الأولى نجدُ اهتماماً بالتاريخ القديم يوجه لتدعيم هذا المفهوم الوطني الجديد . وللمرة الأولى نجدُ عند كل من الطهطاوي وخير الدين كلاماً عن الحرية بوصفها حجر الزاوية في نهضة أية

أمـــة وفي تقدمها . ولأول مرة نجد دعوة إلى وضع مدونة فقهية واضحة محدودة في صورة مواد قانونية على نمط المدونات القانونية الأوروبية .

ولأول مرة تنقل إلى المسلمين النظريات الثورية التي تريـــد أن تناقش الحكام الحساب فيما عليهم من واجبات ، وتبصر الشعوب بما لهم من حقوق.

ولأول مرة نرى عرضاً للنظم الاقتصادية الغربية التي تقوم على المصارف والشركات ، عرضاً يبدو مجرداً من التعليق في بعض الأحيـــان ، ومشوباً بالإعجاب والتساؤل عن امكان تطبيقه بين المسلمين في أحيان أخرى .

ونرى بعد ذلك كلاماً كثيراً عن المرأة ، لا شك أنه من وحي الحيـاة الاجتماعية الأوروبية مثل تعليم الفتيات ، وتعدد الزوجات، وتحديد الطلاق، واختلاط الجنسين . وهذه الموضوعات والأفكار تبدو في كتب الطهطاوي « تخليص الإبريز في تلخيص باريز » و « مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية » و « المرشد الأمين للبنات والبنين ». وفي كتاب خير الدين التونسي . « أقوى المسالك في معرفة أحوال الممالك » [1] .

ثم كان الغزو الثقافي من الغرب لبـلاد المسلمين يحمل حضـارة تناقض حضارة الإسلام ، ويوهم المسلمين أنه أخذها منهم ، ويأتيهم بأنظمة تناقض نظام الإسلام ويوهم المسلمين أنها تتفق مع أحكام الإسلام .

وانتشرت الجمعيات التبشيرية في كثير من البلاد الإسلامية . وانضمت حركة الاستشراق مـع حركة التبشير لتكونا معول هدم للاسـلام وتنصير المسلمين . وقد أدرك المبشرون والمستشرقون استحالة ارتداد المسلم عن دينه ، فقد رسموا خططهم وبنوا آ مالهم على زعزعة عقيدة المسلم وتشكيكه بدينه ، وخلق فجوة بين المسلمين وأصولهم العريقة ، فيسهل بذلك القضاء على كيانهم الإسلامي الشامخ [2] .

---

(١) انظر الإسلام والحضارة الغربية ؛ ص ١٩ وما بعدها .

(٢) انظر جذور البلاء : ص ٢٠٥ ،

والمعركة بين المبشرين وبين الأديان غير النصرانية ليست معركة دين، بل هي معركة في سبيل السيطرة السياسية والاقتصادية . حتى أن البروتستانت مثلاً لا يكتفون بأن يظل المسيحي أرثوذكسياً ، بل يجب أن يصبح مسيحياً بروتستنتياً . إن هوى الكاثوليك مع فرنسا ، وهوى الأرثوذكس مع روسيا، فإذا انتقل هذان الى البروتستنتية أصبح هواهما مع أمريكا في الدرجة الأولى ومع إنجلترا في الدرجة الثانية [١] .

وانسجمت الخطط الأستعمارية في الحرب ضد الإسلام وديار الاسلام مع قوى التبشير الكاثوليكي بقيادة الكرسي البابوي في روما ، وقوى التبشير البروتستنتي بقيادة اليهودية العالمية وتوجيهها . البروتستانت يسخرون أنفسهم ونشاطهم لخدمة اليهود - وقد شنّوا حملة مركزة على الإسلام بقيادة جريدة (راية صهيون) التابعة لطائفة الإنجليكان البروتستانت [٢] .

وكان قيام ابراهيم باشا بتطبيق برنامج للتعليم الابتدائي في سوريا - مستوحى من برنامج التعليم الموجود في مصر المأخوذ عن برامج التعليم في فرنسا - فرصة لهؤلاء المبشرين، فاغتنموها وساهموا في الحركة التعليمية من وجهة النظر التبشيرية . وكان محمد علي يقف من الإرساليات التبشيرية موقفاً متسامحاً . ومن الجدير ذكره أن محمد علي باشا كان ماسونياً .

وهكذا انتهز المبشرون هذه الفرصة السانحة ووضعوا أساس ما دعوه كنيسة صهيون أول كنيسة بروتستانتية في الدولة العثمانية . ولكن فأل المبشرين قد خاب ، فإن محمد علي انسحب عام ١٨٤٠ من الشام ، فعاد الاتراك الى موقفهم الشديد من الإرساليات التبشيرية .

وكانت الدولة العثمانية ترتاب في حركات التبشير ، ولا غرو فالمبشر يسبق الجيش الى كل مكان . وكانت الدولة ترتاب بالمبشرين البروتستانت خاصة ،

---

(١) أنظر التبشير والاستعمار في البلاد العربية : ص ٤٥ .

(٢) أنظر جذور البلاء : ص ٢٠٤ .

لأن هؤلاء كانوا يتوارون وراء العلم البريطاني في الأكثر ، أو يتوارون وراء العلم الأمريكي ، وبالمبشرين اليسوعيين لأنهم يعملون للسياسة الفرنسية أيضاً . وهكذا أصبح التبشير بين المسلمين في الدولة العثمانية كلها مستحيلا للرقابة الشديدة التي فرضتها الحكومة على المبشرين . ولذلك كان المبشرون كلما وجدوا مراقبة وسهراً من الدولة العثمانية لجأوا الى قناصلهم ، وكان القناصل يدافعون عنهم كرعايا أجانب في الظاهر أيضاً .

وقد استطاع المبشرون بنشاطهم هذا أن يوغروا الصدور بين رعايا الدولة الإسلامية باسم الحرية الدينية . وأوجدوا بين المسلمين والنصارى والدروز نشاطاً دينياً يتصل بالعقيدة . وحين انسحب ابراهيم باشا سنة ١٨٤٠ م من بلاد الشام إنتشر القلق والاضطراب فيها ، واغتنم الموفودون الاجانب لا سيما رجال البعثات التبشيرية ضعف نفوذ الدولة العثمانية في البلاد ، وحينئذ أخذوا يشعلون نار الفتنة ، وما مر عام واحد وحلت سنة ١٨٤١ م حتى وقعت اضطرابات خطيرة في جبل لبنان بين النصارى والدروز استفحل شرها ، حتى اضطرت الدولة العثمانية بضغط من الدول الاوروبية الى وضع نظام يقسم لبنان الى قسمين، يسود النصارى في قسم منه، والدروز في القسم الآخر[1].

وكانت سوريا ميداناً للسباق بين البروتستانت الاميركيين وبين اليسوعيين ذوي اللون الفرنسي . ويظهر أن اليسوعيين بدأوا يتسربون الى سوريا منذ القرن الثامن عشر حينما أنشأوا مدرسة عينطورة في مقاطعة كسروان في جبل لبنان في عام ١٧٣٤ م ثم تخلوا عنها للرهبان اللعازريين .

وكذلك كان للمبشرين غاية أخرى من التعليم العالي ، هي أن يؤثروا في قادة الرأي في البلاد وفي الجيل الناشىء في بلاد المسلمين .

وعلى هذا الاساس أوجد المبشرون البروتستانت كلية في بيروت عام

---

(١) انظر كتاب الدولة الاسلامية : ص ١٤٣ .

١٨٦٢م وجعلوا على رأسها المبشر دانيال بلس،هذه الكلية أصبحت فيما بعد: الكلية السورية الإنجيلية، ثم هي الجامعة الامريكية في بيروت. ولم يكتفوا ببيروت، بل أرادوا أن يكون ثمة كلية في القاهرة نفسها الى جانب الجامع الازهر. وهكذا اصبح للمبشرين الامريكيين الكلية الامريكية في القاهرة بعد كلية روبرت في استانبول أيضاً.

ولم يكن رأي المبشرين الفرنسيين مخالفاً لذلك، فأنشأوا كلية لهم في مدينة لاهور، وهي مدينة من المدن الإسلامية الكبرى في الهند وعاصمة مقاطعة البنجاب في باكستان اليوم.

ثم أقام اليسوعيون جامعة القديس يوسف اليسوعية في بيروت [١].

وروسيا القيصرية تنبهت إلى أن في الدولة العثمانية طائفة أرثوذكسية، فأرادت اولا أن تسيطر على البطاركة والأساقفة الأرثوذكس وتتخذهم وسيلة إلى تحقيق أطماعها السياسية في الدولة العثمانية. وهكذا أخذ الروس يشترون الأراضي في فلسطين خاصة ويقيمون عليها الأبنية ويتدخلون ساعة يستطيعون في الأمور الدينية والسياسية.

وجدير بالملاحظة أن اليهود كانوا وراء حركة الاستشراق والتبشير. فصموئيل زويمر الذي كان يرأس مؤتمرات التبشير من أدنبرة في أقصى الغرب إلى لكنو في أقصى الشرق، والذي قاد معارك التبشير طوال ستين عاماً انتهت بهلاكه سنة ١٩٥٢ م، قد كشف عن يهوديته الدفينة الراسخة في أعماق نفسه، وذلك بأن طلب حاخاماً يلقنه في ساعاته الأخيرة أثناء احتضاره، وبهذا الصدد يقول الأستاذ عبد الله التل: «أخبرني راهب من أصدقائي أيام معركة القدس أن الكنيسة تحتفظ بهذا السر المذهل، ولا تبوح به» حتى لا تنكشف حيل اليهود الذين يتظاهرون باعتناق النصرانية،وحتى

---

(١) انظر التبشير والاستعمار في البلاد العربية: ص ٧٩، ٨٠، ١١١.

لا يظهر إخفاق جمعيات التبشير التي تبذل الملايين عبثاً ، وتنخدع بمكر اليهود وخططهم الخبيثة لبث الفتن والبغضاء بين الإسلام والمسيحية »[1].

وليس من قبيل المصادفة أن نجد أكبر المستشرقين منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هو اليهودي جولدتسهر الذي كرس حياته للطعن في الإسلام ونبي الإسلام وقرآن الإسلام بأسلوب علمي مقنَّع تنبعث منه أحقاد اليهود ومكرهم وخبثهم[2] .

وكان معظم الجمعيات التبشرية إنجليزية وفرنسية وأمريكية. فتغلغل النفوذ الفرنسي والبريطاني عن طريقها ، وأصبحت هذه الجمعيات مع الزمن هي الموجهة للحركات القومية . وأصبحت هي المسيطرة على توجيه المتعلمين من المسلمين أو توجيه القومية العربية والقومية التركية الطورانية لغرضين رئيسيين :

الاول: فصل العرب عن الدولة العثمانية المسلمة للإجهاز على دولة الإسلام ، وأطلقوا عليها اسم تركيا لإثارة النعرة العنصرية .

والثاني : ابعاد المسلمين عن الرابطة الحقيقية التي لم يكونوا يعرفون سواها وهي رابطة الإسلام . وقد انتهوا من الغرض الاول ، وبقي الثاني قائماً . ولذلك سيظل التوجيه الى القومية عند الترك والعرب والفرس وغيرهم هو الإسفين الذي يفرق وحدة المسلمين ويعميهم عن مبدئهم[3].

وفي هذه الاثناء اتخذت أعمال التبشير مظهراً آخر لم يكن موجوداً من قبل، فلم يكتفوا بحركة المدارس ودور التبشير والمطابع والمستوصفات ، بل تعدوا ذلك الى تأسيس الجمعيات تحت رعاية الإرسالية الامريكية ، في سنة ١٨٤٧ م أسست جمعية الفنون والعلوم ، وكان أعضاؤها ناصيف اليازجي وبطرس

---

(١) جذور البلاء : ص ٢٢٨ .

(٢) انظر جذور البلاء : ص ١٩٨ .

(٣) انظر الدولة الاسلامية : ص ١٣٩ وما بعدها .

البستاني من نصارى لبنان . ولم يدخل في الجمعية من المسلمين ولا من الدروز أي عضو مطلقاً . وماتت الجمعية بعد خمس سنوات من تأسيسها . واسس اليسوعيون الجمعية الشرقية تحت رعاية الاب اليسوعي الفرنسي هنري دوبرونير، وكان أعضاؤها كلهم من النصارى ولكنها لم تعش طويلا . ثم الجمعية العلمية السورية ، ظهرت بالمظهر العربي واستبعد دخول الاجانب فيها . وقد دخلها بعض المسلمين مثل حسين بيهم، ومن الدروز محمد ارسلان ، وانضم اليها من كل طائفة من نصارى العرب . وكان من برنامجها التوفيق بين الطوائف وبعث القومية العربية في النفوس . ثم تألفت في بيروت الجمعية السرية ، فأخذت تبعث فكرة القومية العربية . وقام بتأسيسها خمسة من النصارى من الذين تلقوا العلم في الكلية البروتستانتية في بيروت وكانت تدعو للقومية العربية والعروبة وتثير العداء للدولة العثمانية وتسميها التركية [1] .

ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن جل الجمعيات السرية في العالم تدار من قبل اليهودية العالمية — فاليهود وحدهم هم الذين يعملون في الظلام متسترين . وباغي الخير لا يحتاج الى التستر والتخفي والسرّية . وهذا واضح في الحركة الماسونية التي هي جمعية سرية أو جهاز ضخم لخدمة اليهودية العالمية .

ونستطيع أن نقول إن الإسلام قد انحسر خلال عصور الانحطاط الفكري عن الساحة العامة ، وحالت بين مفاهيمه الاجتماعية السامية ومعالمه الرئيسية وبين الأمة حواجز كثيفة من الجهل والتشويه والشوائب الغريبة عنه ، وتقلص في نفوس المسلمين وضَمُر حتى عاد ديناً بالمعنى الأوروبي أي مجموعة عقائد تتعلق بما وراء هذه الدنيا ومجموع شعائر تعبدية . وهذا ما يسمى بفصل الدين عن الحياة . وبهذا الصدد يقول الدكتور محمد البهي :

« وقد نشأ في التفكير الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر اتجاهان : أحدهما لمالأة الاستعمار الغربي في تقريب الاسلام من المسيحية أو

(١) أنظر الدولة الاسلامية : ص ١٤٥ وما بعدها .

في تبديله الى توجيه ديني يرضى عنه المستعمر (حركة السيد أحمد خان في الهند التي سماها تجديداً ، وحركة ميرزا غلام أحمد) .

والثاني لمقاومة هذا التقريب أو هـذا التبديل مع الدعوة الى احتفاظ المسلمين بإسلامهم كما يصوره القرآن والسنة والى اعادة تماسك الجماعة الاسلامية والسعي الى استقلالها وعدم انصهار المسلمين في غيرهم. وبانتهاء القرن التاسع عشر تم تبلور هذين الاتجاهين ، وعُرفت أسسهما في العالم الاسلامي وأصبح لكل منهما أتباع وأنصار [١] » .

وأود أن أنبه إلى نقطتين :

الأولى : قول الدكتور محمد البهي : « فى تقريب الإسلام من المسيحية » . فالتعبير الدقيق كما أراه يجب أن يكون ، « التوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية » لأن النصرانية في ذاتها ليست نظاماً شاملاً يحدد علاقات الإنسان بربه وبنفسه وبغيره من البشر . وهي دعوة إلى التسامح وفعل الخير والمحبة . وقد نسخ القرآن الأديان السابقة. والحضارة الغربية تقوم على الفكر الرأسمالي الذي يقوم بدوره على فكرة فصل الدين عن الحياة .

والثانية : إن محمـد عبده وتلاميذه في مصر من أولئك الذين قاموا بالتوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية . وسنعرض لهذه النقطة بالذات في موضع من هذا البحث .

وجدير بالذكر أن الغرب الصليبي أدرك عن خبرة وتجربة أنه اذا قامت دولة قوية في الشرق الأدنى والأوسط فمعناه التوسع الى الغرب لنشر الاسلام وازالة الحواجز التي تقف أمامه ، عرفوا ذلك في فتح الأندلس ومعركة بلاط الشهداء ، وفي فتح صقلية وغيرها ، وعرفوا ذلك في أيام الدولة العثمانيـة في عهد محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية ، وحين استولت الدولة على البلقان

---

(١) الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي : ص ٤ وما بعدها .

والجزء الجنوبي الشرقي منهـــا مما أثار الرعب في جميع دول اوروبا من الدولة العثمانية بوصفها دولة إسلامية . وصار مستقراً عند الجميع أن الجيش الاسلامي لا يُقهر ، وأنه لا قِبل لأحد بمواجهـــة المسلمين . وظهرت المسألة الشرقيـة للوجود . وكان معناها حينئذ اتقاء الخطر من زحف العثمانيين تحت قيادة محمد الفاتح في القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي ومن خلـفه من السلاطين ، ذلك الزحف الذي استمر الى أواخر القرن الحـــادي عشر الهجري على يد سليمان القانوني ، وتركز تركزاً قوياً حتى أواسط القرن الثاني عشر الهجري ، الثامن عشر الميلادي .

وكان النفوذ الأوروبي السياسي في الشرق الاوسط والهند في أوائل القرن الثامن عشر لا يزال ضئيلاً ، فقد كانت الدولة العثمانية والفارسيـــة والمغولية لا تزال على جانب يذكر من القوة . ومع أن دول أوروبا الغربية كانت قـد قطعت شوطاً كبيراً في التقدم الصناعي وسبقت الشرق الراكد في ميدان المهارة الفنية وجودة المنتجات الصناعيـة فإن تجارها في هذه الأصقاع كانوا لا يزالون يعيشون في كنف حكامها وموظفيها الشرقيين ورعايتهم .

فلما ظهرت آثار الانقلاب الصناعي الذي ظهر في أوروبا في القرن التاسع عشر وظهرت الاختراعات المتعددة كان لذلك في مجموعه الأثر الفعال في تقوية أوروبا وفي تقدمها الفكري والمادي . فتغير مفهوم المسألة الشرقية ، فلم تعد مسألة اتقاء الأخطار الإسلامية على أوروبا ، وإنمـا صارت الإبقاء على الدولة العثمانية أو تقسيمها حيث اختلفت عليها الدول تبعاً لاختلافها في المصلحة[1].

وكان الحكام في الدولة العثمانية يحتقرون الأوروبيين المقيمين بينهم ، وبهذا الصدد يقول جورج كيرك : « وهم » حكام الدولة العثمانية» لا يزالون يعتبرون الأجانب من الأوروبيين المقيمين بينهم دونهم بمراحل لا تقدَّر . وحتى في عام ١٨٣٠ م تُرك أحد السفراء الأجانب جالساً على مقعـد بفناء القصر السلطاني

(١) أنظر الدولة الاسلامية : ص ١٣٣ — ١٣٥ .

ينتظر تفضُّل كبير الوزراء بالإذن في المقابلة ، وأخيراً سمح له بالمثول بين يدي السلطان على أنه المتبربر الجائع العاري الذي اجترأ على التمسح بجبهته في الباب العالي » [١] .

وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ – ١٩٠٨) واجهت الدولة خطراً داخلياً يتمثل في ظهور الحركات القومية وبالذات حركة الاتحاد والترقي، وهي التي يسمونها حركة الاحرار في تركيا الذين كان من رأيهم أن الأمل الوحيد في إنقاذ الدولة العثمانية هو إصلاح نظام الحكم فيها وذلك بتزويد الدولة بدستور على غرار دساتير الدول الأوروبية الحديثة . وكان زعيم هذه الحركة مدحت باشا الذي يسمى أبا الأتراك الأحرار .

ونجحت الحركة بادىء الأمر بوضع دستور ، ولكن السلطان عبد الحميد قضى على الدستور وتمسك بحقوق الخلافة ، فقامت ثورة سنة ١٩٠٨ م بقيادة ما يسمون الاحرار في تركيا وخلع السلطان عبد الحميد الثاني وصدر الدستور العثماني وتولى حزب الاتحاد والترقي الحكم .

وكانت جمعية الاتحاد والترقي قد اتخذت من (سالونيك) مركزاً لها . وكانت (سالونيك) –مقدونيا– في ذلك الوقت ذات طابع عالمي يختلف عن أية بلدة من بلدان الدولة العثمانية . وكان نصف سكانها من اليهود الذين هاجروا من الأندلس (اسبانيا اليوم) ليجدوا التسامح الديني في رحاب الإسلام . وكان الكثير منهم قد أعتنق الإسلام في القرن السابع عشر . كما كانت سالونيك أكثر اتصالاً بالعالم الأوروبي من بقية الولايات العثمانية الاسيوية منها والاوروبية . وفي سالونيك ولد مصطفى كمال «أتاتورك» وفي سالونيك كان الجيش العثماني الثالث [٢] . فأنت ترى أثر اليهود (يهود الدونمة) في تهيئة الأسباب للقضاء على السلطان عبد الحميد الثاني وخلعه ثم

---

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط : ص ١٠٦

(٢) انظر الدولة العثمانية والشرق العربي : ص ٢٠٤ .

القضاء على الخلافة الإسلامية ليتسنى لهم فيما بعد إقامة دولتهم في فلسطين أرض الإسلام المباركة .

ومن الأدلة القوية التي تدعم ما نذهب إليه أن المحامي اليهودي « عمانويل قراصُّوه » كان أحد قادة الحركة الماسونية في سالونيك وفي مقدمة الوفد الرباعي الذي تقدم إلى قصر « يلدز » ليبلغ السلطان عبد الحميد الثاني نبأ عزله وذلك عندما استخلص الاتحاديون من شيخ الاسلام في أستانبول فتوى بخلع السلطان عبد الحميد .

هذا المحامي اليهودي « قراصُّوه » كان قد طرده السلطان عبد الحميد من قصر «يلدز» قبل خلعه بسنة واحدة عندما طلب من السلطان بعض الامتيازات لليهود في فلسطين. وقراصُّوه هذا كان من حزب الاتحاد والترقي . ومما يملأ النفس أسى وحسرة جهل المسلمين وانحطاطهم الفكري لسكوتهم عن جرائم الاتحاديين وخياناتهم بخلع الخليفة المفترى عليه ونفيه إلى «سالونيك» معقل يهود الدونمة ومحافل الماسون . والسلطان عبد الحميد الثاني من أعظم سلاطين بني عثمان المتأخرين . وكان صاحب دهاء عبقري مع إخلاص للمسلمين وسهر على رعاية شؤونهم . فخلعه الاتحاديون لما أن رأوه حجر عثرة في سبيل أطماعهم . وكتب تاريخه أعداؤه في تركيا وخارجها . ولم ينصفه إلا القليل من المفكرين والمؤرخين . وألصقوا به التهم كما فعلوا بمدنان مندريس الذي أمر بإعادة رفع الأذان بالعربية بعد أن أجبرهم أتاتورك على رفعه بالتركية . وفي الوقت الذي يُمنع التركي من شتم أتاتورك أو نقده لأنه مؤسس الجمهورية التركية الحديثة ويكون عقابه الاعدام إذا فعل ذلك ، يفسح المجال إلى أبعد حد لكيل التهم للسلطان العظيم عبد الحميد، طيب الله ثراه . ولولا ضيق المقام وظروف البحث لأظهرت خصال الرجل الحميدة وحرصه على مصلحة المسلمين .

ويحاول الدكتور محمد أنيس ، عبثاً ، أن يلغي العلاقة القائمة بين اليهودية

العالمية ممثلة في الماسونية وبين حركة تركيا الفتاة أو حركة الاتحاد والترقي ، إذ يقول : « يدور كلام كثير حول حركة تركيا الفتاة بالماسونية ، إذ يرى بعض المؤرخين أن حركة تركيا الفتاة ليست إلا نموذجاً لبقية الثورات التي استخدمتها اليهودية الدولية ممثلة في الماسونية لخدمة مصالحها الخاصة – والحقيقة أن تركيا الفتاة هي التي استخدمت الحركة الماسونية وعملت تحت ستارها»[1].

والحقيقة أن الدكتور محمد أنيس أخطأ الحقيقة وابتعد عنها كثيراً.

فعلى أي دليل اعتمد الدكتور حتى ذهب إلى هذا الرأي ؟ وقوله هذا ليس جديداً . وهو نفس أقوال الماسونيين العرب الذين يصرحون بأنهم يستغلون الماسونية لخدمة أهداف الشعب العربي .

فما الخدمات التي حققها الماسون العرب للشعب العربي ؟ نريد منهم أن يعدوها ! وأقوالهم زعم باطل ودجل ظاهر يكاد يلمس بالحواس . ولو قرأ الدكتور محمد أنيس بروتوكولات حكماء صهيون ، وأسرار الماسونية للجنرال التركي جواد رفعت أتلخان ، وجذور البلاء للأستاذ عبد الله التل لما ذهب إلى هذا القول . والحقيقة هي عكس ما قاله الأستاذ الدكتور . لأن الماسونية جهاز ضخم يقوم بخدمة اليهودية العالمية في تحقيق سيطرة اليهود على العالم وتنصيب ملك من نسل داود ، عليه السلام ، كما يخططون .

ونستطيع أن نقول ان اليهودية العالمية وراء كل الجمعيات السرية في العالم . فإذا كانت الماسونية تدّعي أنها تعمل لتحقيق الرقيّ والبناء والاخاء والحرية والعدالة والمساواة للانسان فلماذا تعمل في الظلام و كتمان السرّ من أهم تنظيماتها . وأجدني مضطراً لإيراد بعض النصوص التي صدرت عن المحافل الماسونية ذاتها واثبتها جواد رفعت اتلخان فى كتابه :

١ – في وسع الماسوني ان يكون مواطناً على ان يكون ماسونياً قبل كلّ

---

(١) الدولة العثمانية والشرق العربي : ص ٢٥٥ .

شيء ، وفي وسعه بعد ذلك ان يكون موظفاً او نائباً او عيناً او رئيس جمهورية ، وعليه ان يستلهم الافكار الماسونية ، ومهما علت مكانته فإنه يستوحي مفاهيمه من المحفل الماسوني لا من مكانته [1]

٢ – إن الماسونية هي سيدة الاحزاب السياسية لاخادمتها [2]

٣ – من اهداف الماسونية محاربة الاديان وصيانة الدول اللادينية العلمانية ولذا فهي تستسيغ الارهاب بالتجرد عن مفاهيم الأخلاق والضمير [3]

٤ – ان النضال ضدّ الاديان لايبلغ نهايته إلا بعد فصل الدين عن الدولة [4]

٥ – الماسونية التي هيأت الجو لثورة سنة (١٧٨٩) الثورة الفرنسية ، عليها الآن ان تهيء الجو للثورة الماركسية . وعلى الماسونيين ان يعملوا بالاشتراك مع العمال ، لان الماسونية تملك القوى الفكرية والامكانيات العقلية ، وان العمال يكوّنون عدداً هائلا ويملكون القوى التدميرية ، وباجتماع هاتين القوتين يتولد الاضطراب الاجتماعي [5]

ويصف الجنرال جواد رفعت اتلخان خيانة الضباط الاتراك الماسونيين في حرب البلقان إذ يقول : « لا شك ان الماسونية هي سبب المصيبة التي لحقتنا في حرب البلقان ، لان فريقاً من الجبناء انخرطوا في سلك الماسونية ، وبذلك نجوا بأنفسهم من اخطار الحرب ... لا بل احتلوا اكثر المراكز المرموقة في الجيش سنة ١٣٢٨ رومية عندما أُرسلوا للحرب في البانيا القوا السلاح ولاذوا بالفرار وارتكبوا انواع الخيانات ولكنهم احتموا بالحزبية... وبينما نحن رجال الفرقة الحادية عشرة نتخذ هذا القرار في صالح الأمة ، كان ضباط الفرقة الأولى الماسونيون والمنتمون الى جمعية الاتحاد والترقي يسلمون أسلحتهم للعدو ، وبهذا مكنوا العدو من الاستيلاء على مدينة (اسكوب) الألبانية [6] وان قائدنا المشير

(١) اسرار الماسونية : ص ٢٦ (٢) اسرار الماسونية : ص ٢٩ (٣) اسرار الماسونية ص ٣٠ (٤) اسرار الماسونية : ص ٣٣ (٥) اسرار الماسونية ص ٣٦ .

(٦) اسكوب تحت حكم يوغوسلافيا الآن ، ومعظم اهلها مسلمون وتعرف الآن (اسكوبيا).

ابراهيم باشا قد جلب فرقتنا الى (اسكوب) ثقة منه بنا، ووضع سريتي المسلحة بالبنادق الأوتوماتيكية في سراي الحكومة ، ووجه الى رؤساء العصاة الإنذار التالي : « أيها السادة ... لسنا في قمم الجبال ، فلذا لا اسمح لكم بالدخول الى المدينة مسلحين .. أمهلكم ساعتين .. فإذا لم تغادروا المدينة خلالها . فلا اثم عليّ بعد ذلك .. » . وفعلاً لم يبق بعد ساعتين من الانذار أي عاصٍ مسلح في مدينة « اسكوب » . وهكذا سدت الثغرة التي أحدثها ضباط الفرقة الاولى الماسونيون »[1] .

فهذه أقوال جنرال تركي كان يعمل في الجيش العثماني واشترك في حرب فلسطين في الحرب العالمية الأولى ، وفي حرب البلقان ، ويعرفه الكثيرون من أهل فلسطين الذين عملوا في جيش الدولة العثمانية. ومعلوماته ليست من كتاب مثلاً وانما جاءت من خبرته واطلاعه على خيانات الضباط الأتراك الماسونيين الذين انتموا الى حركة الاتحاد والترقي .

وفي المقدمة التحليلية لكتاب «برتوكولات حكماء صهيون» : أكبر محطمي القيصرية في روسيا هم اليهود. وكان على رأسهم كرينسكي وتروتسكي وزينوفييف ورادك اليهود . وكان للذهب اليهودي الامريكي والفدائيين اليهود من الروس أوفر نصيب في تحطيم القيصرية وتمكين الشيوعية من روسيا .

وموقف تركيا منذ انقلاب « أتاتورك » تجاه العرب واليهود لا يفسره الا نفوذ اليهود في تركيا . فلو بقيت الخلافة العثمانية - رغم ضعفها - قائمة لما أمكن قيام وطن يهودي في فلسطين . فنكب اليهود تركيا لذلك بتسليط بريطانيا عليها أثناء الحرب العالمية الأولى . وكادت بريطانيا تعقد الصلح مع تركيا أثناءها ، ولكن اليهود عطلوه بزعامة وايزمان رئيس إسرائيل - كما ذكر هو في مذكراته - وبمساعدة بعض النساء ، فهم الذين حالوا دون الصلح بينهما ، حتى تخرب تركيا وتنحل خلافتها وتمتد حاجة

(١) أسرار الماسونية : ص ٤٠ وما بعدها .

بريطانيا بشدة الى اليهود . كما كان لهم نصيب كبير في إلغاء الخلافة . وكان أحد الثلاثة الذين سلموا الخليفة قرار العزل يهودياً . وكان لنفوذهم أكبر الأثر في طرح تركيا دينها الإسلامي وقوانينها الإسلامية ومحاربة اللغـة العربية والتبرؤ من صلاتها بالعرب . لأن اليهود ولا سيما «الدونمة» في سلانيك وغيرها – وهم يهود يتظاهرون بالإسلام – هم الداعون إلى الجامعة الطورانية للتخلص من الإسلام واللغة العربية وصلة الترك بالعرب . وكانلذلك أثره في أناصطبغ بهذه الألوان حـكم مصطفى كمال الملقب « أتاتورك » وقد كان فيه عِرق من الدونمـة . وكان حاخام اليهود حاييم ناحوم أفندي هناك ، وهو الذي فتح لليهود يومئذ باب الهجرة الى تركيـا ليكونوا بالقرب من فلسطين ، ثم صار مبعوث مصطفى كمال الى مؤتمر لوزان ، ثم عينه حاخاماً لليهود في مصر[1] .

وبعد هذه النصوص ، هل يبقى أدنى شك في علاقة اليهودية العالمية الممثلة في الماسونية بحركة الاتحاد والترقي والحركة الكمالية التي تعد امتداداً للحركة الأولى ، واستخدام اليهودية العالمية حركة الاتحـاد والترقي والحركة الكمالية وتسخيرهما لتحقيق أهدافها ؟

وإذا لم يكن ذلك كذلك فما علة وجود هؤلاء اليهود الذين كان لهم دور في حركة الاتحاديين والكماليين ؟ قراصّوه يلقي قرار العزل على السلطان عبد الحميد الثاني ، وجاويد وزير المالية في حكومة الاتحاديين ، وحاييم ناحوم حاخام اليهود صار مبعوث مصطفى كمال الى مؤتمر لوزان. ومصطفى كمال الملقب أتاتورك من يهود الدونمة في سالونيك وكان ماسونيـاً ، وقد عرف عنه أنه في أثناء الحرب العالمية الأولى انسحب أمام الجيش البريطاني من نابلس الى الأردن فحدود الأناضول في ظروف غامضة مشبوهة .

ومما يؤكد خيانة الاتحاديين وانحرافهم أنهم عملوا منذ اغتصابهم السلطة على زيادة النفوذ الغربي في السلطنة. وحين اعتدت ايطاليا على طرابلس الغرب

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون – المقدمة – ص ٧٢ وما بعدها .

أرسل السنيور لوتزاني اليهودي ، وكان رئيساً للوزارة الايطالية ، رسولاً يهودياً ايطالياً ماسونياً لكي يسعى لمصلحة ايطاليا مستخدماً الوسائل الماسونية لبلوغ مناه . وكذلك كان النفوذ الالماني واسعاً عن طريق اليهودي الماسوني سامو هشبورغ محرر جريدة « عثمانيتشر لويد » الذي نصّب نفسه مدافعاً عن جمعية الاتحاد والترقي [١] .

ومنذ مارس ١٩٠٩ م كان الاتحاديون مسيطرين على الحكم في الدولة العثمانية بزعامة أنور باشا ، وهم الذين دخلوا الحرب في جانب ألمانيا ، وعلى أيديهم هزمت الدولة العثمانية ودخلت جيوش الحلفاء استانبول .

وفي أواخر الحرب البلقانية الثانية (١٩١٢ - ١٩١٣) ظهرت الحركة الطورانية . فلقد كان استيلاء الاتراك فى أواخر هذه الحرب على « أدرنة » أول عاصمة أوروبية لهم فى يوليو ١٩١٣ م مما أثار ذكريات الانتصارات التركية القديمة ومجد الأتراك .

ثم عمد الثنائي اليهودي الماسوني من الاتحاديين الى سياسة تتريك الدولة العثمانية ، فأصبحت اللغة الرسمية في كل الولايات العثمانية هي التركية مما هيأ لثورة القوميات المختلفة داخل الدولة ومنها القومية العربية والقومية الأرمنية وغيرها .

وتألفت في الشام والعراق ومصر والحجاز الجمعيات السرّية المتعددة التي تدعو الى التخلص من نير الاتحاديين .

ففي مصر مثلاً كانت جمعية مصر الفتاة ، وإنني أذهب مع الدكتور محمد محمد حسين في رأيه الذي يقوم على وجود تشابه بين جمعية مصر الفتاة التي حركت الثورة العرابية وكانت نواتها ، وبين جمعية تركيا الفتاة التي حركت الثورة التي انتهت بخلع السلطان عبد الحميد والتي كان الانقلاب

---

(١) أنظر الأفعى اليهودية في معاقل الاسلام : ص ٨٨

الكمالي بعد الحرب العالمية الأولى امتداداً لها إذ يقول : « هذا التشابه بين الاسمين ، وبين الأهداف الثورية لكل منهما مع الاتفاق الزمني ، لأن مؤسس تركيا الفتاة على ما هو معروف هو مدحت المعاصر للثورة العرابيه يوحي بوجود صلة . ويؤيد وجود هذه الصلة أن عدداً كبيراً من أعضاء الحزبين التركي والمصري كانوا من الماسون . وأن الحزبين كليهما كانا متأثرين بمبادىء الثورة الفرنسية التي كان بعض زعمائها ومفكريها من الماسون أيضاً . ولكن الأدلة المادية القاطعة تعوز المؤرخ. وإذا قدر للماسونية أن ينكشف عنها الغطاء ويتضح ما يحيطها من غموض فسوف يساعد ذلك كثيراً على كشف الغموض الذي يحيط بهذه الحركات وبأمثالها . وسوف يغير ذلك كثيراً من الآراء السائدة المقررة عن بعض رجال العصر وأحداثه »[1] .

وقد وصل حال المسلمين إلى ما هو أسوأ من ذلك ، وصل إلى حد أن صار بعض المسلمين ، وعلى رأسهم جمال الدين المعروف بالأفغاني ، صار يدعو الى جامعة اسلامية وبتأييد من بريطانيا . أي أن تتفق دولة الخلافة مع الدول التي أنسلخت عنها فتقرها دولة الخلافة على انفصالها وتبقى دولاً متعددة . أي إلى تأييد شق عصا المسلمين ليصبحوا شعوباً وأمما .

فهذه قضية مصيرية يحاربها الاسلام ، لأن انسلاخ بلد عن جسم الدولة قضية مصيرية تقتضى إما الرجوع إلى جسم الدولة ، وإما حربهم مهما كلف ذلك من نفوس وأموال .

ومنذ بداية القرن السابع عشر ودول الغرب الصليبي المستعمر لم تتوقف عن اقتطاع أجزاء من العالم الاسلامي حتى تم لها ذلك في الربع الاول من القرن العشرين . ففي بداية القرن السابع عشر أحتلت هولندة جزر الهند الشرقية (اندونيسيا) عن طريق شركة الهند الهولندية التي تأسست في سنة ١٦٠٢ م .

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : ١ / ٥٢

وروسيا القيصرية في عهد كاترينا (١٧٦٢ – ١٧٩٦ م) حاربت العثمانيين وتغلبت عليهم ، وأقتطعت بعض أراضيهم ، وأخذت منهم مدينة آزروف وشبه جزيرة القرم ، وأستولت على جميـــع الحوض الشمالي للبحر الاسود ، وأنشأت مدينة سباستبول قاعدة لها في شبه جزيرة القرم ، كما أنشأت ميناء أوديسا التجاري على البحر الاسود ، واعتبرت نفسها حامية النصرانية الارثوذكسية في الدولة العثمانية . ثم اقتطعت من تركيا في سنة ١٨٨٤ م التركستان ، ثم أكملت احتلالها للقفقاس جميعه .

ولم يقتصر الامر على هولندا وروسيا ، بل شمل ذلك بقية الدول الغربية . ففي أول تموز سنة ١٧٩٨ م هاجم نابليون مصر واستولى عليها . وفي شباط سنة ١٧٩٩ م هاجم الجزء الجنوبي مـــن بلاد الشام واستولى على غزة والرملة ويافا . الا أن حملته هذ لم توفق ، وفشلت الحملة سنة ١٨٠١ م اذ رجع الى مصر ثم غادرها الى فرنسا .

وتتابعت سائر الدول تهاجم العالم الإسلامي وتستولي على أجزائه ، فقــد احتل الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ م ، وتطلعوا الى احتلال تونس ، وعملوا لذلك حتى احتلوها سنة ١٨٨١ م ، ثم احتلوا مراكش سنة ١٩١٢ م . كما احتلت ايطاليا طرابلس سنة ١٩١١ م . فتم بـــذلك اقتطاع شمال افريقيا وسلخه عن حكم الإسلام .

ولم يكتف الغربيون بذلك ، بل أكملوا الاستيلاء على البقية الباقية ، فقد استولت بريطانيا على الهند سياسياً سنة ١٨٥٧ م ، وانتقلت سلطة الحكم رسمياً من شركة الهنـــد الشرقية التي تأسست سنة ١٦٠٠ م والتي انضمت الى شركة أخرى جديدة في سنة ١٦٨٩م الى التاج البريطاني . وانتزعوا باستعمارهم لها سيادة المسلمين ، اذ كان المسلمون هم أصحاب السلطان في الهند منـذ أيام دولة المغول التي قامت في مستهل القرن السادس عشر الميلادي . فانتزعها الإنجليز منهم واستعمروها وأخذوا يعملون على اضعاف موقف المسلمين فيها بوجه عام .

واستولت بريطانيا على عـدن سنة ١٨٣٩ م ، وبسطت حمايتها على لحج والمحميات التسع من حدود اليمن الجنوبية الى شرق الجزيرة .

وفي سنة ١٨٨٢م استولت بريطانيا على مصر. وفي سنة ١٨٩٨م استولت على السودان . وفي سنة ١٩٠٧م أبرم اتفاق انجليزي روسي بقصد اجتناب كل سبب لعدم تفـاهم الدولتين بشأن مصالحهما في فارس بأن حُددت على مقتضاه دائرة نفوذ لكل منهما، فجُعل الشمال في نفوذ روسيا والجنوب في نفوذ بريطانيا وهكذا حُصرت افغانستان تحت الضغط الانجليزي والروسي كما حُصرت ايران.

واشتدت حملة الغربيين في كل مكان على العالم الاسلامي، حتى شعر جميعه بتعرضه للسقوط نهـائياً تحت نـير الغرب . وشعر ان الحملة الصليبية تجددت تحرز الانتصار تلو الانتصار. وصار يتشبث بأعمال لوقف هذا الزحف الغربي عند حده ، فحدثت حركات للمقاومة للغربيين في اكثر من مـكان . فشبت ثورة في الجزائر ، وهب المسلمون في الصين ، وقـــام المهديون في السودان ، واشتعلت الثورة السنوسية . فكان كل ذلك دليلا على الحيوية الكامنـة في العالم الاسلامي رغم ركوده وضعفه .

ولم يقتصر الغرب على الاستيلاء على معظم العالم الاسلامي جزءاً جزءاً، بل اخذ يعمل للقضاء على الدولة العثمانية باعتبارها الدولة الاسلامية التي تمثـــل المسلمين وترنو اليها ابصارهم ، فقد اقام في داخلها الحركات القومية كما قدمنا ، اذ اخذت الدول الاجنبية تحرض شعوب البلقان على الثورة منذ سنة ١٨٠٤ م وتمدهم لهذه الثورات، حتى انتهت ثوراتهم بالاستقلال سنة ١٨٧٨م. كما حرضت هذه الدول اليونان على الثورة منذ سنة ١٨٢١م حتى انتهت ثورتهم بسبب تدخل الاجنبي باستقلال اليونان عن تركيا سنة ١٨٣٠م .

وتتابعت سائر بلاد البلقان حتى تقلص ظل الدولة العثمانية بوصفها دولة اسلامية عن البلقان وعن كريت وقبرص واكثر جزر البحر الابيض المتوسط. ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل قام الغربيون بوسائلهم الخفية بتشجيـــع

الحركات الانفصالية عند المسلمين انفسهم في داخل كيان الدولة بين الترك والعرب فشجعوا الحركات القومية ، وشجعوا بل ساعدوا على قيام الاحزاب السياسية التركية والعربيـة كحزب تركيا الفتاة ، وحزب الاستقلال العربي ، وحزب العهد ، وجمعية مصر الفتاة وغير ذلـك ، مما جعل كيان الدولة داخلياً في اضطراب واهتزاز ، فاخذ يميد تحت هذه الاحداث الداخلية مع الغزوات الخارجية .

ومـا أن جاءت الحرب العالمية الاولى حتى وجد الكفر الممثل بالغرب حينئذ الفرصة مواتية ليوجه الحملة على العالم الإسلامي ، فيستولي على الباقي من بلاده ، ويقضي على الدولة الاسلامية ويبيدها من الوجود . فدخلت الدولة العثمانية ، على أيـدي الاتحاديين ، الحرب العالمية الاولى التي أنتهت بأنتصار الحلفاء وهزيمتها مع ألمانيا ، فتقاسم الغربيون جميع البلاد التي تتكون منها الدولة العثمانية ، ولم تبق منها الا بلاد الترك التي صار يطلق عليها اسم (تركيا). وبقيت بعد الحرب تحت رحمتهم منـذ أنتهاء الحرب سنة ١٩١٨ م حتى سنة ١٩٢١ م حيث أستطاعت الاستقلال بعـد تأمين اتاتورك للحلفاء القضاء على دولة الإسلام [١] .

وأبرمت بين بريطانيا وفرنسا في سنة ١٩١٦ م معاهدة سايكس بيكوه السرية وتقرر أنه عندما يحين وقت اقتسام الدولة العثمانية يجب وضع فلسطين تحت ادارة محلية . ودخل اللورد أللنبي بيت المقدس سنة ١٩١٧م وقال وهو يدخلها: (اليوم فقط انتهت الحروب الصليبية) . وهذا تعبير صادق عـن حقد أصيل وبغض شديد في نفسه وفي نفوس الغرب كله وبخاصة بريطانيا العدو اللدود للاسلام والمسلمين . وصدق الله اذ يقول: (قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر) .

واعطي وعد بلفور لليهود في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧م .

وصارت العراق والاردن وفلسطين تحت الانتداب البريطاني .

(١) انظر الدولة الاسلامية : ص١٥٨ – ١٦١ ، وموجز تاريخ الشرق الأوسط : ص١٤٢ .

وصارت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي .

وبعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولى التي دبرتها اليهودية العالمية على ايدي رجال الاتحاد والترقي هيأت بريطانيا لعميلها مصطفى كمال انتصارات موهومة زائفة على الجيش اليوناني الذي تغلغل في الاناضول واحتل ازمير ، مما جعل الاتراك يلقبونه بعد ذلك « أتاتورك » أي أبو الاتراك . وكان هذا الرجل معروفاً بعدم ولائه للاسلام وحبه وشغفه بكل ما هو غربي . وبعد أن حشد قوى الاتراك باسم الاسلام خداعاً وتضليلاً في حرب التحرير شرع ينفذ الخطة المجرمة لهدم الخلافة وضرب وحدة المسلمين . ونفذ خطته على مراحل مثلما فعل اليهود في فلسطين منذ أن كانت وعداً إلى أن صارت دولة ، ففي أول نوفمبر سنة ١٩٢٢ م ألغى أتاتورك السلطنة وأبقى الخلافة . وفي ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٢ م خلع وحيد الدين (محمد السادس) من الخلافة وبويع عبد المجيد بدلاً عنه . وفي أغسطس سنة ١٩٢٣ م أنشأ حزب الشعب الجمهوري وأغلب أقطابه من يهود الدونمة والماسون . وفي ٢٠ اكتوبر ١٩٢٣ م أعلنت الجمهورية التركيه الحديثة وانتخبت الجمعية الوطنية ، تحت ظروف التهديد والقتل والوعيد ، مصطفى كمال رئيساً للجمهورية . ومنذ ذلك الوقت فإن معظم رؤساء الجمهورية في تركيا من يهود الدونمة مثلهم في ذلك مثل أتاتورك .

وفي ٢ مارس سنة ١٩٢٤ م الغيت الخلافة . ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن يعيش المسلمون لأول مرة في حياتهم بدون خلافة .

ولا نريد أن نتوسع في وصف جريمة أتاتورك . فهو من يهود الدونمة . وعندما ألغى الخلافة أعلن العلمانية وفصل الدين عن الدولة، وهذا من أهداف الماسونية . واضطهد علماء المسلمين ، وأغلق كثيراً من المساجد ، والغى وزارة الاوقاف ، والغى المحاكم الشرعية والغى استعمال التقويم الهجري ، وشجع المرأة التركية والفتاة والشاب على الدعارة والفجور ،

واستبدل بالحروف العربية الحروف اللاتينية ، وفتح أبواب تركيـــا على مصراعيه لليهود وعلمائهم لتنظيم الجامعة التركية [1] .

وهكذا قضى مصطفى كمال على الدولة الاسلامية وحقق للكفار حلمهم الذي داعبهم منذ الحروب الصليبية .

ويلاحظ أن جميع البلاد التي كانت الدولة العثمانية تحكمها بوصفها دولة إسلامية قد وضعت لها عقب الحرب العالمية الأولى ميثاقاً وطنياً يتضمن نصاً واحـداً هو استقلال الجزء الذي أراده الحلفاء أن يكون بلداً منفصلاً . فالعراق مثلاً وضعت ميثاقاً وطنياً يتضمن استقلال العراق وهكذا .

وقد تأثر المصريون بالكماليين « أنصار مصطفى كمال الملقب أتاتورك » في الانحراف عن الاسلام رغم نفور كثرتهم منهم بعد إلغاء الخلافة . فحين كان الكماليون يتخذون الذئب (الأغبر) الأبيض ، وهو رمز أسلافهم الأقدمين من الوثنيين شعاراً لهم ويرسمونه على طوابع البريد ، كان المصريون يحذون حذوهم ويرسمون أبا الهول على أوراق العملة وعلى طوابع البريد. وحين جعل الكماليون حداً أدنى لسِنّ الزواج في البنين والبنـات اقتفى المصريون أثرهم في ذلك . وعندما ألغى الكماليون المحاكم الشرعية في تركيا أخذ بعض الكتاب في مصر يناقشون إلغاءها. وحين حمل مصطفى كمال نساء تركيا على السفور والاختلاط بالرجال ومراقصتهم احتدمت المعارك في مصر حول هـــذه الموضوعات في الصحافة والأندية . وحين ألزم مصطفى كمال الأتراك أن يلبسوا القبّعة خاض بعض الكتاب المصريين في بحث ما سمّوه « مشكلة الأزياء » داعـــين الى توحيدها ، ودعا بعض أفراد منهم الى اتخاذ القبعـة . وحين استبدلت تركيا الحروف اللاتينية بالحروف العربيـــة أخذ كثير من الكتاب والصحافيين في مصر يناقشون ما سموه « مشكلة الخط العربي » [2] .

---

(١) انظر الأفعى اليهودية في معاقل الاسلام ـ ص ٨٩ – ٩٦ .
(٢) أنظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ٢ / ٩١ وما بعدها .

وظهر كتابان في مصر لقاسم أمين أحد تلاميذ الشيخ محمـد عبده الذي اقترن اسمه من بعدُ بلقب محرر المرأة وهمـا « تحرير المرأة » و « المرأة الجديـدة » . وقد طبع الكتاب الاول سنة ١٨٩٩ م ، وطبع الثاني سنة ١٩٠٠ م . وأثار ظهور الكتابين ضجة شديدة في ذلك الوقت وظلا موضع أخذ ورد فى الصحف طوال نصف قرن .

أما كتاب « تحرير المرأة » فقـد انصرف جهد المؤلف فيه الى التدليل على ما زعمه من أن حجاب المرأة بوضعه السائد ليس من الاسلام ، وان الدعوة الى السفور ليس فيهـا خروج على الدين او مخالفة لقواعـده . بينما غلب المنهج الغربي الحديث على كتابه الثاني « المرأة الجـديدة » فأقام بحثه فيه على الاحصاءات التي تدعمها الارقام والوقائع وتؤيدهـا آراء لبعض كُتاب الغرب ومفكريه[1]

ثم ظهرت محاولات عدة لإحياء الخلافة الاسلامية بعد ذلك . وكان من هذه المحاولات ايضاً محاولة الملك فؤاد الاول ملك مصر . وهـذه المحاولة سببت الازمة بين السراي وحزب الاحرار الدستوريين في سنة ١٩٢٤م حين نشر احد رجال هذا الحزب وهو الشيخ علي عبد الرازق كتاب «الاسلام واصول الحكم» الذي نفى فيه وجود الخلافة كأساس من أسس الحكم الاسلامي . وكان نشر هذا الكتاب في سنة ١٩٢٥م .

والشيخ علي عبد الرازق احد علماء الأزهر وقضاة المحاكم الشرعية . وقد استعار الشيخ لدعواه من الدراسات الاسلامية للمستشرقين القساوسة الصليبيين واليهود الحاقدين مـا لهم من آراء في هذا الجانب ، ومـا لهذه الدراسة من اصول تواضعوا عليها عند النظر الى الاسلام لا نتيجة لبحث نزيه ولكن انبثاقاً عن غرضٍ خاص .

---

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ١ / ٢٧٣ .

وقد صدر قرار إجماعي عن مجمع علماء الأزهر يتّهم الشيخ باعتناق آراء مخالفة للشريعة ويخلعه ويعلن انه غير كفؤ للقيام بأية وظيفة دينية [1].

ومن أخطر ما ظهر في هذه الفترة مما يـــدعو الى هدم التدين كتاب أثار ضجة هائلة في الصحف وفي المجلس النيابي هو كتاب « في الشعر الجاهلي » لطه حسين الذي ظهر سنة ١٩٢٦ م بعد أن ألقاه صاحبه على طلبة السنة الأولى في كلية الآداب خلال العام الدراسي المنصرم .وفي هذا الكتاب يشك صاحبه في وجود النثر الفني الجاهلي ، ويشك في وجود الشعر الجاهلي . واستخف بما قرره القرآن من صلة إبراهيم عليه السلام بالعرب وبنائه الكعبة بما لا يرتفع عنده أكبر من مرتبة الأساطير التي خلفها اليونان والرومان.والواقع أن منهجه فاسد من الناحية العقلية والمنطقية .

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن المستشرقين والمبشرين دأبوا على إذاعة الأراجيف الباطلة حول اللغة الفصحى وقدرتها على الحياة لأداء متطلبات العصر الحديث في العلوم والفنون . وشهدت مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر معركة عنيفة قادها عملاء اليهودية العالميـــة من أمثال ولكوكس ، وباول ، ويعقوب بن صنوع اليهودي لمحاربة الفصحى والترويج للعامية . وساعدهم في الحرب ضد العربيـــة الفصحى نفر من أقطاب الفكر في مصر وسوريا منهم اسكندر المعلوف ، وسلامة موسى ، وعبدالعزيز فهمي ، وأحمد لطفي السيد ، وسعيد عقل ، وأنيس فريحة ، ومارون غصن .

ونحن إذا تتبّعنا تاريخ الصراع بين الفصحى والعامية في مصر لا نجد أثراً لهذا الصراع قبل ظهور الدعوة الأجنبية التي نادت باتخاذ العامية أداة للتعبير الأدبي . وكان في مصر من دعا الى ضبط العامية ، وكان فيهـــا من استخدم العامية فعلاً في الكتابة ، ولكن لم يكن هدفهم من ضبط العامية او استخدامها

---

(١) انظر الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي : ص ٢٤٠ ، والدولة العثمانية والشرق العربي ص ١١٥ .

رفع العاميـــة الى الاستعمال الكتابي حتى تتمكن من القضاء على الفصحى واحتلال مكانها كما كان يهدف دعاة العامية من الأجانب ، وانما كان هدفهم من ذلك هو استخدام العامية في مواضع مخصوصة للترفيه عن العـــامة حيناً أو لتثقيفهم وتهذيبهم حيناً آخر ،على أن تظل للفصحى مكانتها كلغة للأدب الرفيع والثقافة الاسلامية عامة ، كما يتضح ذلك من دراسة أفكارهم إزاء العـــامية وآثارهم المدوّنة بالعامية [1] .

وقد اهتم الأجانب بدراسة اللهجات العربية العامية منذ القرن التاسع عشر. وكان لهذا الاهتمام مظاهره :

١ – إدخالهم تدريس اللهجات العامية في مدارسهم وجامعاتهم في ايطاليا وفي النمسا وفي فرنسا وفي روسيا وفي ألمانيا وفي المجر وإنجلترا .

٢ – اهتمامهم بالتأليف في اللهجات العامية .

وهذا الاهتمام بدراسة اللهجات العربيـــة المحلية لم يكن من أجل البحث العلمي كما يزعمون ، ولا من أجل حاجتهم الى معرفة لهجات البلاد العربية التي تقتضي مصالحهم أن يعيشوا فيها ويتعاملوا مع أهلها، وإنما من أجل القضاء على العربية الفصحى وإحلال العامية محلها .

ويُعتبر الدكتور ولهلم سبيتا الألمـــاني الجنس الرائد الأول لكل من كتب في العامية المصرية من الأجانب . وفي هذا الكتاب وضع أول اقتراح لاتخاذ الحروف اللاتينية لكتابة العـــامية ، تلك الحروف التي تودي باستخدامها فيما بعدُ ... لكتابة العربية الفصحى .

وقام وليم ولكوكس مهندس الري الانجلـــيزي في مصر بعدة محاولات لإدخال العامية في نماذج أدبية رفيعة وعلمية لكي يشجع المصريين على مجاراته في هذه التجارب ، فتتمكن العامية بذلك من اقتحام الميدان العلمي والأدبي ،

(١) أنظر تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها في مصر ، ص ٧٥

وتصبح لها أهمية قد تساعد –كما يأمل– في سرعة القضاء على العربية الفصحى.

وهناك فريق رأى أن العيب والصعوبة في النحو نفسه . وتتلخص آراء هذا الفريق على اختلاف معاولها في الهدم في :

إلغاء الإعراب بتسكين أواخر الكلمات . وهو رأي قاسم أمين ومؤيديه مثل سلامة موسى ، وأنيس فريحة الذي يعدُّ الإعراب زخرفاً من بقايا العقلية القديمة في اللغة .

وأخطر هؤلاء الهدامين المنهزمين روحيـاً وفكرياً عبد العزيز فهمي أحد شيوخ مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وذلك في الاقتراح الذي قدمه الى المجمع في جلسة ١٩٤٣/٥/٣ بشأن تيسير الكتابة العربية ، والذي دعا فيه الى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية أسوة بما فعله أتاتورك في تركيا . ولم يناصر دعوته إلا أقليـة ممن عُرفوا بعدائهم للعربية الفصحى . فكانت هذه الدعوة بمثابة متنفس جديد لعدائهم للعربية [1] .

وأضحى التعليم منذ مطلع القرن العشرين تقريباً في المدارس والجامعات في البلاد الإسلامية لا يرتبط ارتباطاً صحيحاً بالإسلام ، وإنما صار علمانياً يعتمد على فصل الدين عن الحياة ، ونسخة صادقة لما أراده ونشره المبشر اليهودي دنلوب الذي خطط لمناهج التعليم في مصر ليكون ذلك انموذجاً يحتـذى في كثير من بلاد الإسلام . وصار الطالب عند تخرجه يعرف عن نابليون وعصر النهضة الأوروبية والحرب الأهلية الأمريكية أكثر مما يعرف عـــن نظام الإسلام وتاريخ المسلمين وتاريخ دولتهم التي كانت الدولة الأولى في العالم خلال قرون غير قليلة .

وأنا أذهب مع الأستاذ محمد المبارك في تصوره أن الإسلام في هذا العصر مر في مراحل كان أولها ما يمكن أن نعنونه بعنوان :

---

(١) أنظر تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها في مصر.ص ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٧، ١٨، ٥٥، ١١٨، ١١٩، ١٤٤، ٢٠١

١ – الإسلام في قفص الاتهام . فقد وقف دعاة الإسلام في القرن الماضي يدافعون عن الاسلام على أنه متهم في قفص . فالاسلام كما يقولون : « ليس منافياً للرقي ولا مانعاً من التقدم ولا معارضاً للعلم والعقل » . فكأن الاسلام مجرم يراد أن يُدافعَ عنه . وهذا ما يلاحظ في المؤلفات الاسلامية التي ألفها دعاة الاسلام منذ قرن في كتابات محمد عبده وفريد وجدي وأقرانهما .

٢ – ثم جاء عهد آخر خرج الاسلام فيه من قفص الاتهام، ولكنه أصبح يقاس بمقاييس غيره أو يقوم بقيم غير قيمه . فالاسلام صالح لأنه مبني على الديموقراطية ، والاسلام يستحق البقاء والخلود لانه متطور .

والإسلام حسنٌ لان فيه كذا وكذا من الافكار . وهذه الافكار والمبادىء والقيم والمقاييس انما استعيرت من مذاهب أُخرى ، فكأن الاصل أننا نؤمن بمذاهب معينة هي في خارج إطار الاسلام ، ثم نحاول بعد ذلك أن نقوّم الاسلام بهذه القيم التي نستعيرها من تلك المذاهب على انها قيمٌ مُسَلّمٌ بها وعلى انها منبثقة عن مذاهب نؤمن بها . هذا طورٌ ثانٍ مرَّ به الاسلام . ولا يزال الاسلام في هذا العصر اللهم الا بعض طلائع الوعي في بعض البلاد الاسلامية ، في هذا الطور الذي يقاس فيه بمقاييس غيره .

٣ – والمرحلة الثالثة ، وهي المرحلة التي بدأت طلائعها هي مرحلة الذاتية بالنسبة للاسلام ، فللإسلام مقاييسه الخاصة ومعاييره الذاتية – فهو ليس صالحاً لأنه موافق للديموقراطية أو للأشتراكية أو للرأسمالية او لأن فيه حرية فردية او لان فيه مصلحة الجماعة او لان فيه كذا كذا إلى غير ذلك من المفاهيم المنبثقة عن مذاهب أخرى . إن للإسلام مقاييسه في الخير والشر والحق والباطل. ولا نعني ان هذه المقاييس ليست لها جذور عقلية ترتد اليها ، ولكنها جذور ممتدة من دوحتها وفروع مشتقة من اصل شجرتها تلك هي المرحلة التي بدأت في العصر الحاضر او بدأت طلائعها في عدد من المؤلفات القليلة وفي عدد من الرؤوس المفكرة في العالم الاسلامي ، وهي

المرحلة التي يتنبأ الاستاذ محمد المبـــارك بأنها ستكون مرحلة الاسلام في المستقبـل القريب [1] .

مما تقدم نستطيـع أن نقول إن أحوال المسلمين كانت تسير نحو التدهور والانحطاط الفكري وبخاصة في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . ويقابل ذلك نهوض عند الغرب الصليبي وتقـــدم علمي سريـع واختراعات وثورة صنـــاعية . وتبع ذلك هجوم الدول الاستعمارية على بلاد المسلمين والاستيلاء عليها جزءاً جزءاً في اكثر من قرن .

واختلط الامر على المسلمين وزاغت ابصارهم لمــا رأوا تنظيم الغرب وصناعاته واختراعاته . فلم يُفرقوا بين التقدم العلمي في الغرب وبين افـكاره وانظمته وحضارته التي تقوم على فصل الدين عن الحياة . فالعلم عام يؤخـذ من اية جهة ، أما الفكر والنظام والحضارة فهي خاصة .

ولا يغيب عن الاذهان أن الغاء اتاتورك للخلافة الإسلامية في سنة ١٩٢٤م وذهول المسلمين وحيرتهم إزاء هـــذا العمل دون ان يفعلوا شيئاً هو دليل واضح على انحطاط المسلمين فكرياً وتدهور اوضاعهم سياسيا واجتماعيا . لان الغاء الخلافة قضية مصيرية تستحق ان يتحرك المسلمون لإعادتها وسحق المجرمـــين الذين دبروا إلغاءها ولو أدى ذلك الى قتل الملايين من المسلمين ليكونوا شهداء في سبيل الله .

هذه الخلافة الاسلامية التي كانت تحتضنها استانبول دوخت الغرب الصليبي قروناً طويلة وكانت شوكة في حلوقهم . حتى قضى عليها واحد يزعم أنه تركي مسلم دون أن يتحرك المسلمون تحركاً يستحق الذكر .

وزالت بذلك عظمة استانبول وشموخها ووزنهـــا السياسي . وأضحت مدينة خلاء تسيرها حفنة من عملاء اليهودية العالمية والماسونية .

---

(١) الفكر الاسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية : ص ٥١ وما بعدها .

وبقيت معظم البلاد الاسلامية حتى منتصف القرن العشرين تقريباً ترزح تحت كابوس المستعمرين ، إذ خرج من معظمها بجيوشه ، ولكنه أبقى خلفاً له فيها أفكاره وأنظمته ومقاييسه في الحياة .

ومن الطبيعي والحالة هذه أن يرتد المسلمون الى تراثهم الأصيل وحضارتهم العريقة يستمدون منها الرؤيـــة الصحيحة التي تدلهم على الخلاص مما هم فيه والسير في طريق النهوض والتقدم .

وكان ارتدادهم الى القرآن الكريم كتاب الاسلام الذي فيــه عصمتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة . وعندما ارتدوا الى القرآن هذه المرة لم يكونوا كأسلافهم الذين واجهوا التحدي الصليبي والمغولي . لأن غشاوة أوجـــدها الغرب الصليبي منعت أبصارهم وبصائرهم من الرؤية الصحيحة لطريق الخلاص والنهوض ، فتفرعت بهم السبل وذهبوا كل مذهب .

وقد كانت عناية المسلمين عظيمة بكتاب الاسلام ، القرآن الكريم. بحيث لا نجد كتاباً آخر غير القرآن اعتنت به أمة أو شعب مثل اعتناء المسلـين بتفسير القرآن وتأويله .

والتفاسير التي خلـّفها المسلمون كثيرة . وقد تكفي هذه التفاسير وتسد حاجة المسلمين الى فهم كتاب الله تعالى : ولكن المسلمين بعامة يجدون بعض الصعوبة في فهم هـــذه التفاسير التي يختلف اسلوب مفسريها بعض الشيء عن أسلوب هــــذا العصر بحيث لا يستسيغها تماماً الا ذوو الاختصاص . وتفسير القرآن فرض كفاية وليس فرض عين .

واذا كان ذلك كذلك فقد قام بعض المسلمين من العلمــاء بتفسير القرآن الكريم . وسار هؤلاء المفسرون في اتجاهات بسبب العصر الهــابط الذي يعيشونه . وهذا أمر ليس غريبا . لان الثقافة والمفاهيم الغربية عن الحيـــاة وذهول المسلمين من التقدم العلمي في الغرب كان له الاثر في تشعب اتجاهات المفسرين وطرائقهم في تفسير كتاب الله تعالى .

ولاول مرة في تاريخ المسلمين نرى انظمة وافـكاراً وثقافة غير اسلامية تتسرب الى ديار الاســـلام اولاً في هدوء وتدرج ، ثم لا تلبث ان تفرض فرضا على المسلمين بقوة السلاح وبدعم الجيوش الجرارة .

وليس غريباً ان يكون من بين اتجاهات المفسرين اتجـــاه سلفي يرتبط بالقـديم ويعد استمراراً له .

وهناك اتجـــاه عقلي توفيقي يوفق بين الاسلام وبين الحضارة الغربيـة . وظهر اتجاه علمي في التفسير كانت له جذور قديمة . ولكن اصحابه توسعوا فيه ، وكان هدفهم اثبات صلاحية الاسلام في كل زمـــان ومكان ، ولذلك اخضعوا آيات القرآن الكريم ، لقواعد العـلم ونظرياته .

وهناك اتجاهات أُخرى للتفسير سوف نتحدث عنها في الجزء الثاني من هذا البحث .

الفصل الأول

اتجـــاه سلفي

هذا الاتجاه في التفسير ليس جديداً كما قلنا آنفـــاً . وهو قديم يرتد الى السلف الصالح من المفسرين القدامى . وظل هذا الاتجاه خلال رحلته الطويلة عبر القرون يحمل صورة التفسير القرآني الجادّ والأصيل الذي تهفو اليه أفئدة جمهرة المسلمين في شتى الأمصار الاسلامية .

ولقد اخترت ثلاثة تفاسير مشهورة تمثل هذا الاتجاه تمثيـــلاً إن لم يكن دقيقاً فهو قريب من الدقة .

وأول هذه التفاسير : محاسن التأويل للقاسمي .

وثانيها : التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة .

وثالثها : التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب .

وسنقوم في الصفحات التالية بتقديم صورة واضحة لهذه التفاسير .

١ – **محاسن التأويل** : مؤلف هذا التفسير الشيخ محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي المولود سنة ١٨٦٦ م والمتوفى سنة ١٩١٤ م = ١٣٣٢ هـ .

طالع المؤلف كثيراً من مصنفات المحدثين والأصوليين والفقهاء والصوفية والمتكلمين والأدباء من المتقدمين والمتأخرين .

وكان القاسمي يتحرى مـــذهب السلف في الدين وينصره في دروسه ومصنفاته، وما مذهب السلف إلا العمل بالكتاب والسنة بلا زيادة ولا نقصان. وكان يتحرى في المسائل الخلافية الاعتدال والإنصاف واتباع مـا يقوم عليه الدليل من غير تشنيع على المخالف ولا تحامل .

ونشأ في بيت عرف بالتقوى والعلم . وكان أبوه فقيهاً غلب عليه الأدب وأخذت الآفاق تتسع أمامه فعكف على مكتبته الخاصة التي أسسها جـــده وأبوه ينهل من معينها . وهـذه المكتبة تشتمل على التفسير والحديث والفقه واللغة والتصوف والأدب والتاريخ والأصول والاجتماع والرياضيات والقانون المقارن والفلسفة القديمـــة والحديثة وكتب الفرق الإسلامية وكتب الديانات الأخرى . وكان يدعو الى فتح باب الاجتهاد وإلى ايجاد معامـل الاسلحة في البلاد الإسلامية .

وقـــد خلف المؤلف زهاء مئة مصنف أو أكثر ولم يبلغ الخمسين من عمره . وكان الكتّاب في العصر الذي عاش فيه القـــاسمي يعتبرون السجع المثل الأعلى في الإنشاء . وكانت مقامات الحريري القدوة التي يحتذيها الكتاب فيما يكتبون ، وقد درجوا على تحفيظها للطلاب لتنميـة الملكة الأدبيـــة . ثم شاعت طريقة الترسل ، وكان الشيخ محمد عبده من الذين استعملوها ودعوا إلى نشرها . وكان القاسمي معجباً بالأستاذ محمد عبده، فعدل عن السجع إلى الترسل في أكثر ما كتب بعد تعرفه عليه عام١٩٠٤م .

وتفسير القاسمي « محاسن التأويل » يقع في سبعة عشر جزءاً . وقـــد نشرته دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة وحققه محمد بهجة البيـطار عضو المجمع العلمي العربي .

ومهد المؤلف لتفسيره بأن جعل الجزء الأول خاصاً بمقدمـة مشتملة على قواعد التفسير ليكون هذا الجزء مفتاحاً لهـــذا التفسير . ولنستمع اليه إذ يقول : « وبعـــد أن صرفت في الكشف عـــن حقـــائقه شطراً من

عمري ، ووقفتُ على الفحص عن دقائقه قدراً من دهري . أردت أن انخرط في سلك مفسريه الأكابر ، قبل أن تبلى السرائر وتفنى العناصر . وأكون بخدمته موسوما ، وفي حملته منظوما . فشحذت كليل العزم ، وأيقظت نائم الهمم. واستخرت الله تعالى في تقرير قواعده ، وتفسير مقاصده ، في كتاب اسمه بعون الله الجليل : « محاسن التأويل » ، أودعه ما صفا من التحقيقات، وأوشحه بمباحث هي المهمات، وأوضح فيه خزائن الأسرار ، وأنقد فيه نتائج الأفكار ، وأسوق اليه فوائد التقطتها من تفاسير السلف الغابر ، وفرائد عثرت عليها في غضون الدفاتر ، وزوائد استنطبتها بفكري القاصر ، مما قادني الدليل اليه ، وقوي اعتمادي عليه .

هذا وقد حليت طليعته بتمهيد خطير في مصطلح التفسير . وهي قواعد فائقة ، وفوائد شائقة ، جعلتها مفتاحا لمغلق بابه ، ومسلكاً لتسهيل خوض عُبابه ، تعين المفسر على حقائقه ، وتطلعه على بعض أسراره ودقائقه »[١].

وفي مقدمة تفسيره يعقد فصلاً في ذكر ملخص وجوه التفسير ومراتبه. وهذا الفصل ينقله عن مقدمة التفسير الذي شرع فيه في هذا العهد مفتي مصر الشيخ محمد عبده . وهذا الفصل يقع في عشر صفحات[٢] .

وفي هذه المقدمة نراه ينقل كثيراً عن الشاطبي ، وابن تيمية ، والعز بن عبد السلام، والشيخ وليّ الله الدهلوي،وأبي عمرو الداني،وأبي عبيد القاسم بن سلاّم ، وابن حزم . ويستشهد بأحاديث الرسول عليه السلام التي أخرجها البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم .

ويبدو أن القاسمي كان متأثراً بالنزعة العلمية في تفسيره ، فقد عقد فصلاً في بيان دقائق المسائل العلمية الفلكية الواردة في القرآن الكريم . وقد صرح بأنه نقل ذلك عن بعض علماء الفلك[٣] .

---

(١) محاسن التأويل ـ المقدمة ـ : ١ / ٥ وما بعدها .

(٢) انظر محاسن التأويل المقدمة . ١ / ٣٢٢

(٣) أنظر محاسن التأويل ، المقدمة : ١ / ٣٣٢

ونراه يورد أقوال المفسرين القدامى وينقل عن تفاسيرهم . فهو ينقل عن تفسير ابن جرير الطبري، والزمخشري، والراغب الأصفهاني، والفخر الرازي، وابن كثير الدمشقي ، وابن القيّم ، وأبي حيان الأندلسي ، وابن عطية الاندلسي ، والقرطبي ، والبيضاوي ، وأبي السعود ، وبعض مفسري الزيدية، وبرهان الدين البقاعي ثم الدمشقي ، والشيخ محمد عبده . والقاسمي يكاد ينقل في مواضع كثيرة من تفسيره ما ورد في تفسير ابن كثير الدمشقي حرفياً .

ونجده يورد أقوال كثير من العلماء في تفسيره مثل الشافعي ، وابن سعد ، والفرّاء صاحب معاني القرآن ، والقاضي عبد الجبار ، وابن حزم ، والشهرستاني، والعكبري ، وابن المنيّر الاسكندري ، وعزالدين محمد بن عبد السلام ، وابن حجر العسقلاني ، وابن تيمية ، وابن القيّم ، والسيوطي ، والحرالي .

والقاسمي من علماء الحديث . وله كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » . وقد نشرته دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٩٦١ م ولذلك لا تكاد تخلو صفحة من صفحات « محاسن التأويل » من حديث نبوي يدعم به تفسيره . ولذلك نراه يستشهد بالأحاديث التي أخرجها البخاري ومسلم وابن حنبل ومالك بن أنس وابن حِبّان والترمذي وغيرهم من أصحاب الجاميع الحديثية .

وكان القاسمي يرجع الى صحاح الجوهري والقاموس المحيط وشرحه عندما يفسر كلمة أو عبارة قرآنية ، يقول: (الرحمن الرحيم) قال الجوهري : هما اسمان مشتقان من الرحمة ، ونظيرهما في اللغة « نديم وندمان » . وهما بمعنى . ويجوز تكرير الإسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد ، كما يقال جادّ مجدّ ، إلا أن (الرحمن) اسم مخصص بالله لا يجوز أن يسمى به غيره . ألا ترى أنه قال : (قل أدعوا الله أو أدعوا الرحمن) فعادل به الاسم الذي لا يشركه فيه غيره ! [1] »

(١) محاسن التأويل : ٥/٢ .

ويقدم لنا تعليق الشيخ محمد عبده على كون (الرحمن الرحيم) بمعنى واحد ، يقول : « وقد ناقش في كون (الرحمن الرحيم) بمعنى واحد، الشيخ محمد عبده المصري في بعض مباحثه التفسيرية قائلاً : إن ذلك غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها - ثم قال : وأنا لا أجيز لمسلم أن يقول في نفسه أو بلسانه : إن في القرآن كلمة جاءت لتأكيد غيرها ولا معنى لها في نفسها ، بل ليس في القرآن حرف جاء لغير معنى مقصود . والجمهور : على أن معنى الرحمن : المنعم بجلائل النعم ، ومعنى الرحيم : المنعمُ بدقائقها . وبعضهم يقول : إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم ؛ والرحيم : المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين [1] » .

ويُعنى القاسمي بالقراءات المتواترة ، فهو يقول : « القول في تأويل قوله تعالى (مالك يوم الدين) : قرأ عاصم والكسائي بإثبات ألف (مالـــك) والباقون بحذفها . قال الزمخشري : ورجحت قراءة « مَلِك»لأنها قراءة أهل الحرمين ، وهم أولى الناس بأن يقرأوا القرآن غضاً طرياً كما أنزل ، وقراؤهم الأعلون رواية وفصاحة . ولقوله تعالى : (لمن المُلْك اليومَ) ، فقد وصف ذاته بأن الملك يوم القيامة . والقرآن يتعاضد بعضه ببعض ، وتتناسب معانيه في المواد وثمة مرجحات أخرى [2] » .

ولأن القاسمي ذو علم عريض بالحديث ومصطلحه نراه يدعم ما يـــذهب إليه من فهم للقرآن بأحاديث عن الرسول عليه السلام ، إذ يقول : «فالعبادة أنواع وأصناف ، ولا يتم الايمان الا بتوحيدها كلها لله سبحانه . وقـد بينت السنة أن الدعاء هو العبادة . أي ركنها المهم الأعظم . وأصله من التنزيل الكريم قوله تعالى : (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) فسماه عبادة . وفي الخبر :

---

(١) المرجع السابق : ٥/٢ .
(٢) المرجع السابق : ٩/٢ .

(الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل) . ونصه عن أبي موسى الأشعري قال : خطبنا رسول الله ﷺ ذات ليـلة فقال : (أيها الناس : اتقوا هذا الشرك ، فإنه أخفى من دبيب النمل . فقال له من شاء أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال : قولوا : أللهم إنّا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلم [١] » .

والقاسمي في أثناء تفسيره اذا وجد أمراً فيه َلبْس واختلاط فإنه ينبّه اليه ويحيل على الموضع الذي ذكر فيه تأويل جملة قرآنية ، يقول : « القول في تأويل قوله تعالى » : (وآمنوا بما أنزلتُ مصدّقاً لمـا معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون) ... تنبيه : كثيراً ما يستدل بمجادلة أهل الكتاب على عدم تحريف كتبهم بهذه الآية وأمثـالها كآية (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) وآية (ولكن تصديق الذي بين يديه) وغيرهما . مع أنه ثبت بالبراهين القاطعة ذهاب قدر كبير من كتبهم ، واختلاط حقها بباطلهـا فيما بقي ، كما صنفت في ذلك مصنفات عدة . وقد رد استدلالهم بهذه الآية وأمثالها على ما ادعوه ، بأن معنى كون القرآن مصدقاً لما معهم ، ما ذكرناه قبلُ في تأويلها » [٢] .

والقاسمي ينصر مذهب أهل السنة . ولذلك نجده يورد أقوال المعتزلة ويرد عليها . ولنستمع اليه حين يورد قول المعتزلة في أن الشفاعة لا تُقبل للعصاة ويفنّد زعمهم هذا بأقوال صاحب الانتصاف ابن المنيّر الاسكندري ، يقول القاسمي : « القول في تأويل قوله تعالى (واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يُقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم يُنصَرون) [٣] : تنبيه : تمسكت المعتزلة بهذه الآية على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة ، لأنه نفى

---

(١) محاسن التأويل : ٢ / ١٢ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ، ٢ / ١١٥ وما بعدها .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٤٨

أن تقضي نفس عن نفس حقاً أخلَّت به من فعل أو ترك ، ثم نفى أن يقبل منها شفاعة شفيع . فعُلم أنها لا تقبل للعصاة. والجواب : أنها خاصة بالكفار. ويؤيده أن الخطاب معهم كما قال : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) ، وكما قال عن أهل النار (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) . فمعنى الآية أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ ولا يخلص منه أحد . وفي الانتصاف : من جحد الشفاعة فهو جدير ألا ينالها . وأما من آمن بها وصدقها ، وهم أهل السنة والجماعة ، فأولئك يرجون رحمة الله . ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين ، وإنما أدخرت لهم . وليس في الآية دليل لمنكريها »[1] .

وها هوذا ينصر مذهب أهل السنة في جواز رؤية الله تعالى يوم القيامة ويرد على المعتزلة الذين ينكرون ذلك ، فيقول : « القول في تأويل قوله تعالى : (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون[2])

دلت الآية على ان طلب رؤيته تعالى في الدنيا مستنكر غير جائز ، ولذا لم يذكر ، سبحانه وتعالى ، سؤال الرؤية إلا أستعظمه . وذلك في آيات منها هذه . ومنها قوله تعالى : (يسألك أهلُ الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ... الآية) . ومنها قوله تعالى : (وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً) . فدلت هذه التهديدات الفظيعة الواردة لطالبيها في الدنيا على امتناعها فيها . وكما أخبر تعالى بانه لا يرى في الدنيا فقد وعد الوعد الصادق عز وجل برؤيته في الدار الآخرة في آيات عديدة ، كما تواترت الاحاديث

---

(١) محاسن التأويل . ٢ / ١٢١

(٢) سورة البقرة ، الآية ٥٥

الصحيحة بذلك ، وهي قطعية الدلالة. لاينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعـــد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة وزعموا ان العقل قد حكم بها » (١) .

والقـــاسمي لانه عني بالنقل عن مفسري السلف فلامفر له من ذكر الاسرائيليات في تفسيره ، يقول في تأويل قوله تعالى : وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنـكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئـكم فاقتلوا انفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم (٢)

« هذه الآية بيان لكيفية وقوع العفو المـذكور في الآية قبل . روي ان موسى عليه السلام لما رجع من الميقات ورأى ما صنع قومه بعده منعبادة العجل ، غضب ورمى باللوحين من يده . فكسرهما في أسفل الجبـــل . ثم أحرق العجل الذي صنعوه ، ثم:قال : من كان من حزب الرب فليُقبل إليّ . فاجتمع إليه جميع بني لاوي . وقال لهم : هذا ما يقوله الرب إله إسرائيل: ليتقلد كل رجل منكمسيفه ، فجوزوا من وسط المحلة منباب إلىباب وارجعوا . وليقتل الرجل منكم أخاه وصاحبه وقريبه . فصنع بنو لاوي كما أمرهم موسى فقتلوا في ذلك اليوم من الشعب نحو ثلاثـة وعشرين ألف رجل (وفي رواية نحو ثلاثة آلاف رجل) . وفي غد ذلك اليوم كلم موسى الشعب وقال لهم : أنتم قد أخطأتم خطيئة عظيمة . وإني الآن أصعد إلى الرب فأتضرع إليه من أجل خطيئتكم . فصعد موسى وتضرع للرب وسأل المغفرة لقومه » (٣) .

ولا يغيب عن البال أن القاسمي بدأ هذه الرواية بلفظة « روي » المبني للمجهول إشعاراً منه بضعفها .

والقاسمي إذ ينقل الإسرائيليات عن تفاسير السلف إلا أنـه لا يقف منها

---

(١) محاسن التأويل ، ٢ / ١٣٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٥٤

(٣) محاسن التأويل : ٢/١٢٧ .

كحاطب ليل ، فتراه يضعفها وينبه الى فسادها وغلطها مستفيداً من أقوال ابن كثير الدمشقي فيها ، يقول في تأويل قوله تعالى : (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا .. الآية)[1] : « وقد غلط أهل الكتاب في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل ، فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمنع منه ، فكيف يناله هؤلاء السبعون ! أفاده ابن كثير . وقد رأيت دعواهم المذكورة في الفصل الرابع والعشرين في سفر الخروج . وهذا من المواضع المحقق تحريفها . ويدل عليه ما في الفصل الثالث والثلاثين من السفر المذكور أنه تعالى قال لموسى : لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش »[2] .

ويلوم المفسرين الذين أوردوا روايات مختلفة في قصة البقرة وصاحبها لأنه لا يتعلق به كبير فائدة ولم يرو بسند صحيح الى النبي عليه السلام ، يقول : « وقد ذكر أكثر المفسرين قصة البقرة وصاحبها بروايات مختلفة لم نورد شيئاً منها لأنه لم يُرو بسند صحيح إلى النبي ﷺ ، ولا يتعلق بـه كبير فائدة . كما أن البعض من البقرة لم يجيء من طريق صحيح عن معصوم بيانه . فنحن نبهمه كما أبهمه الله تعالى ، إذ ليس في تعيينه لنا فائدة دينية ولا دُنيوية ،وإن كان معيناً في نفس الامر . وأياً كان فالمعجزة حاصلة به »[3] .

والقاسمي في نقله عن مفسري السلف كان لا يلغي شخصيته ومواقفه ،بل نجده ينقد بعض المفسرين ويضعف تأويلهم واجتهاداتهم في تفسير لفظة أوجملة قرآنية على شاكلة قوله في تأويل قوله تعالى : (ولتجدنـَّهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمَّر والله بصير بما يعملون[4]) : وما ذكره بعض المفسرين

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٥٥ .
(٢) محاسن التأويل ، ٢/١٢٨ .
(٣) محاسن التأويل ، ٢/١٥٨ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ٩٦ .

من أن البصير في اللغة بمعنى العليم لا يخفى فساده ، فإن العليم والبصير إسمان متباينـا المعنى لغة . نعم ! لو حُمل أحدهما على الآخر مجـازاً لم يبعد ، ولا ضرورة اليه هنا »[١] . ومن مثل ذلك قوله في تأويل قوله تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبـدَّلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً[٢]) : « تنبيه : خصّ من ذلك مقدار أجر المثل عند كون الوليّ فقيراً لقوله تعالى : (ومَن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) ، كذا قاله البيضاوي وتابَعه أبو السعود . وعندي أنه لا حاجة الى تخصيص هـذا النهي بالفقير في هـذه الآية لأنها في الغني ، لقوله (إلى أموالكم) فلا يشمل مساقها الفقير »[٣] .

وفي صفات الله يستصوب القاسمي ما عليه أئمة السلف أهل العـلم والإيمان وينصر موقفهم منها ، إذ يقول : « والصواب ما عليه أئمة الهدى ، وهو أن يوصَف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث ويتبع في ذلك سُبل السلف الماضين ، أهل العلم والإيمان . والمعاني المفهومة من الكتاب والسنة لا تردُّ بالشبهات فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، ولا يعرض عنها ، فيكون من باب الذين إذا ذُكـّروا بآيات ربهم لم يخرُّوا عليها صماً وعمياناً . ولا يترك تدبر القرآن ، فيكون من باب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ »[٤] .

ومن الواضح لكل من يقرأ محاسن التأويل أن القاسمي متأثر بمفسـّرَين أشد التأثير . الأول ابن كثير الدمشقي ، والثاني الشيخ محمد عبده الذي كان يلقبه الاستـــاذ الحكيم . ونتيجة لتأثره بهذين فإن عبارته تتصف بالسهولة والإيجاز .

(١) محاسن التأويل ، ٢ / ١٩٧ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٢ .
(٣) محاسن التأويل ـ ٥ / ١١٠٢ .
(٤) محاسن التأويل ، ٤ / ٧٧٧ .

وكان معجباً بابن تيمية الحرّاني شيخ ابن كثير الدمشقي الحافظ المفسر المؤرخ . وفي مواضع كثيرة من تفسير القاسمي نراه يستشهد بأقوال ابن تيمية ويذكر اسم الكتاب الذي نقل منه على شاكلة قوله في تأويل قوله تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمُّ الكتاب وأُخر متشابهات ... الآية) [١] : « تنبيه : للعلماء في المحكم والمتشابه أقوال كثيرة، ومباحث واسعة . وأبدع ما رأيته في تحرير هذا المقام مقالة سابغة الذيل لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية عليه الرحمة والرضوان . يقول في خلالها: « المحكم في القرآن تارة يقابَل بالمتشابه والجميع من آيات الله» وتارة يُقابل بما نسخه الله مما ألقاه الشيطان ، ومن الناس من يجعله مقابلاً لما نسخه الله مطلقاً ، حتى يقول هذه الآية محكمة ليست منسوخة ، ويجعل المنسوخ ليس محكماً ، وإن كان الله أنزله أولاً اتباعاً للظاهر من قوله : (فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يُحكِم الله آياته) . فهذه ثلاث معانٍ تقابل المحكم ، ينبغي التفطُّن لها » [٢] .

ولم يهمل صاحبنا الناحية الإعرابية للجُمل القرآنية . وهو في ذلك يورد أقوال النحاة والذين كتبوا في إعراب القرآن على شاكلة قوله في تأويل قوله تعالى : (شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدىً للناس وبيّنات من من الهدى والفرقان .. الآية) [٣] . « وفي رفع (شهر) وجهان : أحدهما أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هي شهر ، يعني الأيام المعدودات . فعلى هذا يكون قوله (الذي أنزل) نعتاً للشهر أو لرمضان . والثاني هو مبتدأ ، ثم في الخبر وجهان : أحدهما : (الذي أنزل) ، والثاني : إن (الذي أنزل) صفة ؛ والخبر هو الجملة التي هي قوله (فمن شهد) . فإن قيل : لو كان خبراً لم يكن فيه الفاء لأن (شهر رمضان) لا يشبه الشرط ! قيل : الفاء – على

(١) سورة آل عمران ، الآية ٧ .
(٢) محاسن التأويل ٠ ٤ / ٧٥٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٨٥ .

قول الاخفش – زائدة ، وعلى قول غيره ليست زائدة ، وإنما دخلت لأنك وصفت الشهر بـ (الذي) ، فدخلت الفاء كما تدخل في خبر نفس (الذي) ومثله (قل إن الموت الذي تفرّون منه فانه ملاقيكم) ، فإن قيل : فأين الضمير العائد على المبتدأ من الجملة ؟ قيل : وضع الظاهر موضعه تفخيماً أي: فمن شهده منكم . كذا في إعراب القرآن للعكبري » [1] .

ولم ينس القاسمي المجتمع الذي عاش فيه ، فقد نقد أحوال وأوضاع أهل عصره من أولئك الذين يفعلون البدع مثل الأذكار المحدثة والسماعات المبتدعة، سماع الكف والدف . وهو في ذلك متأثر بموقف ابن تيمية الحراني الحنبلي[2].

وخاض القاسمي في آيات الاحكام، فكان يعقد الأبحاث ليناقش ذهاب قوم إلى جواز مسألة أو منعها معتمداً في ذلك على اجتهاده الشخصي وعلى أقوال المفسرين القدامى. معلياً شأن سنة الرسول عليه السلام في كل الأحوال . وإذا اعتمد من يناقشهم على حديث غير صحيح في دعواهم فإنه يورد أقوال العلماء التي تظهر ضعف الحديث وعلته على شاكلة قوله في تأويل قوله تعالى : (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . . . الآية) [3] :

بحث جليل : قال الرازي : ذهب قوم سدى (كحتى : موضع قرب زبيد باليمن أه قاموس) إلى أنه يجوز التزوج بأي عدد أريد . واحتجوا بالقرآن والخبر. أما القرآن فقد تمسكوا بهذه الآية من ثلاثة أوجه: الأول – أن قوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) ، إطلاق في جميع الأعداد . والثاني – أن قوله مثنى وثلاث ورباع لا يصلح تخصيصاً لذلك العموم ، لأن تخصيص بعض الأعداد بالذكر لا ينفي ثبوت الحكم في الباقي . الثالث – أن

---

(١) محاسن التأويل ، ٣ / ٤٢٤ وما بعدها .
(٢) انظر محاسن التأويل ، ٢/٣١٢ .
(٣) سورة النساء ،الآية ٣ .

الواو للجمع المطلق ؛ فقوله مثنى وثلاث ورباع يفيد حل هذا المجموع . وهو يفيد تسعة . بل الحق أنه يفيد ثمانية عشر، لأن قوله : مثنى ليس عبارة عن اثنين فقط ، بل أثنين أثنين . وكذا القول في البقية. وأما الخبر فمن وجهين: الأول – أنه ثبت بالتواتر أنه عليه السلام مات عن تسع . ثم إن الله تعالى أمرنا باتباعه فقال : فاتّبعوه ، وأقل مراتب الأمر الإباحة . الثاني : أن سنة الرجل طريقته . وكان التزوج بالأكثر من الأربع طريقة الرسول عليه الصلاة والسلام . فكان ذلك سنة له . ثم إنه عليه السلام قال : فمن رغب عن سنتي فليس مني » [1] .

ثم يورد القاسمي أقوال الفخر الرازي التي تضعف هذا الفهم . ويورد قولاً للإمام الشوكاني في « وبل الغمام » يؤيد هذا الفهم . ويورد قولاً لابن عبد البر يُعلّ الحديث الذي أمر فيه الرسول عليه السلام غيلان بن سلمة الثقفي لما اسلم وتحته عشر نسوة بأن يختار منهن أربعاً ويفارق سائرهن كما أخرجه الترمذي وابن ماجه وابن حبان. فهو وإن كان له طرق فقد قال ابن عبد البر: كلها معلولة . وأعله غيره من الحفاظ بعلل أخرى . ويورد أقوال الشافعي وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وابن ماجة والدارقطني والبيهقي تصحح الحديث الذي فيه الأمر لغيلان بن سلمة الثقفي باختيار أربع ومفارقة سائرهن[2].

وكان القاسمي ينقل عن الأناجيل أحياناً [3] ، ولكنه يذكر بطلان ما زعمه اليهود في توراتهم وتلمودهم وما رواه النصارى في الانجيل ممزوجاً ببعض تفاسيرهم وتهافت ذلك بالحجج الدامغة . وفي هذه المواقف نراه يورد أقوال علماء المسلمين مثل البرهان البقاعي في تفسيره «المناسبات » وخير الدين الألوسي في « الجواب الفسيح » ، وابن حزم في كتابه « الفصل » [4] .

---

(١) محاسن التأويل . ٥/١١٠٧ وما بعدها .

(٢) انظر المرجع السابق . ٥/١١٠٨ – ١١١٦ .

(٣) انظر مثلا محاسن التأويل – ٥ / ١٦٣٩ .

(٤) انظر مثلا المرجع السابق – ٥ / ١٦٦٠ ، ١٦٨٤

ويعقد فصلاً يرد فيه على واحد من النصارى الذي ألـف رسالة سماها « المعتقد الصحيح في صلب السيد المسيح » اعتقد بصلب المسيح يقيناً ، وصار يناقش المفسرين فيما فسروا به الآية المذكورة « آية الصلب » زاعماً أن المنفي عن اليهود فيها هو نسبة الفعل لهم توبيخاً لتهكمهم وازدرائهم ، ورد فعل الصلب اليه تعالى. ولما كان مبحثه غريباً جداً أراد القاسمي أن يورد في تفسيره بعض تمويهات النصراني في رسالته ، ويعقبها بما فوّق عليه من سهام ردود تهافته .

وذكر القاسمي أنه رد عليه من الفضلاء المسلمين عدد وافر ، في تآليف بديعة منها كتاب « السيوف البتارة » اعتمد مؤلفها في إيراد حججها على التواريـخ الافرنجية المعول عليها [١] .

ومعنى هـذا أن تفسير القاسمي يحـمل في تضاعيفه صورة ذلك الصراع المرير بين الإسلام وبين حركة الاستشراق والتبشير وما نتج عنها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل العشرين حيث كانت الهجمة الاستعمارية الـكافرة على أشدها وفي بلاد الشام بالذات المرتـع الخصيب للمبشرين وأتباعهم .

وإننا نلاحظ على القاسمي ميله للنزعة العلمية في التفسير أحياناً ، وذلك في نقله أقوال أحد أطباء عصره في مضـار لحم الخنزير المبنية على التجارب الحسية . فمن مضاره : أنه يورث الدودة الوحيدة التي يتسبب من وجودها في الأمعاء أعراض كثيرة كالمغص ، والقيء، والإغماء ، وآلام الرأس واضطراب الفكر وتشنجات عصبية وغير ذلك من مضار [٢] . والخنزير حرمه الاسلام من غير ان يعلل ذلك . ولو قضى العلماء على ما يورث الدودة الوحيدة فإنـه يبقى محرما قطعا . ولا حاجة للمفسر في الجري وراء ذلك.

٢ – **التفسير الحديث** : مؤلف هـذا التفسير محمد عزة دروزة النابلسي الفلسطيني المولود سنة ١٣٠٥ هـ = ١٨٨٨ م .

---

(١) انظر المرجع السابق ، ٥ / ١٦٨٩ ، ١٧٠١

(٢) انظر المرجع السابق ، ٣ / ٣٨٢

وهـــذا التفسير يقع في اثني عشر جزءاً · والسور مرتبة حسب النزول. وللمؤلف مصنفات عدة منها : عصر النبي ﷺ ، وسيرة الرسول ﷺ من القرآن ، والدستور القرآني في شؤون الحياة ، والقرآن المجيد ، وكان هـذا بمثابة مقدمة لتفسيره .

وفي مقدمة التفسير الحديث يضع المؤلف أمام الدارسين منهجه في تفسير القرآن الكريم وفهمه ، وقد شرحه في كتابه « القرآن المجيد » . ولنستمع إليه وهو يقدم لنا منهجه ، يقول :«ولقد كنا بعد فراغنا من كتابة مسودات التفسير كتبنا في هجرتنا إلى تركيا» أيضاً كتاباً في تنزيل القرآن وأساليبه وأثره وتدوينه وجمعه وترتيبه وقراءاته ورسمه ومحكمه ومتشابهه وقصصه وغيبياته ومناهج تفسيره ، والطريقة المثلى إلى تفسيره وفهمه ، وهـو الكتاب الذي طبع بعنوان « القرآن المجيد » وكان بمثابة مقدمة للتفسير .. . ولقد اجتهدنا في السير في التفسير وفق المنهج الذي رأيناه خير سبيل إلى تفسير القرآن الكريم وفهمه ، على ما شرحناه في القرآن المجيد ، وهذا هو :

١ – تجزئة المجموعات والفصول إلى جمل تامة ، يصح الوقوف عندها من حيث المعنى والنظم والسياق . وقد تكون الجملة آية واحدة أو آيات قليلة أو سلسلة طويلة من الآيات .

٢ – شرح الكلمات والتعابير الغريبة وغير الدارجة كثيراً ، بإيجاز ودون تعمق لغوي ونحوي وبلاغي ، إذا لم تكن هناك ضرورة ماسة .

٣ – شرح مـــدلول الجملة شرحاً إجمالياً ، حسب المقتضى المتبادر بأداء بياني واضح،ودون تعمق كذلك في الشروح اللغوية والتنظيمية . مع الاستغناء عن هذا الشرح والاكتفاء بعرض الهدف والمدلول ، إذا كانت عبارة الجملة واضحة نظماً ولغة .

٤ – إشارة موجزة إلى ما روي في مناسبة نزول الآيات أو في صددها ،

وما قيل في مدلولها وأحكامها، وإيراد ما يقتضي إيراده من الروايات والاقوال، والتعليق على ما يقتضي التعليق عليها منها بإيجاز .

٥ ـ تجلية ما تحتويه الجملة من أحكام ومبادىء وأهداف وتلقينات وتوجيهات تشريعية وأخلاقية واجتماعية وروحية. والاعتماد في ذلك على النظر في الدرجة الاولى، وملاحظة مقتضيات تطور الحياة والمفاهيم البشرية. وهذه نقطة أساسية وجوهرية في تفسيرنا، وهي كذلك في تفسير القرآن والدعوة القرآنية كما هو المتبادر .

٦ ـ تجلية ما تحتويه الجملة من صور ومشاهد عن السيرة النبوية والبيئة النبوية، لأن هذا يساعد على تفهم ظروف الدعوة وسيرها وأطوارها وجلاء جو نزول القرآن الذي ينجلي به كثير من المقاصد القرآنية .

٧ ـ التنبيه على الجمل والفصول الوسائلية والتدعيمية [1]، وما يكون فيها من مقاصد أسلوبية كالتعقيب والتعليل والتطمين والتثبيت والتدعيم والترغيب والترهيب والتقريب والتمثيل والتنديد والتذكير والتنويه، مع إبقاء ذلك ضمن النطاق الذي جاء من اجله وعدم التطويل فيه. والتنبيه بإيجاز

---

(١) نقصد بالجمل والفصول الوسائلية والتدعيمية ما أريد به تدعيم الرسالة القرآنية ومبادئها المحكمة، مثل القصص ومشاهد الحياة الأخروية والجن والملائكة وبدء الخلق ومشاهد الكون ونواميسه والمواقف الجدلية والحجاجية، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والأمثال والتذكير، حيث جاء جميع ذلك لتدعيم المبادىء المحكمة في القرآن، وحيث يصح أن يقال انها من المتشابهات المذكورة في آل عمران التي نُبّه فيها على أن القرآن قسمان متميزان (آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) وهذه نقطة هامة جداً غفل عنها أكثر المفسرين المطوّلين قديماً وحديثاً، فاهتموا للمتشابهات أو للفصول الوسائلية والتدعيمية أكثر من اهتمامهم للمحكمات حتى انعكست الآية أو كادت، وصارت هذه الفصول جوهرية فأدى ذلك الى الإشكالات والمناقضات وتشويش الأذهان وتعريض القرآن للنقاش وإخراجه عن نطاق قدسيته وغايته، وهي الدعوة والموعظة والهداية والتشريع، وقلبه الى كتاب تاريخ وفن ونظريات يتحمل الأخذ والرد والنقض والمعارضة على غير طائل ولا ضرورة . وفي الفصلين الثالث والرابع من كتاب القرآن المجيد بحوث شافية في ذلك .

الى ما ورد في صدده اذا اقتضى السياق بما لا يخرج به عن ذلك النطاق .

٨ — الاهتمام لبيان ما بين آيات وفصول السور من ترابط . وعطف الجمل القرآنية على بعضها سياقاً أو موضوعاً ، كلما كان ذلك مفهوم الدلالة ، لتجلية النظم القرآني والترابط الموضوعي فيه . لأن هناك من يتوهم أن آيات السور وفصولها مجموعة الى بعضها بدون ارتباط وانسجام ، في حين أن إمعاننا فيها جعلنا على يقين تام بأن أكثرها مترابط ومنسجم .

٩ — الاستعانة بالألفاظ والتراكيب والجمل القرآنية في صدد التفسير والشرح والسياق والتأويل والدلالات والهدف والتدعيم والصور والمشاهد ، كلما كان ذلك ممكناً. وهذا ممكن في الأعم الأغلب حيث يوجد كثير من الآيات مطلقة في مكان، مقيدة في مكان آخر ، وعامة في مكان ، مخصصة في مكان آخر، كما يوجد كثير من الجمل المختلفة في الألفاظ المتفقة في المعاني والمقاصد. ثم بعد ذلك بالروايات إذا ما كانت متسقة مع المفهوم والسياق ، ثم بأقوال المفسرين إذا كانت كذلك .

١٠ — العطف على ما جاء في كتاب « القرآن المجيد » من بحوث حين تفسير الجملة ومقاصدها تفاديا من التكرار والتطويل .

١١ — عرض المعاني بأسلوب قريب المأخذ سهل التناول والاستساغه ، واجتناب الألفاظ الحوشية والخشنة والغريبة والعويصة .

١٢ — شرح الكلمات والمدلولات والموضوعات المهمة المتكررة شرحا وافيا وخاليا من الحشو عند أول مرة ترد فيها ، والعطف على الشرح الاول في المرات التالية دون تكرار شرحها في مواطن تكررها » [١] .

وقد رأى المؤلف بالإضافة إلى هذا وضع مقدمة أو تعريف موجز للسور

---

(١) التفسير الحديث ١ / ٦ - ٨

قبل البدء بتفسير يتضمن وصفها ومحتوياتها وأهم ما امتازت به ، وما يتبادر من فحواها من صحة ترتيبها في النزول وفي المصحف ، وما في السور المكية من آيات مدنية ، وفي السور المدنيـــة من آيات مكية حسب الروايات ، والتعليق على ذلك حسب المقتضى . وكذلك وضع عنـــاوين للموضوعات والتعليقات الهامة التي تناولها بالبحث والشرح والبيان ، ليسهل على من ينظر في التفسير مراجعة ما يريد منها .

ولقـــد رأى أن يجعل ترتيب التفسير وفق ترتيب نزول السورة، بحيث تكون أولى السور المفسرة سورة العلق ثم القـــلم ثم المزّمل إلى ان تنتهي السور المكية ، ثم سورة البقرة فسورة الأنفال إلى أن تنتهي السور المدنية ، لانه رأى هذا يتسق مع المنهج الذي اعتقد أنه الافضل لفهم القرآن وخدمته . اذ بذلك يمكن متابعة السيرة النبوية زمناً بعد زمن ، كما يمكن متابعة أطوار التنزيل ومراحله بشكل أوضـح وأدق ، وبهذا وذاك يندمج القاريء في جو نزول القرآن وجو ظروفه ومناسباته ومـــداه ، ومفهوماته وتتجلى له حكمة التنزيل. وقد قلّب المؤلف وجوه الرأي حول هذه الطريقة ، وتساءل عما إذا كان فيـــها مساسٌ بقدسية المصحف المتداول ، فأنتهى به الرأي إلى القرار عليها ، لان التفسير ليس مصحفاً للتلاوة من جهة ، وهو عمل فني أو علمي من جهة ثانية ، ولأن تفسير كل سورة يصح أن يكون عملاً مستقلاً بذاته ، لاصلة له بترتيب المصحف، وليس من شأنه أن يمس قدسية ترتيبه من جهة ثالثة .

ولقد أثر عـــن علماء أعلام ، قدماء ومحدثين تفسيرات لوحدات وسور قرآنية ، دون وحدات وسور ، كما أثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كتب مصحفاً وفق نزول القرآن ، ولم نرَ نقداً أو إنكاراً لهـذا وذاك ، مما جعله يرى السير على هذه الطريقة سائغا . لا سيما والقصد منه هو خدمة القرآن بطريقة تكون أكثر نفعاً . وليس هو الانحراف والشذوذ . والله اعلم بالنيات . ولكل أمرىء ما نوى . وقد رأى المؤلف أن يستوثق من صحة ما

ذهب إليه فاستفتى سماحة الشيخ أبا اليسر عابـدين مفتي سورية والشيخ عبد الفتاح أبا غدة الذي كان من المرشحين لإفتاء مدينة حلب ، فتلقى منهما جواباً مؤيـداً [1] .

هذا هو منهج المؤلف وطريقته في تفسير القرآن الكريم . وخير من يصف منهج الرجل هو نفسه كما يعرف الجميع . وإني أرى صاحب التفسير الحديث متأثراً بمنهج أبي حيان الأندلسي الذي وضعه في مقدمة تفسيره «البحر المحيط». هذه واحدة . والثانية أن صاحب هذا التفسير لكونه يفسر القرآن حسب ترتيب النزول لا بد أن يجنح إلى التفسير الموضوعي في مواضع كثيرة إن أراد ذلك أو لم يرد . لسبب بسيط وهو أن السور المكية تشتمل على موضوعات ومواقف لا تراها في السور المدنية . وذلك راجع الى بداية الدعوة ونموهـا ونهايتها الى النتيجة الرائعة في يثرب وهجرة الرسول عليه السلام إليها وقيام الدولة الإسلامية فيها . فالمنافقون مثلاً يرد ذكرهم في السور المدنية وحسب . ولا نجد ذكراً للنفاق والمنافقين في السور المكية . لأن الوضع في مكة كان محصوراً في فئتين : فئة كثيرة مشركة وثنية ، وفئة قليلة مؤمنة مستضعفة . ومن دراستي لهذا التفسير رأيت أن صاحبه كان يرجع الى معظم التفاسير المشهورة. وكثيراً ما كان يتمثلها في تفسيره وينقـل عنها ويحيل القارىء عليها في مواضع كثيرة ، وهذه التفاسير : تفسير ابن عباس ، والطبري ، والرازي ، والنيسابوري ، والبيضاوي ، والطبرسي ، والبغوي ، ومجموعـة تفسير ابن تيمية ، والنسفي ، والخـازن ، وأبي السعود ، والزمخشري ، والقاسمي ، وجزء عمّ لمحمد عبده ، وتفسير المنار . وغير ذلك . ومن الكتب التي كان يحيل عليها كثيراً : الإتقان ، والسيرة الحلبيـة ، والتاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ، وتاريخ الطبري ، وسيرة الرسول عليـه السلام للمؤلف ، والقرآن المجيد للمؤلف أيضاً .

وعندما يقف المؤلف أمام جملة (أساطير الأولين) في قوله تعالى : « إذا

(١) انظر التفسير الحديث : ٨/١ وما بعدها .

تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) [1] نراه يعقد تعليقاً على جملة (أساطير الأولين) إذ يقول : « وجملة أساطير الأولين قد تكررت كثيراً في القرآن حكاية لزعم الكفار عن القرآن» . وهذه الجملة أو بتعبير أدق كلمة أساطير تعني الآن القصص التي لا تستند إلى أصل أو يشوبها الغلو أو الخرافة . غير أن الذي يتبادر لنا أن استعمالها في القرآن لم يكن لهذا المعنى فقط ، وإنما كان أيضاً لمقصد الاشارة الى كتب الأولين وصحفهم ،بما في ذلك كتب النصارى واليهود التي كانت متداولة . وفي سورة الفرقان آية قد تؤيد ذلك حيث جاء فيها : (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلا) وحيث أراد الكفار أن يقولوا إن ما يتلوه النبي عليه السلام قد اقتبسه واستكتبه وحفظه من الكتب الأولى المتداولة وليست وحياً . والجملة في السورة تدل في حد ذاتها على أن ما نزل من القرآن قبل هذه الآيات كان شيئاً غير يسير حيث رأى الكفار فيه من التطابق في المواضيع ما سوّغ لهم هذا القول » [2] .

ونجده ينقد بعض المفسرين الذين توسعوا في أوصاف الجنة وماهياتها بما لم يكن ثابت الاتصال بالنبي عليه السلام ، شأنه في ذلك شأن كثير من المفسرين القدامى والمحدَثين ، إذ يقول : « ولقد توسع بعض المفسرين في أوصاف الجنة وماهياتها ومكانها وزمن خلقها وأشكال ثمارها وقصورها وبنائها الخ. ولما كانت من الحقائق الايمانية المغيبة فإن في التوسع فيها تكلفاً لا ضرورة له ولا طائل من ورائه ، ولا سيما إذا لم يكن ثابت الاتصال بالنبي عليه السلام الذي هو المصدر الوحيد الذي يصح صدور ما هو زائد عن القرآن فيها منه . والأولى الوقوف منها عند ما ورد في القرآن والسنة الثابتة ، مع ملاحظة الهدف الذي أستهدفته أوصافها في القرآن وحكمة التماثل بين هذه الأوصاف وبين مألوفات الناس في الدنيا على ما نبهنا عليه » [3] .

---

(١) سورة القلم ، الآية ١٥ .

(٢) التفسير الحديث ، ٥٢/١ .

(٣) التفسير الحديث : ٥٨/١ .

وكان المؤلف كثيراً ما ينحو نحو التفسير الموضوعي ، وذلك بحشد الآيات المتناسبة والمرتبطة بموضوع واحد على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (كلا بل لا تكرمون اليتيم * ولا تحاضُّون على طعام المسكين * وتأكلون التراث أكلا لمـّا)[1] : «لا تعليق على عناية القرآن باليتيم : وبمناسبة اختصاص اليتيم بالذكر في الآيات نقول إن القرآن قد أحتوى آيات كثيرة فيما يجب لليتيم من حفظ حق ورحمة وبرّ ، وفي النهي عن أكل ماله وأذيته والتحايل عليه . ولما كان اليتيم على الأكثر ضعيفاً فاقـــد المعين والكافل والمشفق ، فالعناية القرآنية بـــه متسقة مع روح البرّ والحق والعدل التي انطوت في المبادىء القرآنية والدعوة الإسلامية منذ البدء كما هو كذلك شأن البرّ بالفقراء والمحتاجين ومساعدتهم وإطعامهم . ولعل في كثرة ما جاء في حق اليتيم صورة لما كان اليتيم معرضاً له قبل البعثة النبوية من صنوف الهضم والأذى والاهمال والحرمان أيضاً . فكانت هذه الصرخات القرآنية المدوية والحث المستمر في سبيل رفع الغبن والظلم الواقع . ولقد كان اليتامى معرضين خاصة لضياع إرثهم وأكله من قبل الأوصياء والأولياء ، على ما تلهم آيات كثيرة منها آية سورة النساء هذه (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً) وآية النساء هذه (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً) وآية النساء هذه (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) .

فلعل التنديـــد بأكل التراث أكلا لمـّا في الآيات التي نحن بصددها متصل بـــذلك »[2] . ومن مثل ذلك تعليق المفسر على كلمة « الكتاب » لأنها ترد

---

(١) سورة الفجر ، الآيات . ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

(٢) التفسير الحديث ١/١٥٤ .

أمامه لأول مرة في أثناء تفسيره ، يقول : وكلمة « كتاب » ترد هنا لأول مرة ، والأصل في معناها الشيء المكتوب ، وقد أطلقت في القرآن على القرآن وعلى الكتب المنزلة كما أطلقت على أعمال الناس وعلى علم الله أيضاً ، ومن أمثلة اطلاقها على القرآن الآية التي نحن في صددها ، قال تعالى :(كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب)، ومن أمثلة اطلاقها على الكتب المنزلة آية سورة المائدة هذه (وانزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه... الآية)،ومن أمثلة إطلاقها على اعمال الناس آية سورة الانشقاق هذه (فأما من أوتي كتابه بيمينه* فسوف يحاسب حساباً يسيراً) وآية سورة الكهف هذه (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) ، ومن أمثلة إطلاقها على علم الله آية سورة الروم هذه (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) [١] .

ونجد المفسر ينقل أحياناً عن الإصحاحين الأول والثاني من سفر التكوين من أسفار التوراة أو العهد القديم فيما يتعلق بخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وينقل عن أسفار العهد القديم كذلك في أثناء حديثه عن سيرة داود عليه السلام [٢] .

ومما يدل على دقة المفسر في فهم كتاب الله تعالى ورجاحة عقله رفضه وإنكاره استخراج النظريات العلمية والفنية والكونية من الآيات القرآنية للتدليل على صدق القرآن وإعجازه على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى: (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) [٣] : « ولقد قرأنا مقالاً أراد كاتبه أن يجعل صلة بين

---

(١) التفسير الحديث ٢٠ / ٨٠ .
(٢) انظر المرجع السابق ٢ / ٤٢ - ٤٣ ، ٧٩ .
(٣) سورة القيامة ، الآية ٤ .

اختصاص البنان بالذكر وبين ما ظهر حديثاً من علم بصمات الأصابع وما صار له من خطورة في إثبات شخصيات الناس ، وتمشياً مع الفكرة التي سادت بعض الناس من استخراج النظريات العلمية والفنية والكونية من الكلمات والآيات القرآنية للتدليل على صدق القرآن وإعجازه ، ومعجزات الله المشار إليها فيه. وفي هذا - في اعتقادنا - تحميل لكلمات القرآن وآياته غير ما تتحمل وإخراج له من نطاق قدسيته وغايته وتعريض له للجدل والنقاش. ولقد نزل القرآن بلسان العرب على قوم يفهمونه . وأمر الله نبيه ﷺ بشرحه وتبيانه . والنظريات الحديثة لم تكن معلومة ولا مكشوفة . ولا يصح لمسلم - مهما حسنت نيته - أن يدعي أن النبي ﷺ لم يكن يعرف جميع ما تضمنته آيات القرآن » [1] . وبهذا نرى إنكار المفسر للنزعة العلمية في التفسير التي سار عليها بعض معاصريه من العلماء.

وينقد المفسرين الذين يتطرقون الى الخوض في موضوعات لا تحملها الآيات القرآنية ولم تثبت في حديث نبوي ، يقول : « ولقد تطرق بعض المفسرين في سياق تفسير الآيات الى عمر الدنيا وأشراط الساعة ، وأوردوا أقوالاً وأحاديث متنوعه . ولا نرى المقام والآيات تتحمل ذلك وليس منه طائل . وأمر الساعة من الامور المغيّبة التي يجب الإيمان بها والوقوف منها عند ما وقف عنده القرآن أو ثبت في الحديث النبوي دون تزيد ولا توسع » [2] .

ونجده يتعرض لبعض الآيات التي يقال إنها منسوخة ، فلا يوافق بعض المفسرين الذين قالوا إن الآية كذا منسوخة بآية كذا ، ويدعم رأيه بقول أحد المفسرين ، على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى: (خذ العفو وأمُرْ بالعُرف واعرض عن الجاهلين ... الآية) [3] . « وقد قال بعض المفسرين

(١) التفسير الحديث . ٢ / ٧ .
(٢) التفسير الحديث ، ٢/١٩٣ .
(٣) سورة الاعراف ، الآية ٢٠٠ .

إن الآية نسخت بالآيات التي تأمر النبي ﷺ بقتال الكفار والمنافقين والإغلاظ لهم . ولسنا نرى هذا في محله . فالآية احتوت خطة ربانية للنبي ﷺ والمسلمين إزاء الناس جميعهم الذين يدخل فيهم المسلمون . وهذه الجملة مؤيدة بآيات عديدة مدنية ومكية ... وقد قال الطبري في هذا إنه ليس لديه دليل على نسخها ، وإن المراد منها تأديب النبي ﷺ والمسلمين جميعاً وأمرهم بأخذ عفو أخلاق الناس ، وتعليمهم صفة عِشرة بعضهم بعضاً وعِشرة من لم يجب أخذه بالعظة والشدة »[1] .

وإذا وردت روايات عدة في سبب نزول آية ، فإنه يضعّف ما يراه ضعيفاً منها ، ويرجح الرواية التي يراها تستحق الترجيح ، على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذَرون)[2] . « ولقد تعددت الروايات التي يرويها الطبري وغيره في سبب نزول هذه الآية . منها أنه لما نزلت الآيات السابقة في التنديد بالمتخلفين قال المسلمون : هلك المتخلفون بعد الآن . فصاروا إذا دعا النبي إلى الجهاد يسارعون الى النفرة بقضهم وقضيضهم ولو لم يكن النبي ﷺ من الخارجين الى الغزوة ولو لم تكن الحاجة ماسة . ومنها أن من قبائل البدو التي اسلمت من اخذ ينتقل إلى المدينة بقضه وقضيضه ويقيم فيها أو حولها بحجة الرغبة في الجهاد والاستعداد له وبحجة مصاحبة النبي ﷺ والاستماع منه والتفقه في الدين . وكان هذا مما يضيّق على أهل المدينة . ومنها أن فريقاً من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البادية وأصابوا خيراً فأقاموا ، ثم أخذوا يدعون الناس إلى الإسلام ، فقيل عنهم إنهم تركوا صاحبهم ، فوجدوا في أنفسهم ، وعادوا جميعاً فنزلت فيهم . والرواية الثالثة لا تتسق مع مفهوم الآية ولا مع روحها وسياقها كما هو المتبادر . والرواية الثانية ليست بعيدة الاحتمال . فإن المدينة بعد فتح مكة أخذت تعجّ بوفود

---

(١) التفسير الحديث ، ١/٢٠١ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١٢٢ .

قبائل العرب . وتدخل في دين الله افواجاً . فلا يبعد ان يكون منهم من حاول الإقامة في المدينة وحولها بحجة الرغبة في الجهاد والاستعداد له ومصاحبة الرسول ﷺ والتفقه في الدين ، فسبب هذا ضيقاً على اهل المدينة.

وقد تكون الرواية الأولى أكثر قرباً للصحة مع شيء من التعديل تقتضيه الوقائع المعروفة . فلم يرو ان النبي ﷺ غزا بنفسه ما بعد تبوك . كما أنه لم يرو خبر سرايا عديدة سيَّرها إلا ما كان من خبر سرية سيرها إلى اليمن بقيادة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وإعداد جيش إلى البلقاء بقيادة أسامة بن زيد . ويتبادر لنا ان المسلمين خارج المدينة قد فزعوا وتحسبوا من عواقب الآيات السابقة ، فصاروا يقبلون على المدينة للاشتراك في الجهاد ، ومصاحبة النبي ﷺ والاستماع له والتفقه في الدين . وكان في ذلك حرج عليهم وعلى اهل المدينة معاً فاقتضت حكمة التنزيل الإيحاء بالآية على سبيل التخفيف والتطمين والتعليم [1] .

وينقد صاحب التفسير الحديث بعض المفسرين لأنهم ربطوا بين آية وآية في المعنى من غير دليل يرجح ذلك. ويوجه مفهوم الأحاديث التي اعتمد عليها هؤلاء المفسرون الوجهة الصحيحة ؛ يقول في تفسير قوله تعالى : (أنؤمن كما آمن السفهاء . . . . الآية) [2] : « ولقد رأينا بعض المفسرين القدماء والمحدثين (الطبري وابن كثير والقاسمي) يوردون في سياق تفسير هذه الجملة آية سورة النساء هذه (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً ... الآية) ، ويقولون : « ولهذا سمى الله النساء والصبيان في آية النساء سفهاء » لأنهم قاصرو عقل وتمييز . وقد عزوا هذا إلى عبدالله ابن مسعود ، وابن عباس وبعض التابعين . واوردوا في صدده حديثاً عن النبي ﷺ رواه أبو أمامة جاء فيه (إن النساء سفهاء إلا التي اطاعت

---

(١) التفسير الحديث ، ١٢ / ٢٣٩ وما بعدها

(٢) سورة البقرة ، الاية ١٣

قيّمها) ، وحديثاً آخر رواه مسلم جاء فيه (يا معشر النساء تصدقن واكثرن الأستغفار ، فإني رأيتكن اكثر اهل النار . فقالت امرأة منهم جزلة : وما لنا يا رسول الله اكثر أهل النار ؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين اغلب لذي لب منكن !) . وتعليقاً على ذلك نقول ان المناسبة ضعيفة جداً بين كلمة السفهاء في آية سورة البقرة التي نحن في صددها وبين كلمة السفهاء في آية سورة النساء . فالمنافقون يعرفون أن من المؤمنين من أقاربهم من أهل المدينة من هم نبهاء وعقلاء وأقوياء الإدراك وزعماء، فضلا عما كان في مؤمني المهاجرين من أمثالهم في النباهة والعقل وقوة الإدراك والزعامة بحيث يمكن أن يقال إنهم إنما قصدوا الغمز والاستخفاف، وليس تقرير حقيقة المؤمنين من هذه الناحية . وحتى لو كانوا أرادوا نعت بعض المؤمنين بذلك النعت على الحقيقة لا على المجاز والغمز فان المناسبة تظل ضعيفة جدا بين مقصود آيتي البقرة والنساء ، ولا نرى محلا للربط بينهما . هذا أولاً ، وثانياً : إن حصر معنى السفهاء في آية سورة النساء بالنساء والصبيان لا تساعد عليه الآية نصاً وروحاً . فالكلمة فيها مطلقة وتشمل كما هو المعقول المتسق مع روح الآية — كل سفيه قاصر العقل والتمييز من رجال ونساء وصبيان . ولذلك نستغرب جملة المفسرين « ولذلك سمى الله النساء والأطفال سفهاء في سورة النساء » . ونستغرب ما روي من تفسير كلمة السفهاء في آية سورة النساء بالصبيان والنساء حصراً — المعزو إلى عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

وليس فيما أوردوه من الأحاديث — إن صحت — ما يساعدُ على هذا الحصر . والمتمعن في الحديث الأول يجد فيه استثناء للاتي يُطِعْنَ أزواجهن وهن عادة الأكثرية الساحقة من الزوجات في كل وقت ومكان . ويجد الثاني بسبيل الحث والتحذير والعظة وليس بسبيل تقرير حصر نقص العقل والدين في النساء ولا شمول ذلك لجميع النساء

والاستغراب يشتد فينا حينما نرى هؤلاء المفسرين ومن يعزون إليهم على

جلالة قدرهم يفوتهم ما في القرآن من نصوص صريحة لا يمكن أن تتسق مع الحصر الذي قرروه في شأن النساء خاصة . ففي القرآن آيات كثيرة جداً تقرر بصراحة حاسمة أهلية المرأة لكل تكليف إيماني واجتماعي وتعبدي ومالي وجهادي وأخلاقي كالرجل بدون أي تمييز . وترتب عليها كل ما ترتبه على الرجل نتيجة لكل عمل تقوم به من ذلك ثواباً وعقاباً في الدنيا والآخرة بدون أي تمييز . وتقرر حق تصرفها في مالها دون أي تدخل أو اشراف أو إذن من الرجل مهما كانت صلته بها، فتبيع وتشتري وتتملك العقار والأرضين والأرقاء وتزرع وتحصد وتستدين وتدين وتهب وتوصي وتعتق وترث وتورث وتؤجر وتستأجر وتزوج نفسها بدءا ومراجعة .

وهذا بالإضافة الى الحقيقة القرآنية الكبرى ، وهي أن كل ما خوطب به المؤمنون والمسلمون والكافرون والمشركون والمنافقون من شئون الدين والدنيا مما ليس فيه قرينة تخصيصية للذكور : شامل للذكور والإناث معاً . ولايمكن أن يصح هذا في عقل عاقل إلا مع فرض الأهلية التامة للمرأة عقلياً وروحياً وأخلاقياً وجبلة .

وما جاء في القرآن من تقرير قوامة الرجال على النساء ومن تفضيل الرجال درجة على النساء ومن جعل شهادة المرأتين في المداينات بديلاً من شهادة رجل واحد ، ومن جعل حقها في الإرث نصف حق الرجل ، ليس من شأنه أن ينقص شيئاً من ذلك . وهو متصل بالحياة الزوجية وبطبيعة المرأة الجنسية على ما سوف نشرحه في مناسباته . ولعل تقرير أهليتها المالية والمدنية دون إناطتها بإذن الرجل على ما ذكرناه آنفاً أقوى دليل على كون قوامة الرجال على النساء وتفضيل الرجال درجة عليهن هو بالنسبة للحياة الزوجية وحسب »[1].

وصاحب التفسير الحديث عندما ينقد بعض المفسرين القدامى رحمهم الله لا نجده يتحامل عليهم البتة ، ولا يقسو عليهم في عباراته ، ولا يسفه

(١) التفسير الحديث : ٧ / ١٦٥ - ١٨٧ .

اجتهاداتهم في فهم كتاب الله تعالى مثلما فعل الشيخ محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا ، بل نراه يصف أقوالهم بأنها وجيهة ومحتملة ومتسقة مع مفهوم الآيات التي يفسرونها على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) [1] :

« ولقد ذكر المفسرون أن كلمة « شياطينهم » مصروفة الى اليهود . وهو وجيه ومتسق مع مفهوم الآيات ، حيث يفهم منها أن المنافقين شيء وشياطينهم شيء آخر ، حتى ولو كانوا زعماءهم ، بل إن العبارة تفيد أن الموصوفين هم من الزعماء مما فيه توكيد للتوجيه . وفي القرآن المدني آيات كثيرة تؤيد أن المنافقين وزعماءهم خاصة كانوا حلفاء مع اليهود ضد الدعوة الإسلامية ، وأن اليهود كانوا يوسوسون للمنافقين ويوجهونهم في طرق الكيد والمكر والتشكيك » [2]

ومن مثل ذلك قول صاحب التفسير الحديث في تفسير قوله تعالى :(يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) [3] :

« قد يئسوا من الآخرة » : من المفسرين من أول الجملة بمعنى قد يئسوا من رحمة الله ورضائه في الآخرة . ومنهم من أولها بمعنى قد يئسوا من أي احتمال للبعث الاخروي. وكلا التأويلين وجيه تتحمله العبارة . (كما يئس الكفار من اصحاب القبور) :

بعض المفسرين أول الجملة بمعنى ان الاحياء من الكفار قد يئسوا من أي احتمال لبعث الذين ماتوا وصاروا أصحاب القبور . وبعضهم أولها بمعنى أن الأموات من الكفار يئسوا من أي بعث اخروي أو من رحمة الله ورضائه في الآخرة والتأويلات الثلاثة وجيهة ومحتملة » [4] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤ .

(٢) التفسير الحديث : ٧ / ١٦١ .

(٣) سورة الممتحنة ، الآية ١٣ .

(٤) التفسير الحديث . ١٢ / ٢٩ .

ولم يفت المؤلف أن يرد على مزاعم المستشرقين وأباطيلهم التي يبدو منها الحقد الشديد على الإسلام والنبي محمد عليه السلام؛ ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعـــالى : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) [1] : « وتعبير (وما كنت تتلو من قبـــله من كتاب ولا تخطه بيمينك)صريح قاطع بأن النبي عليه السلام لم يكن يكتب ويقرأ. وبالرغم من هذه الصراحة فإن « كايتاني » وغـيره من المستشرقين ظلوا يصرون على دعوى أن النبي عليـــه السلام كان يقرأ ويكتب . ومنهم من قال إنه كان يخفي ذلك ويراوغ فيه فلا يثبته ولا ينفيه لأنه يعرف ان منهم من كان يعرفه فيه . ولو تذكروا بان هذا مما قد يكون وجّه الى النبي ﷺ مباشرة وان القرآن قد رد عليه وزيّفه علنا وبصراحة قطعية، وان اصحابه وأخصاءه كانوا يتلون هذا الرد الصريح القطعي لوفروا على انفسهم التعب ولما عرضوها لتهمة الغرض والعناد والوقاحة والكذب . فلا يمكن ان يعلن النبي ﷺ بلسان القرآن وباسلوب قاطع صريح انه لا يقرأ ولا يكتب لو كان يقرأ ويكتب ، ولاسيما لو كان اصحابه يعرفون ذلك فيه . لانه يثير حالا شك هؤلاء في ربانية القرآن وصدق النبي عليه السلام . وهذا وذاك من الخطورة بمكان عظيم . والمستشرقون في عنـــادهم ودعواهم يقيسون الحاضر على الماضي،فيؤدي القياس بهم الى استحالة الا يكون النبي قارئاً كاتباً مطلعا على الكتب السماوية وهم مخطئون في قياسهم ، لان الفرق عظيم بين الحاضر وذلك الماضي من مختلف النواحي » [2] .

وموقفنا من هؤلاء المستشرقين اليهود والنصارى هو الاهمال والترك ، ودعوة المسلمين الى فهم الإسلام من جديـد كما انزل على محمد عليه السلام . وفي ذلك خير وقاية من مزاعم المستشرقين وتلامذتهم من المسلمين الفاسقين.

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٨

(٢) التفسير الحديث : ٧ / ٢٥

وكما يقولون ، « درهم وقاية خير من قنطار علاج » وصدق الله اذ يقول (قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم اكبر) ، وقوله (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى، حتى تتبع ملتهم). ويستطيع كل ذي عقل ان يحس بوقاحة هؤلاء المستشرقين وسماجتهم وبعدهم عن الحق . وكل ذلك نعهده في اليهود . والرد عليهم لا طائل تحته . والكفر عناد . وهؤلاء في ذروته .

واني اختلف مع صاحب التفسير الحديث في استعماله بعض العبارات التي تصف الله تعالى من مثل قوله في تفسير قوله تعالى : (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون. ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون)[1]: في الآية الأولى صورة من صور تناقض الكفار المشركين ، فهم يخصون الدعاء لله وحده حينما يركبون الفلك لينجيهم إلى البر استتباعاً لعقيدتهم بأنه خالق الكون ومدبره الأعظم الضار النافع وحده ، فإذا ما نجاهم عادوا إلى شركهم »[2] . فعبارة المؤلف « ومدبره الأعظم » غير دقيقة . وبخاصة أن الماسونية تقول عن الله « مهندس الكون الأعظم » أمام السذج والعميان ممن ينضمون إليها . وإذا بحثت عن هذا المهندس تجده ملك الحكومة العالمية التي تسعى الماسونية لتحقيقها. فهو يهودي من نسل داود عليه السلام كما يزعمون .

والله سبحانه ليس خالق الكون وحده ،بل هو خالق الكون والإنسان والحياة . أي ما اصطلح عليه بالوجود . والله سبحانه هو الواجب الوجود .

و « الاعظم » صيغة أفعل التفضيل . وهي توحي بمدبر للكون أقل عظماً منه ويدخل في ذلك قول الأستاذ أمين الخولي عن القرآن : « كتاب العربية الأعظم » وهذه العبارة توحي بوجود كتاب أقل عظماً من القرآن الكريم .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآيتان ٦٥ ، ٦٦

(٢) التفسير الحديث : ٧ - ٣٣ .

ولا يجوز وصف الله بغير الصفات التي وصف بها ذاته ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

٣ — **التفسير القرآني للقرآن** : مؤلف هذا التفسير : عبد الكريم الخطيب المصري .

يقع هذا التفسير في ستة مجلدات ، وكل مجلد يشتمل على ستة أجزاء .

وهذا التفسير حديث العهد . فقد جاء الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ والمؤلف لا يزال يكتب هذا التفسير . وتسمية هذا التفسير : « التفسير القرآني للقرآن » توحي لأول وهلة أنه من جملة التفسير بالمأثور أو بالمنقول . هو ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته . وهذه أول خطوة في تفسير القرآن الكريم . والقرآن الكريم يشتمل على الايجاز والاطناب ، وعلى الاجمال والتبيين ، وعلى الاطلاق والتقييد ، وعلى العموم والخصوص ، وما أوجز في مكان قد يبسط في مكان آخر ، وما أجمل في موضع قد يبين في موضع آخر ، وما جاء مطلقاً في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى ، وما كان عاماً في آية قد يلحقه التخصيص فى آية أخرى . لهذا يجب على من يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً ، فيجمع ما تكرر منه في موضع واحد ، ويقابل الآيات بعضها ببعض ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً ، وبما جاء مبيناً على فهم ما جاء مجملاً ، وليحمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص ، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن ، وفهم مراد الله بما جاء عن الله . وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها ، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى ، لأن صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه ، وأعرف به من غيره[1] . وقد قدم عبد الكريم الخطيب لتفسيره بمقدمة أبان فيها عن طريقته ومنحاه في فهم القرآن الكريم وتفسيره ، يقول : « ... ومن أجل هذا كانت صحبتنا هذه لكتاب الله تعالى ، على هذا الوجه ، الذي لا ننظر فيه الى غير

(١) انظر : التفسير والمفسرون . ١ / ٣٧ .

كتاب الله ، والى تدبر آياته ، بعيداً عن طنين المقولات الكثيرة التي جاءت الى القرآن من كل صوب ، وكادت تخفت صوته ، وتغيم على الأضواء السماوية المنبعثة منه ! إننا في صحبتنا هذه للقرآن ، لا نقيم نظرنا على غير كلماته وآياته ، ولا نخط على هذه الصفحات غير ما يسمح لنا به النظر في كلماته وآياته . إننا لا نفسر القرآن بالمعنى المعروف للتفسير ، في هذه الصحبة التي نصحب فيها كتاب الله ... وإنما نحن نرتل آيات الله ترتيلاً ... آية آية ، أو آيات آيات ... ثم نقف لحظات نلتقط فيها أنفاسنا المبهورة ، لما تطالعنا به الآية أو الآيات ، من عجب ودهش وروعة ، ثم نمسك القلم ، لنمسك به على الورق بعض ما وقع في مشاعرنا من صور العجب والدهش والروعة .. وانها لصور باهتة بالنسبة للواقع الذي حملته تلك المشاعر ... فما أبعد الفرق بين الشعور المشتمل علينا ونحن بين يدي كلمات الله ، وبين الكلمة التي تنقل هذا الشعور ! ولكنها — على أي حال — معلم من معالم الطريق الى كتاب الله ، يمكن أن يجد السالك فيه نوراً ، ويزداد به المهتدي هدى »[١] .

وصاحب التفسير القرآني عندما يتصدى لتفسير سورة من سور القرآن نجده يتكلم عن نزولها ، وعدد آياتها ، وعدد كلماتها ، وعدد حروفها ، وأسمائها . وعلى سبيل المثال يقول في سورة الحمد : « نزولها : مكية ، وقيل إنها نزلت بمكة ، ثم نزلت مرة أخرى بالمدينة . ولا وجه لهذا القول . عدد آياتها : سبع . عدد كلماتها : خمس وعشرون كلمة . عدد حروفها : مائة وثلاث وعشرون حرفاً . من أسمائها : سميت بأسماء كثيرة جاوزت المائة ، وذلك حسب ما يقع في الخاطر منها . ومن أسمائها الفاتحة ، وفاتحة الكتاب ، والحمد ، وسورة الحمد ، والشافية ، والشفاء ، وأم القرآن ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، (لأنها تثنى — أي تكرر — في كل صلاة) »[٢] .

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ، التقديم ١١/١ .
(٢) المرجع السابق ، ١٧/١ .

وهو في تفسيره لأية آية قرآنيـة نراه يحشد إزاءها الآيات المتناسبة التي تزيدها بياناً وتفصيلاً على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (الحمـد لله رب العالمين) : « بهذا الحمد لله تنطق المخلوقات كلها ، فهو سبحانه الذي أوجدها من العدم وأعطاها خلقها بين المخلوقات ، وقام عليها مدبراً وحافظاً ، (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ٥٠ : طه ، فحق عليها أن تحمده ، وتشكر له ، وقد لزمها هذا الحق الذي لا انفكاك لها منه ، إن لم تؤدّه اختياراً أدّته اضطراراً ، وإن لم يفصح عنه ظاهرها نمّ عليه باطنهـا : (تسبّح له السموات السبع والأرض ومَنْ فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ٤٤ : الإسراء »[١]

واتساقاً مع ما سبق فقدكان المؤلف يستشهد بآيات قرآنية ليدعم اجتهاده وتأويله، على شاكلة قوله :« ولو لم يقم إبليس من وراء آدم ، يغريه بالشجرة، ويدفعه إليها ، لسار إليها وحده ، ولبلغها ، ولأكل منها ! ولكن لا يكون هذا إلا بعد زمن متراخ عن هذا الوقت الذي اقترب فيه بالفعل من الشجرة ، وأكل منهـا !! .

هكذا الانسان ، وهكذا الناس يتحدون كل سلطان يقيـد نوازعهم ، ويتسلط على إرادتهم ، ولو كان ذلك لخيرهم وإسعادهم . ولهذا فإني أحب أن أذكر هنا قوله تعالى : (خلق الانسان من عَجَل) (٣٧ : الأنبياء) وقوله جل شأنه : (وخلق الانسان ضعيفاً) (٢٨ : النساء). كما أحب أن أفهم هاتين الآيتين الكريمتين على أنهما تكملان الصورة التي خلق عليها آدم ، وأن إغراء إبليس له قد عجل بظهور الانسان في آدم ، وفي إنضاج ثمرته قبـل أوانها ! ! »[٢] . ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (وأني فضلتكم على العالمين)[٣] : « وأما قوله تعالى : (وأني فضلتكم على العالمين) فالمراد

---

(١) المرجع السابق ، ١/١٨ .
(٢) التفسير القرآني للقرآن ، ١ / ٧٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٤٧ .

بالعالمين هم أهل زمانهم المعروفون لهم من الأمم المجاورة ، إذ كانوا هم أهل كتاب ، وفيهم الرسل والأنبياء ، على حين كان جيرانهم وثنيين ، على كفر وشرك وضلال . ومما يشهد لهذا أن موسى عليه السلام وهو رأس بني إسرائيل في الكرامة والفضل عند الله - كان بمنزلة تلميذ ، يتلقى العلم والمعرفة على يد عبدٍ من عباد الله ، كما في قوله تعالى : (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً) (٦٥ - ٦٦ : الكهف) . ويشهد لهذا شهادة قاطعة ، قوله تعالى عن أمة الاسلام :(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (١١٠ : آل عمران) .. فهذا حكم قاطع بالخيرية المطلقة لهذه الأمة - في مقام الهداية ، وصدق الايمان بالله - على سائر الأديان ، وجميع الملل ! »[١] .

نعم ، ومن الضروري أن نسجل في هذا المقام أن عبد الكريم الخطيب في قوله في تقديم تفسيره : « إننا لا نفسر القرآن بالمعنى المعروف للتفسير ، وإننا في صحبتنا هذه للقرآن ، لا نقيم نظرنا على غير كلماته وآياته » يحذو حذو الشيخ محمد عبده في دروسه وكتابته في التفسير ، إذ كان يعتمد على عقله الحر كما يقال ، ولا يستلزم في التفسير كتاباً ، وإنما يقرأ في المصحف ، ويلقي ما يفيض الله على قلبه[٢] .

وقد كان من منهجي في هذا البحث ان ابدأ بدراسة التفاسير ذات الاتجاه السلفي . وذلك لان الاتجاه السلفي في تفسير القرآن الكريم هو التيار الأصيل المتدفق عبر القرون في تاريخ الإسلام وشرح كتابه . أما اتجاه محمد عبده في التفسير فقد اعتبرناه اتجاهاً طارئاً جديداً لأنه يقوم على فكرة التوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية الطارئة والدخيلة على مجتمعنا . ولهذا

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ٠ ١ / ٨٢ .

(٢) انظر كتاب محمد عبده، لعثمان آمين . ص ١٠١ .

السبب كانت دراستنا لتفسير عبد الكريم الخطيب المعاصر قبل دراسة اتجاه محمد عبده في التفسير مع تقدمه .

وكان المؤلف يذكر سبب نزول الآية او الآيات أحياناً [١] .

وكان يذكر صلة أو مناسبة الآيات لما قبلها أحياناً ، ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك اني أخاف الله رب العالمين . إني أريد ان تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين)[٢]: «مناسبة هذه الآيات لما قبلها،هي ان الصورة التي عرضتها الآيات السابقة لبني إسرائيل كانت صورة معتمة للانسان ، فاضحة لمساوئه ومخازيه ، حين تفسد فطرته ، وتضيع معالم إنسانيته ، فيدفع بكلتا يديه الخير المسوق اليه ، وينفخ بفمه في شعلة النور المنصوبة لهدايته ... مؤثراً ان يظل هكذا في الظلام والضلال . ولان الإنسانية ليست كلها على هذه الصورة الكئيبة المعتمة التي تتمثل في بني اسرائيل ، إذ ان في الإنسانية خيراً كثيراً ، وفي الناس أخيارٌ كما في الناس أشرار وفُجار ، فكان من تمام العرض للانسانية ان يعرض جانبها الطيب كما عرض جانبها الخبيث » [٣]

وذهب المؤلف الى ما ذهب اليه ابو حيان الأندلسي صاحب البحر المحيط من ان بلاغة القرآن اعظم واسمى من ان تخضع لمقاييس النحو وتخريجات النحاة ، يقول في تفسير قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون) [٤] :

---

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن ، ٦ / ١١٠١

(٢) سورة المائدة ، الآيات ٢٧ - ٢٩

(٣) التفسير القرآني للقرآن، ٦ - ١٠٧٢

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٧

« اكثر المفسرين على ان الكاف في « كمثل » زائدة باعتبار ان كلمة «مثل» اداة تشبيه، والكاف أداة للتشبيه ، ولا تجتمع الأداتان على مشبه به واحد، وعلى هذا تكون الصورة هكذا : « مثلهم مثـــل الذي استوقد ناراً » او « مثلهم كالذي استوقد ناراً » وبلاغة القرآن اعظم واسمى من ان تخضع لمقاييس النحو وتخريج النحاة ! فليس في كلمات الله ما يحتاج الى علل النحاة ومماحكاتهم ، ليستقيم على علمهم ، ولينضبط مع قواعدهم – وحسب القرآن ان يقول قولاً ، او ينهج أسلوباً ، فيكون قوله الحق ، وأسلوبه الفصل ، ولا عليه ان تضطرب قواعد النحو ، وتتبلبل عقول النحاة » [١] .

ونجد عندالمؤلف جنوحاً وميلا حذراً إلى الاتجاه العلمي في التفسير. والمرجح أن هذا الميل الحذر أثر من آثار مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير . يقول : « وقد يفهم من قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) بعد قوله سبحانه (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) – قد يفهم من هذا أن خلق السموات جاء تالياً لخلق الأرض . ولكن ، مع قليل من النظر ، يتضح أن ذلك كان بعد خلق السموات والأرض ... فالأرض كانت مخلوقة ، ثم خلق الله بعد ذلك ، ما فيها من مخلوقات ... وكذلك السماء ، كانت قائمة ، فجعلها الله سبحانه سبع سموات . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة ، في قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ) (١١ : فصّلت) . وهذا لا يصادم ما يقول به العلم الحديث ، من أن الأرض وليدة انفجار في الشمس، تسبب عنه انفصال أجرام منها ، وكانت الأرض واحدة من تلك الأجرام ! فعوالم السماء مخلوقة قبل الأرض ، والأرض مولود من مواليدها» [٢] .

ومع هذا الميل الحذر إلى النزعة العلمية في فهم القرآن وشرحه نراه يرجع إلى الصواب والدقة في فهم كتاب الله كما يجب على المسلمين أن يفهموه فيقرر

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، ١ / ٣٦

(٢) التفسير القرآني للقرآن . ١ / ٤٨ .

أن القــــرآن ليس كتاب علم ، وأن الرسالة الاسلامية لم تجىء لتقرير حقائق علمية – فإن في عرضه لمشاهد الكون وفي كشفه عن مظاهر الوجود ، لمحات مضيئة ، وإشارات مشرقة ، يجد فيها العلم الحديث مستنداً لمقولاتــــه ، ومجازاً لمقرراتــــه [١] .

ونلاحظ على المؤلف ميله إلى اللون الأدبي والنفسي في تفسيره ، يقول في تفسير قوله تعالى : (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العــــذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منـــا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) [٢] : « هنالك في هذا الموقف المتأزم الخانق ، وبين يدي هذا الجحيم الآخذ بالنواصي والأقدام ، يكثر التلفت إلى الوراء ، وترتفع صيحات الحسرة والندم من الآثمين الضالين ! وفي مشهد من تلك المشاهـــــد تقع الملاحـاة بين الاتباع والمتبوعين ، ويتبرأ المتبوعون من الاتباع ، وتتقطع بينهم اسباب التقارب والتواصل ، ويترامون بالعداوة والبغضاء ! والاتباع والمتبوعون هنا أهل الضلال ... اما الاتباع فهم العامة ، واما المتبوعون فهم العلماء واصحاب القيادة الدينية فيهم ، إذ هم الذين زينوا للعامة هـــذا الضلال ، وهم الذين حرفوا لهم العلم عـــن مواضعه ، فاهلكوهم وهلكوا معهم جميعاً . فالمشهـــد هنا بين الاتباع والمتبوعين قائم على شفير جهنم التي يساق إليها الأتباع والمتبوعون معاً . ولما كان هؤلاء المتبوعون هم الذين زينوا لأتباعهم هذا الضلال الذي أوردهم موارد الهلاك ، فقد وقع في أنفسهم حين رأوا العذاب الذي ينتظرهم ، أن أتباعهم سوف يتعلقون بهم ويسوقونهم للقصاص منهم ، بتهمة التحريض والغواية لهم ، إذ ذاك ، بادر هؤلاء المتبوعون وتبرءوا من أتباعهم ، ونفضوا أيديهم من كل صلة بهم ! وحين يجــــد الأتباع

---

(١) انظر المرجع السابق ١٠ / ٦٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآيتان ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

أنهم وقادتهم حصب جهنم ، كما يقول الله تعالى (فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون) : (٣٣ : الصافات) يتضاعف حزنهم ، وتشتد حسرتهم ، ويقطع اليأس نياط قلوبهم ؛ حين لم ينالوا من هؤلاء الذين غرروا بهم ، وأوردوهم هذا المورد الوبيل ! وإذ ذاك تنطلق ألسنتهم بكلمات تتميز غيظاً ويأساً : (لو أن لنا كرة ! فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا) فهم إنما يتمنون — في يأس مغلق — أن يُردُّوا هم ورؤساؤهم إلى هذه الدنيا ، ليراجعوا حسابهم معهم على ضوء ما تكشف لهم في هذا الموقف ، وليصموا آذانهم عن كل دعوة باطلة يدعونهم إليها ... أما تبرؤهم منهم في الآخرة فإنه لا يجدي نفعاً ، فقد دُعوا إلى الضلال وأجابوا ، وها هم أولاء يجنون ثمرة ما زرعوا من شر ، وما ثمروا من إثم ! (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار)[1] .

ويرى المؤلف رأياً في الانسان من حيث كونه مخيراً أو مسيراً ، مستشهداً بآيات القرآن في دعم رأيه ومحيلاً القارىء على كتاب له فيه دراسة مستفيضة لهذه القضية ، يقول : « والجواب على هذا قد كثر حوله الخلاف ، وتعددت فيه المذاهب ... هل الانسان حر مختار فيما يأتي من خير وشر فيكون حسابه جزاء وفاقاً لما عمل بحريته واختياره ، أم هو مجبر مضطر مسوق الى قدره المقدور ، فيكون عمله غير محسوب عليه ، ويكون حسابه على ما عمل ، ظلم له ، وعدوان عليه ؟ أم أن الانسان مزيج من الجبر والاختيار ، له إرادة ، وله قدرة على فعل ما يريد ، ولكن إرادته وقدرته مرتبطتان بإرادة فوق إرادته وبقدرة فوق قدرته ؟ فهو يريد ، ولكن وفق ما تريد تلك الإرادة العليا ، ويفعل ، ولكن داخل فعل تلك القدرة المهيمنة على قدرته ... فالانسان في هذا التصور أشبه بترس في آلة ميكانيكية ... يتحرك بحركة تلك الآلة ويسكن بسكونها ؛ فهو متحرك وغير متحرك معاً ! والرأي عندنا

(١) التفسير القرآني للقرآن ، ٢/١٨٥–١٨٧

أن الانسان صنعة الله ، ولله سبحانه أن يضعه حيث يشاء ، ليأخذ مكانه واتجاهه في هذا الوجود . ومع هذا فإن الانسان - بما أودع الله فيه من عقل - بأن يستعمل هذا العقل وما فيه من قوى ، في وزن الأمور وتقديرها ... فيتقدم أو يتأخر، ويقدم أو يحجم ، ويؤمن أو يكفر، ويهتدي أو يضل... وهو في كل هذا سائر في الطريق المرسوم له ، والذي هو مستور في الغيب عنه ، الى ان يستوي عليه ، وذلك قدره المقدور ، يرى وكانه من صنعة يده ، وهو في الحقيقة صنعة يد فوق يده .... يد القدرة القادرة الباهرة : (بل لله الأمر جميعاً) (٣١ : الرعد) (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) (٣١ : المدثر) ، (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) (٢ : (التغابن) انظر في هذا كتابنا « القضاء والقدر » ففيه دراسة مستفيضة لهذه القضية » [١] .

والذي يستقصي آيات القرآن الكريم المتعلقة بالهداية والضلال للانسان ، وافعال الانسان يلاحظ ان مجموعة من الآيات تؤكد ان الإنسان مجبر مسير لاشأن له في الهداية والضلال (والله خلقكم وما تعملون) ومجموعة أخرى من الآيات تؤكد أن الإنسان مختار لأفعاله يثاب على فعل الخير ويعاقب على فعل الشر يقع في دائرتين ؛ دائرة تسيطر عليه وهو مجبر، ولذلك لا يحاسب على صفاته او افعاله في هذه الدائرة .

ودائرة أخرى يسيطر عليها ويتحكم بأفعاله ، ولذلك يعاقب على الشر ويثاب على الخير . وهذا متسق مع العدل الإلهي .

ويرد المؤلف على أولئك الذين يقولون ان قصص القرآن خيال ووهم وضرب من الأساطير التي كان يعرفها العرب ولم تكن حقيقة واقعة على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى: (او كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال

---

(١) التفسير القرآني ١ / ٤٦ وما بعدها

لبثت يوماً او بعض يوم قال بل لبثت مئة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال اعلم ان الله على كل شيء قدير[1] :

« وهنا اسئلة : فأولاً : هل هذه حادثة وقعت ، ام هي مثل مضروب للعبرة والعظة ؟ والذي نقول به ان كل قصص القرآن وامثاله ، وما ورد في هذا القصص والامثال من اشخاص واحداث ، هو من الواقع الذي لا شك فيه ، واذا كان لنا نحن البشر ان نلجأ الى الخيال والوهم لننسج منها قصصاً ، وذلك حين يعجز الواقع عن ان يسعفنا بما نتصوره ونتمناه ، فان قدرة الخالق جل وعلا لايعجزها شيء ... تريد فيقع ما تريد ، كما ارادته ، دون قصور او مهل إنها إرادة الله لايخالطها وهم ، ولا يطوف بها خيال ، ولا تعللها الاماني ... تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً »[2] .

والمؤلف في الموقف السابق إنما يرد على طه حسين ومحمداحمد خلف الله في كتابه « الفن القصصي في القرآن » وقد حذا الثاني حذو الاول في اعتبار القصص القرآني لوناً من الأساطير والخيال والوهم الذي لم يكن واقعاً حقيقياً. ولا شك أن طه حسين كان علمانياً في رأيه كما كان الثاني وقد قاس الاثنان الله سبحانه على البشر .

وعندما يتصدى عبد الكريم الخطيب لتفسير قوله تعالى : (فما استمتعتم به منهنّ فآتوهنّ أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً)[3] نراه يعقد عنواناً لزواج المتعة والرأي فيه . ويحكي تعلق الشيعة في حِل زواج المتعة بهذه الآية ويورد أقوال الطبرسي وهو من كبار علماء الشيعة الإمامية في تفسيره المعروف« بمجمع البيان». ويورد أقوال أهل السنة الذين قالوا بنسخ نكاح المتعة ، واستندوا في هذا الى

---

(١)سورة البقرة ، الآيه ٢٥٩

(٢) التفسير القرآني للقرآن : ٣ / ٣٢٨

(٣) سورة النساء ، الآية ٢٤

أحاديث تروى عن النبي عليه السلام عند من يقول بنسخ القرآن بالسنّة المتواترة ، ومنهم من يقول إنها منسوخة بالقرآن .

ويورد الأحاديث التي تأخذ بها الشيعة وتضيف إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه — أنه هو الذي أبطل نكاح المتعة ، وأن ذلك كان عن رأي رآه ، واجتهادٍ اجتهده . فهم والأمر كذلك غير محجوجين بما وضعه عمر ، ما دام في ايديهم كتاب الله الذي أباح المتعة حسب تأويلهم لقوله تعالى : (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن) وما صح من إجماع المسلمين على أنها كانت جائزة في عهد النبي ﷺ ، وفي خلافة أبي بكر ، وبعض خلافة عمر ، ثم ما يظاهر ذلك من أحاديث ثبت عندهم صحتها ، ولم تثبت عندهم الأحاديث التي قيل إنها حرّمتها .

ثم ينتهي إلى حقيقتين — الأولى : أن القرآن الكريم لم يجر فيه ذكر بإباحة المتعة ، وأن الآية التي يستشهدون بها لهذا إنما هي لتقرير حكم من احكام الزواج الشرعي الدائم ، وهذا الحكم هو المهر الواجب لصحة عقد الزواج .

والثانية : أن إباحة المتعة كانت مما أباحه الرسول عليه السلام — بإذن ربه — في حال خاصة ، حيث كان المجاهدون من المسلمين فى حال غربة ، ولم يكونوا قد اصطحبوا نساءهم معهم ، فخافوا الفتنة على أنفسهم .

وعلى هذا فإن المتعة ابيحت بالسنة في حال خاصة ، في ظرف اضطراري ، وأنها قد حرمت بالسنة بعد زوال هذا الظرف ، وأن عمر بن الخطاب إنما كان موقفه منها هو توكيد هذا التحريم . فلو أن نكاح المتعة كان مباحاً على إطلاقه لفسد نظام المجتمع ، ولانحلّت روابط الأسرة ، ولما رغب الرجال عنه إلى الزواج واحتمال تبعاته !

والزنا الصراح خير من هذا الزنا المتخذ اسم المتعة مجازاً له [1] !

---

(١) انظر التفسير القرآني : ٥/٧٤١ — ٧٥٧ .

وكان المؤلف كثيراً ما يذهب إلى ما ذهب إليه المفسرون أو بعضهم في في تأويل لفظة أو جملة قرآنية ويسوغ ذلك ويستحسنه ، على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) [١] : «هذا ويذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الصبر في قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) هو : « الصوم » إذ كان الصوم في صميمه تجربة حية مباشرة لغرس بـــذرة الصبر وإرواء نبتته ، ولهذا سمي رمضان شهر الصبر . ونحن نأخذ بهذا المعنى للصبر ، ونرى في التعبير القرآني عن الصوم بالصبر إعجازاً من إعجاز القرآن ، حيث كان الصبر والصوم متــلازمين ، لا وجود لأحدهما بغير الآخر ، فلا صوم إلا مع الصبر ، ولا صبر إلا ومعــه صوم وحرمان . صوم عن مكروه ، وحرمان من محبوب .

ولأن الصوم لا يكون إلا ومن ورائه الصبر ، كان التعبير عنه بالصبر أولى من التعبير عن الصبر بالصوم، إذ قد يكون الصبر ولا صوم، ولكن لا يكون الصوم بغير الصبر .

والجهاد في سبيل الله ، والانتظام في صفوف المجاهدين ، والإقـــدام على ملاقاة الأعداء ، والتعرض لمواجهة الموت . ذلك كله لايحتـــاج إلى رصيد عظيم من الصبر والإيمان . ولهذا جاءت دعوة الله الى الجهاد في سبيل الله ، بعد دعوته إلى الاستعانة بالصبر والصلاة ، على المحن والشدائد » [٢] .

ومع ذهابه إلى ما كان يذهب إليه بعض المفسرين في تأويل لفظة أو جملة قرآنية فإنه كان يتعسف أحياناً ويبعد في التأويل ولا يوافق فهمه ما أجمع عليه المفسرون في تفسير جملة قرآنية ، على شاكلة قوله تعالى :(ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً) [٣] : « وقوله تعالى : (والذين عقدت أيمانكم)

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٣ .

(٢) التفسير القرآني للقرآن : ٢/١٧٤ .

(٣) سورة النساء ، الآية ٣٣ .

إشارة إلى من تربطهم بالمرء رابطة غير رابطـــة القرابة والدم ، ممن يتبناهم الإنسان ، أو يدخلهم في حياته مدخل الأهل والأقارب ، إذ شد يمينه بهم ، واحتسبهم بعضاً منه في خيره وشره — هؤلاء قد يرون أن لهم حقاً فيما ترك المورِّث ، الذي كانوا منه ، وكان منهم . وقد جاء صدر الآية الكريمة قاصراً ما ترك المورث على قرابته ، وهم مواليه .

هذا ما أجمع عليه المفسرون في تفسير قوله تعالى :(والذين عقدت ايمانكم). ولكن الفهم الذي أستريح إليه هو ان المراد بالذين عقدت أيمانكم هم الأزواج والزوجات ، إذ كان لهم نصيب مفروض في الميراث ، مثل ما فرض لموالي الإنسان وعصبته ، ولكن كلمـــة « الموالي » لم تشملهن ، فكان قوله تعالى (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) بياناً لحق الزوجين في ميراث كل منهما لصاحبه ... وليس هناك عقد يمين أوثق من العقد الذي عقـده الله بين الزوجين » [1] .

والذي نقوله إن ذهاب صاحب التفسير القرآني للقرآن إلى أن المراد بقوله تعالى (والذين عقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم) هو بيـــان حق الزوجين في ميراث كل منهما لصاحبه — تأويل بعيد ومخالفة صريحة لآيات سابقـة وفهم لا أستريح إليه ، ولا يستريح إليه كل مسلم يكنْ كل تقدير وإجلال لأولئك المفسرين المقانع الذين توارثوا فهم كثير من آيات القرآن عن الرسول عليه السلام وعن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم . وقد اختلفوا بالمعاقدة هنا ، فقال ابن عباس وابن جبير والحسن وقتادة وغيرهم هي الحلف ، فإن العرب كانت تتوارث بالحلف ، فقرر ذلك بهذه الآية ، ثم نسخ بقوله (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) . وقال ابن عباس أيضاً هي المؤاخاة ؛ كانوا يتوارثون بها حتى نسخ . وعن ابن عباس أيضاً : كان المهاجرون يرثون الأنصار دون ذوي رحمهم حتى نسخ بما تقدم . وقال ابن المسيب : هي التبنّي ،

(١) التفسير القرآني للقرآن : ٥/٧٧٩ وما بعدها .

والنصيب الذي أمرنا بإتيانه هو الوصية لا الميراث[1] . فأنت ترى أن ترجمان القرآن ابن عباس والتابعين رضي الله عنهم لم يقولوا بأن المعاقدة بيان لحق الزوجين في ميراث كل منهما لصاحبه . والله سبحانه لما ذكر ميراث الفروع من الاصول وميراث الأصول من الفروع أخذ في ذكر ميراث المتصلين بالسبب لا بالنسب ، وهو الزوجية ، يقول تعالى : (ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولدٌ فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولدٌ فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ..الآية)[2]

أبعد هذا التفصيل في ميراث المتصلين بالسبب ، وهو الزوجية هنا يستريح المفسر إلى فهم قوله تعالى (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) بأنه بيان لحق الزوجين في ميراث كل منهما لصاحبه !

وماذا يقول المفسر في هذه الآية الكريمة : (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فأرزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً)[3] .أليس في هـــذه الآية خطاب الوارثين أن يتصدقوا من الميراث على قرابتهم وعلى اليتــامى وعلى المساكين ؟ حتى قيل إن ذلك على الوجوب ، وقيل على الندب وهـــو الصحيح .

ومعنى ذلك أن الله سبحانه بعد ان أمر الوارثين أن يتصدقوا من الميراث على قرابتهم وعلى اليتامى وعلى المساكين شفع هذا الأمر بأمر آخر ، وهو أن يتصدق الوارثون من الميراث على مَن تربطهم بالمرء رابطة غير رابطة القرابــة والدم ممن يتبناهم الإنسان أو يدخلهم في حيـــاته مدخل الأهل والأقارب بسبب الحِلف والمؤاخاة .

---

(١) انظر البحر المحيط : ٣/٢٣٧ وما بعدها .

(٢) سورة النساء ، الآية : ١٢ .

(٣) سورة النساء ، الآية ٨ .

وهذا الذي أجمع عليه المفسرون– ولم يسترح اليه صاحب التفسير القرآني للقرآن – منسجم مع الرحمة والمودة والتعاطف بين المسلمين . وما ذهب اليه عبد الكريم الخطيب لا ينسجم مع الوضع السابق الذي رسمه الإسلام في القرآن والسنة ، لأنه وضْع ضيق أناني لا يكون المسلمون فيه كالجسد الواحد.

وأحسب أن الاستاذ الخطيب قد استوحى فهمه الذي ذكرناه من مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير . فقاسم أمين من تلاميذ محمد عبده . وقد لاحظت أن الأستاذ الخطيب يميل في تفسيره مع المرأة ويتعاطف معها تعاطفاً على حساب الفهم الصحيح لكلام الله تعالى . وقد عُرف عن محمد عبده موقفه القاسي من المفسرين القدامى رحمهم الله . ولكن الاستاذ الخطيب يخفي تحامله تارة على المفسرين القدامى ويظهره تارة أخرى . ولا جدال في أنه متأثر بدعوة قاسم أمين إلى ما يسمى بتحرير المرأة . وفي موضع لاحق سوف يظهر للقارىء تحامله الشديد الواضح على المفسرين القدامى وعلى تأثره بالشيخ محمد عبده وتلميذه قاسم أمين .

ويصرح الاستاذ الخطيب بأنه يعتمد على القرآن وحده في فهم قصة خلق آدم عليه السلام لا على ما جاءت به التفاسير من إسرائيليات وأساطير على شاكلة قوله : « ونريد هنا أن نقف قليلاً مع قصة الخلق – خلق آدم – كما تحدث عنها القرآن ، لا على ما جاءت به التفاسير من إسرائيليات وأساطير عن خلق آدم ، فألقت بذلك ظلالاً على آيات الله ، وأخرجت منها مفهوماً لخلق آدم ، يبعد كثيراً عما صرح به منطوق الآيات ومفهومها ويصادم أيضاً بعض حقائق العلم الحديث فيما كشف عنه علم الحياة وأصل الأنواع ، بل ويصادر العقل الاسلامي الذي يفهم القرآن على ضوء هذه التفاسير ، فلا يجد له سبيلاً إلى النظر والبحث عن أصل الإنسان ، ومكانه في سلسلة التطور[1] .

وفي موضع آخر من تفسيره يؤكد أن اليهود والنصارى قد بدّلوا في

(١) التفسير القرآني للقرآن : ٥٩/١

الكتب السماوية ، يقول في تفسير قوله تعالى : « لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم .. الآية »[1] . «ولا نسأل ماذا كانت لعنة داود لهم ، ولا عن أي شيء كانت تلك اللعنة التي رماهم الله بها على لسان داود ، وكذلك الشأن في اللعنة التي جاءتهم على لسان المسيح ... فقد غيَّر القوم وبدّلوا في زبور داود ، وفي إنجيل عيسى . والذي علينا أن نؤمن به ، هو أن الله لعن اليهود هذه اللعنات على لسان هذين النبيين الكريمين »[2] .

ومع ذلك فإننا نجد الأستاذ الخطيب ينقل عن إنجيل متى: الإصحاح السادس ويرى تشابهاً بين دعاء كان يصلي به المسيح عليه السلام وبين فاتحة الكتاب التي هي قرآن المسلمين في صلاتهم ، يقول : « واستمع إلى هذا الدعاء أو الصلاة : أبانا الذي في السموات . .. ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك في الأرض .... خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين الينا .... ولا تدخلنا في تجربة .... لكن نجنا من الشرير ... لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد .... آمين » إنه هو الصلاة التي كان يصلي بها السيد المسيح ، والتي علم أتباعه أن يصلّوا بها ... وأنت ترى ما بين هذه الصلاة التي كان يصلي بها السيد المسيح ، ويعلمها أتباعه ، وبين فاتحة الكتاب التي هي قرآن المسلمين في صلاتهم — أنت ترى ما بين هذه وتلك من تشابه كبير في الروح التي تستولي على الإنسان وهو يتلوها ، خاشعاً متعبداً ... اليس ذلك دليلا على أنها من معدن واحد ، وأن متنزلها السماء ، وحياً من رب العالمين ؟ ثم اليس ذلك دليلا على ما بين الديانات السماوية من صلات وثيقة قائمة على الحق والعدل ؟ بلى ؟ وإنه لو سلمت الكتب السماوية السابقة من التحريف لالتقت

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٧٨

(٢) التفسير القرآني للقرآن: ٦ / ١١٥٤

مع القرآن في كل ما جـــاء به ، ولكن التحريف والتعديل باعد بين تلك الكتب وبين القرآن في أصول الدعوة وفروعها على السماء » [١] .

فأنت ترى أن الأستاذ الخطيب يقر في هذا النص وفي النص السابق بأن أهل الكتـــاب قد بدلوا وحرفوا وعدلوا في الكتب السماوية السابقة على القرآن . ومع ذلك فإنه يرى تشابهاً كبيراً بين دعاء كان يصلي به المسيح عليه السلام ويعلمه أتباعه وبين فاتحة الكتاب ! إنه يقارن بين نص من كتاب وقع عليه التبديل والتحريف والتعديل وبين نص أو سورة من القرآن الكريم المتواتر عن المسلمين الذي تكفل الله بحفظه ؟ وقد خالف في عمله هذا القرآن الكريم والسنة النبوية .

ففي القرآن أكثر من آية تشير إلى تحريف الكتب السابقة وتبديلها .

يقول تعالى : (أفتطمعون أن يؤمنوا لـكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) [٢] .

ويقول تعالى : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنـــاً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) [٣] .

ويقول تعالى : (وإنّ منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) [٤] . ويقول تعالى : (يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نورٌ وكتاب مبين) [٥] .

(١) المرجع السابق . ١ / ٢١ وما بعدها .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٧٥ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٧٩
(٤) سورة آل عمران ، الآية ٧٨ .
(٥) سورة المائدة ، الآية ١٥ .

ويقول تعالى : (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ... الآية) [1]

والنبي محمد عليه السلام يقول :(لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم)

فنحن إذن لا نصدق هذا الدعاء الذي نسبه إلى عيسى عليه السلام ولا نكذب به لاننا إن صدقناه فقد يكون محرفاً ومبدلاً ولو في لفظة واحدة ، وإن كذبناه فقد يكون صحيحاً . هذه واحدة . والثانية : إذا كان الاستاذ الخطيب يرى تشابهاً كبيراً بين هذا الدعاء وبين فاتحة الكتاب فإني أرى أن لفظة « أبانا » التي هي في مفتتح هذا الدعاء تفسد هذا التشابه وتكاد تصادره. وفي القرآن الكريم لم نسمع آية يخاطب أي نبي ربه بلفظة « أبانا » فما بال عيسى عليه السلام يخاطب الله سبحانه بلفظة «أبانا» ! ولكنه التحريف والتبديل.

والثالثة : أن الصلات الوثيقة بين الأديان السماوية حاصلة وقائمة من غير أن نستشهد بمثل هذا الدعاء . والقرآن الكريم يؤكد لنا أن محمداً عليه السلام جاء مصدقاً لما معهم .

ويرى الاستاذ الخطيب رأي كثير من العلماء الذين قالوا بأن ما جاء في الربا والخمر ليس من قبيل النسخ، لأن النسخ هو إزالة حكم شرعي بحكم شرعي آخر.. والخمر والربا لم يكن قد جاء فيهما حكم شرعي بحلهما ، ثم جاء حكم شرعي آخر بتحريمها ، فيكون الحكم الثاني ناسخاً للحكم الأول ، وانما هما مما كان للعرب في الجاهلية ، ثم جاء الإسلام فوجدهما على ما هما عليه فحرمهما ... وقد ظلت الخمر غير محرمة إلى صلح الحديبية ، حيث جاء القرآن إذ ذاك بتحريمها وكذلك الربا لم يحرّم تحريماً قاطعاً إلا قبيل وفاة النبي عليه السلام [2] .

والأستاذ الخطيب لا يسيغ القول أبداً بأن شيئاً منسوخاً من هذا القرآن الذي

(١) سورة المائدة ، الآية ١٣ .

(٢) انظر التفسير القرآني للقرآن : ١ / ١٥٧ .

نقرؤه ونتعبد به ! إذ لا حكمة — مع هذا — لآيات كريمة نتلوها ونتعبد بتلاوتها ، ثم لا نعمل بها ، ولا نأخذها مأخذ الجد في تحصيل الخير المشتمل عليه كيانها !

إن النسخ معناه — عند الاستاذ الخطيب — عزل الآيات المنسوخة عن الحياة، وإحالتها إلى المعاش«أي ما يسمى بالتقاعد عند الموظفين». وما الاحتفاظ بها في القرآن إلا كالاحتفاظ بجثث الموتى محنّطة في توابيت !! وذلك مقام تنزه عنه كلام الله رب العالمين .

ولا يريد أن يستكثر في تفسيره من عرْض الآيات التي قيل انها منسوخة، وهي كما يقول القائلون بالنسخ كثيرة ، تبلغ نحو ثلث القرآن عند بعضهم . وأنه سيلتقي أثناء نظره في كتاب الله مع بعض تلك الآيات التي قيل إنها منسوخة ، وسيكشف عن وجه الحق فيها [1] .

وفي موضع آخر من تفسيره يؤكد انه ليس في القرآن نسخ ، وأن كل آية متلوة فيه ، عاملة غير معطّلة [2] .

ويعقد في تفسيره مبحثاً بعنوان « النفقة للمتوفى عنها زوجها » ويرفض أقوال المفسرين بأنها منسوخة بآية المواريث ، وما ُفرض للزوجة فيها من فريضة الربع أو الثمن . ويقوده ذلك إلى شن حملة ظالمة على قدامى المفسرين في إنقاص حق المرأة وعلى الفقهاء الذين تابعوهم وعلى قدسية كلام السلف في جمود للتشريع الإسلامي ، ويدافع عن الإسلام وكأنه متهم في قفص ، يقول في تفسير قوله تعالى : (والذين ُيتوفّون منكم ويَذَرُون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن من أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم) [3] : « وللمفسرين رأي في هذه

---

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن ، ١/١٥٧ — ١٦١

(٢) انظر المرجع السابق . ٥/٧٩٣

(٣) سورة البقرة ، الآية . ٢٤٠

الآية ، وأنها منسوخة بآية المواريث ، وما فرض للزوجة فيها من فريضة الربع أو الثمن . ونقول — والله أعلم — إنه لا نسخ في هذه الآية الكريمة ، ولا تعطيل لحكمها وحكمتها . واذا كان من تقدير الله ألا يكون للمرأة مثل هذا الحق ، أفكان من التدبير الحكيم أن يُلوّح لها بهذا البرّ وتلك المواساة في آية كريمة ، ثم تُحرَمه وتُذاد عنه بآية أخرى من آيات الكتاب الكريم .
وإذا أقمنا الآية الكريمة على تلك الموازين التي يزن بها علماء التفسير ضوابط الناسخ والمنسوخ لم نجدها تستقيم عليها أو تستجيب لها ... ولكن الذي حدث كان على غير هذا الاتجاه ، إذ أن تفسير القرآن بدأ في عصر كانت فيه المرأة قد أخذت وضعاً جائراً في المجتمع ، لكثرة ما أزدحم في عصور الخلفاء والأمراء والوزراء وأصحاب الجاه والثراء — من الإماء اللائي غلبن على الحرائر ، واستأثرن بالنصيب الأوفر عند الرجال ، وبهذا هرن الوجه البارز للمرأة في هذا العصر ، في حين أصبحت المرأة الحرّة في بيت الرجل شيئاً كاليا ، لا يراد منه غير أن يكون للرجل امرأة ، يكون له منها الولد او الاولاد !
وحين أخذ المفسرون ينظرون في كتاب الله ، وفي الآيات التي تمس المرأة ، وتقرر الاحكام التي تربط بينها وبين الرجل ، وتحدّد ما لها من حقوق وما عليها من واجبات — حينئذ كانت نظرة المفسرين الى المرأة واقعة على هذه الصورة الشائهة لها ، المعزولة عن الوضع الصحيح الذي أقامتها الشريعة عليه ...
ومن هنا كان تأويل آيات الكتاب الكريم واقعاً تحت هذا المفهوم الجديد للمرأة ، متأثراً به ، مقدوراً بقدَره ! وقد جاء الفقهاء على آثار المفسرين فنظروا من وراء نظرتهم ، وبنَوْا أحكامهم على أساس تلك النظرة ، فبخسوا المرأة حقها ، وأزالوها عن تلك المنزلة التي رفعها الاسلام اليها ، وأعادوها إلى أنزل من الوضع الذي كانت عليه في الجاهلية . والشيء الذي يلفت النظر في هذا هو أن كلمة المفسرين الأولى في تأويل كتاب الله ، كانت طريقاً سلكه كل من جاء بعدهم ، فنظر بنظرهم ، وأخذ مأخذهم ، إذ وجد من الحرج أن يعيد نظره فيما نظر فيه السلف الذين كانوا أقرب إلى عصر النبوة والى تنسّم

أنسامها الطيبة . وأحسب أنه لو تخففنا من هذا الشعور إلى الحد الذي يسمح لنا بحرية الحركة ، واستقلال النظرة لوجـدنا بين أيدينا التشريع الإسلامي الذي يقيمنا على أوضاع سليمة مستقرة في حيـاتنا المادية والروحية ، وفي نظمنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ولكانت صحبتنا للدين صحبة نأنس بها ، ونطمئن اليها ، ونثق فيهـا ، ولذهب ما بيننـا وبين الدين من جفوة ، ولتحولت نظرتنا تلك الفاترة الضائمة في اتصالنا به ، إلى نظرة حية واثقة من أنها إنما تنظر الى الحياة كلها ، وإلى أجمل ما في هذه الحياة ، حين تنظر في هذا الدين ، وتقيم حياتها عليه !

وأكثر من هـذا – فإننا لو ذهبنا ناخذ شريعتنا من مصدرها الأول – الكتاب والسنة – لوجدنا أن كثيراً من القضايا الهـامة في حياتنا التي جاءت إلينا باسم الدين ، وصارت وجهـاً من وجوهه ، ومادة من مواد دستوره ، لم تكن من الدين ، وإنما وقعت من تأويلات ، تحكم فيها يومئذ واقع الحيـاة وتحيّف فيها المتأولون ! إننا لو فعلنا هـذا لأخرسنا تلك الألسنة التي ترمي الاسلام بالجمود والتخلف ، وتحكم عليه بأنه دين الحياة القبلية ، الذي لا يصلح لحيـاة المجتمع المتحضر ، ولا يتفق والزي الذي يتزيا به إنسان القرن العشرين ! » (١)

ونحن ندرك أن أصحـاب النسخ تساهلوا في الاكثار من القول بالناسخ والمنسوخ ، واختلفوا في كثير من الآيات من حيث الاحكام او النسخ . ولكننا لا نسيغ القول أبداً بإنكار النسخ في هذا القرآن الذي نقرؤه ونتعبّد به . والحكم بالنسخ لا ينبغي أن يصدر بناء على اجتهاد ، وإنما يجب أن يُتلقى عن صاحب الرسالة عليـه الصلاة والسلام . فكل دعوى نسخ لم تؤثر عن عصر الرسالة بسند صحيح هي دعوى لا دليل عليهـا ، ولا يجوز أن تُقبل بحال . وكل قول بالنسخ لم يُسند إلى رسول الله عليه السلام أو إلى صحابته حكايـة

(١) التفسير القرآني للقرآن ، ٢/٢٨٨ – ٢٩٥

عنه بطريق صحيح متصل – هو قول لم يعتمد على دليل فلا يصح أن يقبل كذلك . واليهود نزّهوا الله عز وجل عن البداء ، وهم ربطوا بين النسخ والبداء، ليتخذوا من استحالة البداء على الله ذريعة للحكم باستحالة النسخ عليه. ونصارى هذا العصر ينكرون جواز النسخ عقلا ، كما ينكرون وقوعه ، ليصلوا من هذا الإنكار إلى غاية حرصوا على تحقيقها ، وهي بقاء دينهم إلى جانب الإسلام ، بحجة أن شريعة لا تُنسخ بشريعة ، وأن حكماً في شريعة لا ينسخ بحكم في شريعة بعدها [١] .

وقد أجمعت الأمة الإسلامية منذ عصر الصحابة على أن النسخ جائز وواقع ، وعلى أن من بين أحكام الفقه الاسلامي في مذاهبه جميعاً – أحكاماً حلّت محل أحكام كانت ثم نسخت . وهذا الإجماع يلحظه بسهولة كل من يدرس الفقه المقارن ، وكل من يتصدى لدراسة الأحكام الشرعية : دراسة تربطها بمصادرها الأولى ، وتبين تدرجها ، وحلول أحكام منها محل أحكام كانت قد شرعت ثم رفعت ! كذلك يلحظ هذا الإجماع في يسر كل من يُعنى بدراسة علوم القرآن ، وبالنظر في تلك الكتب التي أُلّفت فيها ، على كثرتها واختلاف أزمانها ، فإنها لم يخلُ كتاب منها فيما رأينا ، على كثرتها واختلاف أزمانها من دراسة للنسخ ، مجملة أو مفصّلة حسب منهج مصنّفه [٢] .

واستساغ الرافضة –أخزاهم الله– أن يربطوا بين النسخ والبداء، ليتخذوا من جواز النسخ ووقوعه ذريعة إلى وصف الله سبحانه وتعالى بالبداء . فالله عز وجل يجوز البداء عليه ، والنسخ مظهر من مظاهر البداء عندهم [٣] .

ولكن عالماً من علماء المفسرين في القرن الرابع الهجري اشتهر عنه أنه ينكر النسخ ، وكان له تفسير للقرآن الكريم (جامع التأويل) ، حرص

---

(١) انظر النسخ في القرآن الكريم : ١/٦ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٤ ، ٤٥

(٢) أنظر المرجع السابق : ١/٢٦٦

(٣) انظر المرجع السابق : ١/٢٢

فيه على تفنيد كل دعاوى النسخ لآيات الذكر الحكيم ، وذلك بتأويلها وإبطال شبهة التعارض بينها وبين الآيات المدّعى أنها ناسخة لها . هذا العالم المفسر هو أبو مسلم الاصفهاني المعتزلي محمد بن بحر المتوفى سنة ٣٢٢ هـ. وقد أنكر أن يكون في القرآن آيات منسوخة، واستدل لهذا الإنكار بآية رأى أنها تدعمه. وهذه الآية هي قوله تعالى في وصف القرآن الكريم : (لا يأتيه الباطل من من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) . فإنها تقرّر أن أحكام القرآن لا تبطل أبداً ، والنسخ إبطال ، فهو لا يرد على هذه الأحكام . وقد ردّ عليه العلماء وفنّدوا أقواله [١] .

وقد استدل العلماء من الصحابة والتابعين على جواز النسخ ووقوعه بآيات من القرآن الكريم ، وبالأقوال التي أسندت إلى رسول الله عليه السلام بطريق صحيح متصل وهذه الآيات ، قوله تعالى : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) (البقرة ، ١٠٦) ، وقوله تعالى : (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) (النحل ، ١٠١) ، وقوله تعالى : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) (الرعد ، ٣٩) .

فأنت ترى أن الاستاذ الخطيب بإنكاره النسخ في القرآن الكريم قد تابع أبا مسلم الأصفهاني « صاحب جامع التأويل » وهو بذلك كابر العيان واتبع غير سبيل المؤمنين، وخالف إجماع الأمة الإسلامية منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم في أن النسخ جائز وواقع في القرآن الكريم . وليت الاستاذ الخطيب استدل بآية قرآنية كما فعل أبو مسلم الاصفهاني مثلاً ، ولكنه اعتمد على العقل ، فقرر أن النسخ معناه عزل الآيات المنسوخة عن الحياة ، وإحالتها إلى المعاش ... وما الاحتفاظ بها في القرآن إلا كالاحتفاظ بجثث الموتى محنطة في توابيت وذلك مقام تتنزه عنه كلام الله رب العالمين !

---

(١) انظر المرجع السابق ، ١/٥٠ وما بعدها .

وفي هـــذا جرأة على دين الله وتشبيه قبيـح لآيات الله ؛ تشبيه الآية المنسوخة برجل أحيل إلى المعاش وبجثة ميت محنطة في تابوت ! وهذه الجرأة على دين الله من آثار الشيخ محمد عبده الذي يسمى الأستاذ الإمام ! لأنه هو الذي فتح الباب على مصراعيه لأمثال الأستاذ الخطيب في سلوك هذه الجرأة على دين الله وما يسمونه التقبيح والتحسين العقليين . إن عقل الأستاذالخطيب لم يحسّن له وجود الناسـخ والمنسوخ في القرآن الكريم فأنكر النسخ وشبه آيات الله المنسوخة بهذا التشبيه . وكأن العقل هو مناط الحكم في كل ما ورد في القرآن الكريم ! وإذا كان العقل كذلك فما الحاجة إذن إلى الرسل عليهم السلام وإلى الشرائع السماوية ! إن الأستاذ الخطيب فعل كما فعلت المعتزلة عندما قاسوا الله سبحانه على الإنسان في أُصولهم الخمسة فوقعوا فيما وقعوا فيه من تخبط ومن خطأ في المنهـج .

وتحاملُ الأستاذ الخطيب على المفسرين والفقهاء واضح ، إذ قرر أن المفسرين من السلف الصالح حين فسروا القرآن تأثروا بواقع الحياة الإسلامية التي كانت تعـج بالإماء ، فـكان تأويل آيات الكتـاب الكريم واقعاً تحت تأثير هذا المفهوم الجديد للمرأة ، وقد جاء الفقهاء على آثار المفسرين فنظروا من وراء نظرتهم ، وبنوا أحكامهم على أساس تلك النظرة.

إننا لاننكر وجود الامـاء في المجتمع الإسلامي بفعل الفتوح . ولكننا ننكر غلبة الإماء على الحرائر ، وأنهن صرن الوجه البـارز للمرأة في هـذا العصر ، في حين أصبحت المرأة في بيت الرجل شيئاً كمالياً ، لايراد منه غير أن يكون للرجل امرأة ، يكون له منها الولد أو الأولاد. وهذا كلام لا يقوله إلا المستشرقون الحاقدون الذين يرسمون صورة المجتمع الإسلامي في العصر العباسي وغيره من خلال كتاب الف ليلة وليلة وأشعار أبي نواس وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني .

في حين لو رجعنا الى كتب المؤرخين الاسلاميين الثقـــات مثل الطبري

والمسعودي وابن الاثير وغيرهم لما وجدنا مثل هذه الصورة التي قدمها الأستاذ الخطيب . ونعتقد أن أحكام الأستاذ الخطيب تعتمد على القياس الشمولي . وهذا منهج خاطىء .

ولا جدال في أن التفسير بالمأثور يعتمد على أقوال الرسول عليه السلام ، وأقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ، في القرآن وشرح كثير من ألفاظه وجمله. والتفسير بالمعقول كان لا يبتعد كثيراً عن المنقول والمأثور وإن كان يعتمد أول ما يعتمد على الاجتهاد العقلي .

أما الفقهاء فإنهم بدون جدال قد استفادوا من أقوال المفسرين واجتهاداتهم في فهم كتاب الله تعالى . ولكنهم لم يلغوا عقولهم واستعدادهم العقلي لاستنباط الاحكام من الكتاب والسنة . ولا يمكن الفصل بين جهود المفسرين وجهود الفقهاء . فهناك أكثر من مفسر له اجتهادات مثل الطبري ، وهناك أكثر من فقيه له تفسير فقهي كالجصاص والقرطبي صاحب الجامع لأحكام القرآن .

وأما قوله : « والشيء الذي يلفت النظر في هذا هو أن كلمة المفسرين الأولى في تأويل كتاب الله كانت طريقاً سلكه كل من جاء بعدهم ، فنظر بنظرهم ، وأخذ مأخذهم ، إذ وجد من الحرج أن يعيد نظره فيما نظر فيه السلف ، الذين كانوا أقرب إلى عصر النبوّة و إلى تنسم أنسامها الطيبة » ، فاتجاه طبيعي لا يلفت النظر ، بل خلافه هو الذي يلفت النظر . وكلامه يحمل الرد عليه ، لأن الصحابة رضي الله عنهم هم تلاميذ الرسول عليه السلام ، فالصحابة وتلاميذهم التابعون ومن جاء بعدهم كانوا أكثر فهماً لمراد الله تعالى ممن جاء بعدهم . فنحن مثلاً نفهم شعر المتنبي عن أولئك الذين عاصروه وشرحوا أشعاره ، ونحن نفهم شعر أحمد شوقي أكثر من الذين يأتون بعدنا إلى الحياة .

وأما قوله : « وأحسب أنه لو تخفّفنا من هذا الشعور إلى الحد الذي يسمح لنا بحرّية الحركة واستقلال النظرة لوجدنا بين أيدينا التشريع الإسلامي الذي يُقيمنا على أوضاع سليمة مستقرة في حياتنا المادية والروحية ، وفي نظمنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ولكانت صحبتنا للدين صحبة نأنس بها ، ونطمئن إليها ، ونثق فيها ، ولذهب ما بيننا وبين الدين من جفوة ، ولتحولت نظرتنا تلك الفاترة الضائعة في اتصالنا به إلى نظرة حية ، واثقة من أنها إنما تنظر الى الحياة كلها ، وإلى أجمل ما في هذه الحياة ، حين تنظر في هذا الدين ، وتقيم حياتنا عليه » ، ففيه تلفيق وبُعد عن الحق والواقع . فالتشريع الإسلامي سار مع المسلمين منذ أيام الرسول عليه السلام إلى أن ألغى أتاتورك الخلافة في استانبول سنة ١٩٢٤ م. ولم يقل واحد من العقلاء إن المسلمين استعاروا تشريعاً آخر ليسدّ النقص في التشريع الإسلامي. وكل من يدرس الفقه الإسلامي يلاحظ أن الفقهاء قد استنبطوا من مصادر التشريع الإسلامي معالجات لمشكلات قد تحدث بعد قرون . وفي ذلك دلالة قاطعة على عراقة الفقه الاسلامي وأصالته وثرائه بالأحكام والمعالجات . وليس هناك جفوة بين المسلمين وبين دينهم . فالمسلمون لم يبتعدوا عن دينهم ، بل الكافر المستعمر هو الذي شن غزواً ثقافياً ثم عسكرياً في القرن التاسع عشر والعشرين على المسلمين ، وفرض نظامه الرأسمالي بالقوة على المسلمين ، وعيّن من أبناء المسلمين حكاماً يحرسون نظامه ومصالحه .

ففي الوقت الذي ظلت أحكام الاسلام وأنظمته ثابتة في أصولها خلال ثلاثة عشر قرناً نجد نظاماً كالنظام الشيوعي يجري عليه التعديل والتحوير إلى درجة أنه فقد كثيراً من قواعده وأركانه . ونظرة الناس ليست فاترة إلى الدين ، بل إن جهلهم به وانحطاطهم الفكري ، بفعل الاستعمار الفكري والثقافي ، هو الذي جعلهم حائرين لا يعرفون طريق النهوض الصحيح .

وأكبر دليل على ذلك أنه لو قام الآن الحكم الإسلامي لوجدت المسلمين يهرعون الى تأييده والالتفاف حوله ، لأنه عاش مع آبائهم وأجدادهم منذ قرون ، يوم أن كانت دولة الاسلام هي الدولة الأولى في العالم .

وأما قوله : « وأكثر من هذا فإننا لو ذهبنا نأخذ شريعتنا من مصدرها الأول – الكتاب والسنة – لوجدنا أن كثيراً من القضايا الهامة في حياتنا التي جاءت الينا باسم الدين وصارت وجهاً من وجوهه ، ومادة من مواد دستوره ، لم تكن من الدين ، وإنما وقعت من تأويلات ، تحكّم فيها يومئذ واقع الحياة وتحيّف فيها المتأولون ! إننا لو فعلنا هذا لأخرسنا تلك الألسنة التي ترمي الإسلام بالجمود والتخلف ، وتحكم عليه بأنه دين الحياة القبلية ، الذي لايصلح لحياة المجتمع المتحضر ، ولا يتفق والزي الذي يتزيا به إنسان القرن العشرين ! » فكلمة حق يُراد بها باطل . أما الحق فقوله « لو ذهبنا نأخذ شريعتنا من مصدرها الأول – الكتاب والسنة » . وهذا قول يوافقه عليه جميع المسلمين . ولكن ما القضايا الهامة في حياتنا التي جاءت الينا باسم الدين ، ولم تكن من الدين ؟ وأغلب الظن أن هذه القضايا الكثيرة الهامة كائنة في خاطر الأستاذ المنهزم روحياً وفكرياً ! لأنه يريد شهادة من المستشرقين والمبشرين يشهدون فيها على روعة الإسلام وتطوره وصلاحه لكل عصر . عند ذلك يقتنع الأستاذ بأن الإسلام متحضر وعصري . ونسي أن العداء بين الكفر والإيمان قائمٌ منذ نبوّة محمد عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وأريد أن أطمئن الأستاذ بأن هذه الألسنة لن تخرس ما دامت ألسنة كفّار ، وستحارب الإسلام بكل الوسائل ما دام هناك إسلام . وأذكّره بقول الله تعالى : (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملّتهم) .

والأستاذ الخطيب لم يكن موفقاً في كثير من عباراته التي تغضب الله

ورسوله وجماعة المؤمنين ، وأحسبه من الداعين للتآخي بين الاسلام وأصحاب الأديان الأخرى ، فهو يجامل كثيراً على حساب الاسلام ومبادئه، فهو يقول: « وأحسب أن كثيراً من إخواننا المسيحيين قد يسوءهم أن يقع هذا »[١] . فالمسلم الأمّي يعرف أن الأخوّة في الدين وليست في غـــيره . إلا إذا أراد الاستاذ الخطيب أن يعتبر أو يعدّ الأخوة في العروبة . وأنا على يقين من أن الأستاذ الخطيب لا يرضي الله سبحانه بعبـــارته ولا يرضي النصارى ، لأنهم لا يعتبرونه أخاً لهم إلا إذا دخل في دينهم ، بدليل الآيـــة التي أوردناها . وأودُّ أن أذكـّره بهذه الآية : (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلـَوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور)[٢] .

وقول الأستاذ الخطيب : « أي بسبب حرمة الحيــاة الانسانية وقداستها وكرامتها فرض الله على بني إسرائيل هذا الفرض »[٣] . وإنني لا أعترض على قوله : « حرمة الحياة الانسانية وكرامتها » . ولكنني لا أوافقه على قوله: « وقداستها » ، أي قداسة الحياة الانسانية . وهذه العبارة قد ينخدع بهـــا كثير من المسلمين المثقفين فضلا عن السذّج والجهلة . فالحياة هي خلق من خلق الله مثل خلق الكون والانسان . والحياة يدركها الانسان بمفرده ، فإذا مات لم يعد يدركها . والقداسة تعني التنزيه عن النقص . ولا يتنزه عن النقص إلا الله سبحانه وتعالى.

وهناك غير هذه المآخذ التي أضرب عنها صفحاً مخافة الخروج عن حدود البحث وإطاره العام .

---

(١) التفسير القرآني للقرآن : ٦/١٠٠٠

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٩ .

(٣) التفسير القرآني للقرآن : ٦/١٠٨١ وما بعدها .

وقد يقول معترض : وكيف أدرجتَ تفسير الأستاذ الخطيب في جملة التفاسير ذات الاتجاه السلَفي وهو على هذه الشاكلة ؟ فنقول :

إن تفسير القرآن بالقرآن جرى عليه المفسرون من السلف رحمهم الله . وعنوان تفسيره : « التفسير القرآني للقرآن » . وقد لاحظنا أنه نحا منحى المفسرين من السلف إلى التفسير الموضوعي في مواضع عديدة من تفسيره . ولا جدال في أنه كان متأثراً بمدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير . ويمثل ذلك أصدق تمثيل محاولاته للتوفيق بين الأديان وجرأته وتحامله على المفسرين القدامى والفقهاء رحمهم الله ، ومخالفته إجماع المفسرين في كثير من تفسيره .

* * *

الفصل الثاني

اتجاه عقلي توفيقي يوفق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية

الشيخ محمد عبده

(١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

رائد هذا الاتجاه هو الشيخ محمد عبـده المصري الأستاذ الإمام ، كما لقّبه تلميذه محمد رشيد رضا الطرابلسي الشامي .

ومن رجال هذه المدرسة : محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنـار وصاحب تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار .

والشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر آنذاك .

وعبد العزيز جاويش ، كانت له محاولات في التفسير على طريقـة الشيخ محمد عبــده .

وغير هؤلاء جاؤوا بعدهم وتأثروا باتجاه هذه المدرسة من قريب أو بعيد.

وأرى ألا أتعرض لحياة الشيخ محمد عبده كلهـا ، لأنه معروف لدى كثير من الناس . اما كل ما يتصل بحيـاته من تصوير اتجاهه في التفسير فإنا سنقف أمامه حتماً ونتصدى له .

وقد درسه كثير من الباحثين المسلمين والمستشرقين . فالأستاذ أحمـد أمين عدّه من زعماء الإصلاح . والدكتور عثمان أمين اعتبره رائد الفكر المصري . والأستاذ عباس العقـّاد عده عبقري الإصلاح والتعليم . والأستـاذ محمد حسين

الذهبي صاحب كتاب « التفسير والمفسرون » عده رائد اللون الأدبي الاجتماعي للتفسير في عصرنا الحاضر .

لقد ولد محمد عبده في فترة بدأت فيها أفكار الغرب الرأسمالي ومقاييسه في الحياة ترد مع المبعوثين إلى أوروبا للدراسة . وفي تلك الفترة ازدادت حملات المستشرقين والمبشرين على الإسلام ونبي الإسلام محمد ﷺ . وقد تحوّل محمد عبده من الجامع الأحمدي الى الجامع الأزهر ، لأن الأزهر هو المثلُ الأعلى للتعليم في المعاهد الدينية . وفي الأزهر يدرس الفقه وعلم أصول الفقه والتفسير والحديث والمنطق والنحو والبلاغة . وفي سنة ١٢٩٤ هـ ينال شهادة العالمية من الأزهر . ويأتي جمال الدين الأفغاني إلى مصر . ويتصل به محمد عبده ويستمع إلى محاضراته في بيته وفي مقهاه الذي يجلس فيه وحيث يكون زائراً أو مَزُوراً . وأحسّ الشيخان وحدة الغرض والانسجام فتلازما وتحابا .

وبذرت بذرة الثورة العُرابية . وكان محمد عبده على رأس الوقائع وإدارة المطبوعات . ينقد الشؤون الاجتماعية والعادات الدينية . ثم سجن ونُفي مع العُرابيين . ويصل إلى بيروت . ثم لا يلبث أن يدعوه أستاذه السيد جمال الدين ليوافيه إلى باريس فيلبي الدعوة ، ويشتركان في إخراج مجلة « العُروة الوثقى » . ثم تحتجب هذه المجلة بعد ظهور ثمانية عشر عدداً منها . ويعود محمد عبده إلى بيروت . فأخذ يدرس تفسير القرآن في مسجدين من مساجد بيروت على الطريقة التي اتبعها بعدُ في مصر ، ويُشغل نفسه بالتدريس في المدرسة السلطانية ببيروت أكثر الوقت . ثم يصدر العفو عن الشيخ محمد عبده بسبب شفاعة اللورد كرومر لدى الخديوي توفيق ، ويعود إلى مصر ، ويعين قاضياً أهلياً في محكمة بنها ثم الزقازيق ثم عابدين ، ثم عين مستشاراً في محكمة الأستئناف .

وبدأ يتعلم اللغة الفرنسية وهو قاضٍ في عابدين ، وجدّ فيها حتى بلغ شأواً لا بأس به . وقد أطلعه تعلمها على ميدان فسيح استفاد منه كثيراً مما قرأ في اللغة الفرنسية ، وقد ترجم كتاب التربية – لسبنسر بعد أن نقل من الإنجليزية إلى

الفرنسية ، وكان يكمل تعلمه الفرنسية برحلاته إلى سويسرا وفرنسا ، ويستمع إلى بعض المحاضرات ويقابل بعض العظماء وكما يقول هو ليجدد نفسه. وفي عهد الخديوي عباس عُين عضواً في مجلس إدارة الأزهر . ثم عُين مُفتياً للديار المصرية . وساءت العلاقة بينه وبين الخديوي عباس . ويُفتي لبعض مسلمي الترنسفال بجواز لبس البرنيطة لقضاء مصالحهم وعود الفوائد عليهم مما أهاج الرأي العام في مصر ضده . ويتخذ أهم وسيلة لإصلاح العقيدة تفسير القرآن الكريم ، جعله دَيدنه يُدرسه في بيروت في مسجدين ويدرّسه في احد مساجد القاهرة وهو قاض ، ويدرّسة في الأزهر وهو في القضاء والإفتاء ، ويتخذ موضوع محاضرته في الجزائر تفسير سورة العصر ، ويدرس جزء عمّ لتلاميذ مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، وينشر دروسه في التفسير في مجلة المنار ليُقرأ في العالم الإسلامي . ويدافع عن الإسلام ، فيرد على هانوتو وفرح انطون [1] .

ويذكر الباحثون ان محمد عبده كان يعتنق أكثر آراء أستاذه الأفغاني ، لكنه بعد عودته من باريس وفشل الدعوة إلى الثورة السياسية عدّل آراءه الأولى، لا من طريق السياسة والثورة ، بل من طريق التعليم والتنوير والتربية الدينية والاجتماعية . وكان لهذا التعديل والتحول أثره الكبير على اتجاهه في تفسير القرآن الذي جعله مرتكزاً وأساساً لدعوته الإصلاحية ، وتنقيته للعقيدة الإسلامية مما أصابها من دخيل وبدع وأوهام .

وإذا أراد الباحث معرفة ما أنتجه الشيخ محمد عبده من عمل في التفسير فإنه يجد تفسيره المشهور لجزء (عمّ) ذلك التفسير الذي ألفه بمشورة من بعض أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية ، ليكون مرجعاً لأساتذة مدارس الجمعية في تفهيم التلاميذ معاني ما يحفظون من سور هذا الجزء ، وعاملاً للإصلاح في أعمالهم وأخلاقهم. ولقد أتم تفسير هذا الجزء في سنة ١٣٢١ هـ ببلاد المغرب، وبذل جهده كما يقول في أن تكون العبارة سهلة التناول ، خالية من الخلاف

(١) نقلت هذا مختصراً من كتاب محمد عبده للأستاذ أحمد أمين .

وكثرة الوجوه في الإعراب ، بحيث لا يحتاج في فهمها إلا أن يعرف القارىء كيف يقرأ ، أو السامع كيف يسمع ، مع حسن النية وسلامة الوجدان .

وله تفسير مطول لسورة العصر كان قد ألقاه على هيئة محاضرات أو دروس على علماء مدينة الجزائر ووجهائها في سنة ١٩٠٣ م .

وله بعض بحوث تفسيرية عالج فيها بعض مشكلات القرآن ، ودفع بها بعض ما أُثير حول القرآن من شكوك وإشكالات ، مثل شرحه لقوله تعالى في الآية (٧٨) من سورة النساء : (وإن تُصِبْهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تُصِبْهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمالِ هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً) . وقوله في الآية (٧٩) من السورة نفسها : (ما أصابكَ من حسنةٍ فمن الله وما أصابكَ من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً) . وقد جمع بينهما ، وحاول توفيق بين ما يُظن فيهما من تنافٍ وتضاد ، وهو نسبة أفعال العباد تارة إلى الله تعالى ، وتارةً إلى العبد .

ومثل شرحه لقوله تعالى في الآيات (٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥) من سورة الحج (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) ... إلى قوله (أو يأتيهم عذابُ يوم عقيم) وإبطاله لقصة الغرانيق ، وتفنيده لما بُني عليها من تفسير يذهب بعصمة النبي ﷺ ، ويرفع الأمان عن الوحي الذي تكفل الله بحفظه .

ومثل تفسيره لقول الله تعالى في الآية (٣٧) من سورة الأحزاب : (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مُبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً) ورده لما ألصق بها من أحاديث باطلة ، تصوّر النبي ﷺ بصورة الرجل الشهواني ، وإبطاله لكل ما أثير

حول هذه القصة – قصة زيد وزينب – من مطاعن رُمي بها رسول الله ﷺ زوراً وبهتاناً .

ومن آثار الشيخ محمد عبده في التفسير، تلك الدروس التي ألقاها في الأزهر الشريف على تلاميذه ومُريديه ، وكان ذلك بمشورة تلميذه محمد رشيد رضا ، وإقناعه به ، كما هو في مقدمة تفسيره [1] .

وقد ابتدأ الشيخ محمد عبده بدرس التفسير في غرة المحرم سنة ١٣١٧ هـ = ١٨٩٧ م وانتهى عند تفسير قوله تعالى في الآية (١٢٦) من سورة النساء (ولله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً) . وذلك في منتصف المحرم ١٣٢٣هـ إذ توفي – رحمه الله – لثمان خلون من جمادى الأولى من السنة نفسها [2] .

ودروس التفسير هذه التي قيدها عنه طلابه تعد أثراً من آثاره في التفسير وإن لم يدون هو شيئاً منها. وإن تلميذه محمد رشيد رضا يوضح ذلك في مقدمة تفسيره المنار ، يقول: « وكنتُ أكتب في أثناء الدروس مذكرات أودعها ما أراه أهم ما قاله وأحفظ ما أكتب لأجل أن أبيضه ، وأُمدهُ بكل ما أتذكره في وقت الفراغ . ولم البث أن اقترح عليّ بعض الراغبين في الاطلاع عليه من قراء المنار في البلاد المختلفة ومن الحريصين على حفظه من الإخوان بمصر أن أنشره في المنار فشرعتُ في ذلك في أول المحرم سنة ١٣١٨ هـ وذلك في المجلد الثالث من المنار . وكنتُ أولاً أُطلع الأستاذ الإمام على ما أُعده للطبع كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه . فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات . ولا أذكر أنه انتقد شيئاً مما يراه قبل الطبع ، بل كان راضياً بالمكتوب بل معجباً به . على أنه لم يكن كله نقلاً عنه ومعزواً اليه ، بل كان تفسيراً

(١) تفسير المنار : ١/١٢ – ١٤ . الطبعة الرابعة .

(٢) انظر المرجع السابق : ١/١٤ ، والتفسير والمفسرون ٣/٢١٨ وما بعدها

للكاتب من إنشائه اقتبس فيه من تلك الدروس العالية جل ما استفاده منها ، لذلك كنت أعزو اليه القول المنقول عنه إذا جاء بعد كلام لي في بيان معنى الآية أو الجملة على الترتيب ، فإذا انتهى النقل وشرعتُ بكلام لي بعده قلت في بدئه (أقول) ولما كان رحمه الله تعالى يقرأ كل ما أكتبه، إما قبل طبعه وهو الغالب ، وإما بعده وهو الأقل ؛ لم أكن أرى حرجاً فيما أعزوه اليه مما فهمته منه وإن لم أكن كتبته عنه في مذكرات الدرس ، لأن إقراره إياه يؤكد صحة الفهم وصدق العزو »[1] .

هذا كل ما وصل الينا من إنتاج الشيخ محمد عبده في التفسير، سواء أ كان تأليفاً أم تدريساً .

ونستطيع أن نقول إن تأليف محمد عبده في التفسير كان محدوداً. أما تدريس التفسير فكان أعظم وأوسع ، فقد القى دروساً في التفسير بالجامع الأزهر طيلة ستة أعوام، قرأ فيها ما يقرب من خمسة أجزاء من اجزاء القرآن. كذلك القى دروساً في التفسير بمدينة الجزائر ، كما ألقى دروساً في التفسير أيضاً في مساجد بيروت ... في المسجد الكبير ، وفي مسجد الباشورة . وكانت طريقة الشيخ محمد عبده في قراءة الدرس في التفسير على مقربة مما ارتآه في كتابة التفسير كما يحدثنا عن ذلك تلميذه محمد رشيد رضا[2]. وهو أن يتوسع فيما أغفله أو قصّر فيه المفسرون ، ويختصر فيما برّزوا فيه من مباحث الألفاظ والإعراب ونكت البلاغة ، وفي الروايات التي تدل عليها ولا تتوقف على فهمها الآيات ، ويتوكأ في ذلك على عبارة تفسير الجلالين الذي هو أوجز التفاسير ، فكان يقرأ عبارته فيقرّها أو ينتقد منها ما يراه منتقداً ، ثم يتكلم في الآية أو الآيات المنزلة في معنى واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة[3] .

---

(١) تفسير المنار : ١/ ١٥ .

(٢) انظر كتاب التفسير والمفسرون : ٣/٢٢٣

(٣) انظر تفسير المنار : ١/١٤ وما بعدها — الطبعة الرابعة .

وكان من دأبه أنه لا يرجع إلى كتاب من كتب التفسير قبل إلقاء دروسه حتى لا يتأثر بفهم غيره . وكل ما كان منه أنه إذا ما عرض له وجه غريب من الإعراب ، أو كلمة غريبة في اللغة رجع إلى بعض كتب التفسير ، ليرى ما كُتب في ذلك ، وقد حدّث عن نفسه بذلك فقال : « إنني لا أطالع عندما أقرأ ، لكنني ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب في الإعراب ، أو كلمة غريبة في اللغة »[1] .

ويجب علينا – قبل البدء بدراسة اتجاه الشيخ محمد عبده في التفسير الذي يرمي إلى التوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية – أن نشير إلى جملة من الأمور التي لا يمكن – في تصورنا – توضيح هذا الاتجاه وتبيين معالمه إلا بها. وهي هذه :

أولاً : إن الاتجاه الذي تزعّمه الشيخ محمد عبده في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ظهر بين نزعتين : غربية وإسلامية . وهذا الاتجاه الجديد عرّضه لسخط المتفرنجين والداعين بدعوة الاسلام كليهما – كما يقول كرومر – وإن كان سخط الاولين أقل من سخط الآخرين .

ونحن نذهب الى ما ذهب اليه الدكتور محمد محمد حسين في أن حقيقة الأمر في حركة الشيخ محمد عبده وأستاذه جمال الدين الافغاني الذي اقترن اسمه به في الشطر الأول من حياته لا تزال تحتاج إلى مزيد من الوثائق التي توضح موقفهما وتزيل ما يحيط به من غموض ومن تناقض فيما اجتمع حولهما من أخبار . فبينما ينزّله محمد رشيد رضا – ومعه كل أتباع الشيخ محمد عبده الذين ازداد عددهم على الأيام – منزلة الاجتهاد في الدين ويرفعونه إلى أعلى درجات البطولة والإخلاص الذي لا تشوبه شائبة ، كان كثير من علماء الشريعة المعاصرين له يتهمونه بالمروق من الدين والانحراف به وتسخيره لخدمة العدو . فإذا تركنا هؤلاء وأولئك ممن قد يجد الطاعنون سبيلاً إلى رميهم بالتحيز والمحاباة أو التحامل

(١) انظر المرجع السابق : ١٤/١

والتزمت وجدنا كثرة من النصوص في كتب ساسة الغرب ودارسيه تصور رأيهم فيه وفي مدرسته وتلاميذه ومكانـه من الفكر الحديث . وهي جميعاً تتفق على تمجيده والإشادة به وبما أداه للاستعمار الغربي من خدمات بإعانته على تخفيف حدة العداء بينه وبين المسلمين ، وهو عداء يستتبع آثاراً سياسية تضر مصالحه وتهدد بإذكاء الثورات التي لا تفتر ولا تنقطع [1] .

ونحن — على سبيل المثال لا الحصر — نورد هذا النص للمستشرق هـ . أ . ر . جـب ، يقول : « فمحمد عبده بالنسبة للمبدأ كان يرفض قبول مبـدأ السلطة أو التقليد بـلا مناقشة كما يقال في الإسلام . وكان هذا الرأي بمثابة خشبة إنقاذ للنزعة العلمانية الجديدة . إلا أنه أثار في مؤلفاته المنشورة كما في كتابه عن الفقه الموحد الديالكتيكية العقلانية التي عرفها الفقهاء القدماء . وتطرف تلامذته ومن بينهم الشيخ السوري رشيد رضا في اتباع هذه الطريق إلى حد ينطوي على دلالة . فها هم يرفضون حدود التقليد المعترف بـه في نطاق مؤسسي المذاهب الأربعة، والاقتصار في هذا التقليد على رأي من يطلق عليهم السلف الأكبر من فقهاء القـديم ، كما تعرضوا للمفاهـيم الحنبليـة المتزمتة » [2] .

ثانياً : اتخذ محمد عبده تفسير القرآن أساساً لنزعته الإصلاحية ؛ إصلاح المجتمع ، والتجديد الديني . وهذه النزعة الإصلاحية وإن كانت تتصل جذورها بالإسلام ومواقف بعض علماء المسلمين إلا أنها تأثرت بشكل قوي بمفاهيم الفكر الرأسمالي .

ثالثاً : يمثل اتجاه محمد عبده في تفسير القرآن مرحلة الدفاع عن الإسلام وكأنه في قفص الاتهام . وقد رد على هانوتو وفرح انطون . وله كتاب : « الإسلام والرد على منتقدية » ، وكتاب « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » .

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : ١/٣٠٧ وما بعدها .
(٢) الاتجاهات الحديثة في الإسلام : ص ٦٢ ،

رابعاً : علاقاته المريبة باللورد كرومر وبالمستشرقين ورجال الفكر الغربي. ويتمثل ذلك في هذه المواقف :

أ - صدور العفو عن الشيخ محمد عبده وهو في منفاه ببيروت ليعود إلى مصر بسبب الضغط البريطاني أو ضغط اللورد كرومر ممثل الاحتلال البريطاني في مصر . وقد عفا عنه الخديوي توفيق . ويحاول الاستاذ أحمد أمين الدفاع عن هذه العلاقة بحجج ومعاذير غير مقبولة [1] . وعندما همّ الخديوي عباس بعزل محمد عبده من منصب الإفتاء لم ينقذه إلا اللورد كرومر ، فقد صرح : « إنه لا يوافق على عزله من منصب الإفتاء مهما كانت الأحوال ، ما دام موجوداً » [2] .

ب - في بداية صيف ١٨٨٤ رحل محمد عبده إلى إنجلترا ، مندوباً عن « العروة الوثقى » في لندن . وقد استقبل الشيخ المصري صديقُه « ولفرد بلنْت » الكاتب الإنجليزي ، مؤلف كتاب « التاريخ السرّي للإحتلال الإنجليزي لمصر » . وقد أمد بلنت صديقه المصري بمعونته القيّمة في إبلاغ صوته عن طريق الصحافة إلى الرأي العام الإنجليزي ، ودعوته إلى الاهتمام بالقضية المصرية . كذلك يسّر للشيخ المصري سبيل مقابلات مع بعض رجال السياسة وأعضاء البرلمان الإنجليزي ، ومن أولئك « راندولف تشرشل » والد رئيس الوزارة الإنجليزية السابق [3] .

ج - وفي بيروت لم تقتصر جهود الشيخ محمد عبده على التعليم هناك ، فقد أسس ، وبمعونة أشخاص آخرين ، جمعية دينية سرية ، من أهدافها التقريب بين الأديان الثلاثة الكبرى : اليهودية والمسيحية والإسلام . وكان القس « اسحاق تيلر » راعي الكنيسة الإنجليزية أحد الأعضاء العاملين في تلك

---

(١) انظر : من زعماء الاصلاح - محمد عبده . ص ٦٠ وما بعدها .
(٢) انظر المرجع السابق ص ٧٨ وما بعدها ،
(٣) انظر عثمان أمين : رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده ، ص ٤٧

الجمعية ، وهو الذي حاول – فيما يبدو – نشر أفكارها في إنجلترا . ويقال إنه قد جرت بين هذا القس وبين محمد عبده مراسلات كان من آثارها أن تحدث القس عن الإسلام حديثاً ودياً ، ونشر بهذا المعنى مقالات في صحف لندن . ولكن يبدو أن نشاط الشيخ المصري في هذه الجمعية قد فسر – في تركيا – تفسيراً سياسياً يناقض مصالح الخلافة العثمانية ، مما حدا بالسلطان عبد الحميد إلى السعي لدى الحكومة الإنجليزية ، لإصدار العفو عن الشيخ المصري ، ودعوته إلى مغادرة سوريا في أقرب وقت ممكن [١] .

د – وقد كان المستشرق الإنجليزي « إدوارد براون » شديد الإعجاب بالمفتي ، فقدم إلى مصر ليشهد دروس التفسير التي كان يلقيها محمد عبده في في الأزهر. وتحت يد الدكتور عثمان أمين عددٌ من الخطابات أرسلها «براون» اليه في حياته وإلى تلميذه محمد رشيد رضا بعد وفاته [٢] .

هـ – محمد عبده يثني على سياسة الإنجليز في التسامح والعدل . وفي فتوى من فتاواه أجاز لأهل الهند من المسلمين أخذ القوانين الانجليزية والخضوع لأحكام القضاة الإنجليز [٣] .

و – كان يوقر ويعظم البحوث الإسلامية التي كتبها مفكرو الغرب ممن يسمونهم (المستشرقين) ، وهي بحوث متحررة لاتصدر عن احترام الإسلام أو توقير السابقين المقدمين من رجاله [٤] .

خامساً : تنقسم حياة الشيخ محمد عبده الفكرية والسياسية إلى قسمين ، يتميز احدهما عن الآخر. القسم الاول هو الذي عمل فيه تحت اشراف الافغاني،

---

(١) انظر المرجع السابق : ص ٤٨ وما بعدها

(٢) أنظر عثمان أمين : رائد الفكر المصري ، الإمام محمد عبده : ص ٦١

(٣) أنظر الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنيه ص ١٧٩ وما بعدها ، وتفسير المنار : ٦/٤٠٥ – ٤٠٩

(٤) أنظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : ١/٣٢٣

وكان فيه خادماً لأهدافه ؛ يرى بعينيه ، ويعمل بعقله ، ويكتب بوحيه .
والقسم الثاني من حياته هو الذي عمل فيه بعد عودته إلى مصر في ظل صداقة اللورد كرومر والمستر بلنت مما تشهد به تقارير كرومر السنوية وكتابه عن مصر الحديثة ، وعن عباس الثاني ، ومذكرات المستر بلنت وكتابه « التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر » ، وهي صداقة تركت أثرها في سلوك محمد عبده وفي آرائه .

والقسم الأول من حياة الشيخ محمد عبده الفكرية والسياسية يدعو إلى التأمل والتفكر . وإني أوافق الدكتور محمد محمد حسين وأشاركه فيما ذهب إليه ؛ إذ يقول : « وأول ما يريب الباحث في أمر هذا الرجل (جمال الدين الأفغاني) تعميته أصله ونسبه . فقد زعم أنه أفغاني سُنّي ، ثم أثبت البحث الحديث بأدلة كثيرة أنه كان إيرانياً شيعياً . وزعم أنه شريف النسب حسيني الجَدّ ، وهو زعم لم يقم عليه دليل . والذي يكذب على الناس في بلده ؛ خليق ألا يَصْدقَ في نسبه . أما الأدلة على أنه إيراني شيعي ، فهي صريحة متعددة في الكتاب الذي ألفه ابنُ أخته ميرزا لطف الله خان ، الذي كان يلازمه في زياراته لإيران . وقد مات ابن أخته هذا سنة ١٣٤٠ هـ فعهد ابنه صفات الله الأسد آبادي إلى حسين كاظم زاده بنشره ، فنشره في برلين لأول مرة سنة ١٩٢٦ م حيث كان ولا يزال يقيم منذ أربعين سنة . ثم ترجم الكتاب إلى العربية سنة ١٩٥٧ م تحت عنوان : (جمال الدين الأسدآباذي) . وقد أثبت المؤلف والمترجمان بأدلة كثيرة أنّ جمال الدين كان إيرانياً من أسد آباد (بالقرب من همذان) ، وكان شيعياً جعفري المذهب . ولم يكن أفغانياً من أسعد آباد (من أعمال كابل بأفغانستان) ، كما لم يكن سُنّياً حنفيّ المذهب ، على ما كان يزعمه وعلى ما هو مشهور حتى الآن بين الناس . فبقية أسرته لا تزال في أسد آباد . وقد حقق نسبه وزار أسرته عنايت الله خان ، عم أمان الله خان ملك الأفغان الأسبق . واسم والده

واسم خادمه يدلان على أنه شيعي إيراني . فاسم والده صفدر، يعني « مفرق الأعــداء » وهي عند الشيعة صفة لسيدنا عليّ رضي الله عنه . والاسم وقفٌ على الشيعة ، لا يتسمى به أحد من الأفغانيين . واسم خادمه الذي كان يلازمه دائماً ، والذي تركه بعد رحيله عن مصر في رعاية تلميذه محمد عبده ، هو « أبو تراب » ، وهي كنية سيدنا عليّ ، ولا وجود لهذا الاسم في غير إيران . ولهجة جمال الدين الفارسية تقطع بأنـه إيراني . وأصدقاؤه المقربون الذين كانوا يلازمونه في الآستانة كانوا من الإيرانيين . وكان تفكيره دائمـاً متجهاً إلى إيران وإلى اتخاذها مركزاً للجامعة الإسلامية التي كان يدعو إليها كما يبدو من مقال له في العروة الوثقى .

ولكن جمال الدين أخفى أصله الإيراني ، لأنه كان يريد أن يخفي تشيعه عن الناس في البلاد العثمانية التي تنقل فيها ، وأهلها سنيّة حنفية كالأفغان . وقد استفاد جمال الدين من انتسابه للأفغان ، لأنه أصبح بعيداً عـن سلطة ممثلي إيران وقناصلها في الخارج . وكان من السهل ان تروج أفغانيته بين الناس في البلاد التي نزلها ، لأن أفغانستان لم يكن لها تمثيل خارجي في ذلك الوقت ، وكان للإنجليز نفوذ كبير فيها ، فكانوا يرعون اتباعها في الخارج .

ومما كان يريب الباحث في أمر جمال الدين وأهدافه أيضاً أن أكثر نشاطه كان سرّياً . فقد كان أول من أدخل نظام الجمعيات السرية في العصر الحديث في مصر . وكان حيثما حل يؤسس الجمعيات السرية وينشرها . وأنشأ جمعية مصر الفتاة السرية ، وأنشأ صحيفة تنطق باسمها هي صحيفة « مصر الفتاة »، ولم يكن فيها مصري واحد كما روى تلميذه محمـــد عبده في كتاب « أسباب الحوادث العرابية » ، وكان أغلب أعضائها من شبان اليهود . ثم أنشأ محفلاً ماسونياً تابعاً للشرق الفرنسي ، ضم إليه عدداً كبيراً من أصحاب النفوذ في مصر بمساعدة رياض باشا رئيس الوزراء . وهو الذي استقدمه إلى مصر وتولى

رعايته فيها ، وأجرى عليه راتباً شهرياً ، وأعد له مسكناً في خان الخليلي، ويقال إنه كان في حارة اليهود

وقد غمس جمال الدين يده فعلاً في الدم الحرام ، وكان مستعداً دائماً لأن يغمس يده فيه . فهو مسئول عن اغتيال ناصر الدين شاه ايران . كان لا يزال يؤلب عليه في كل مكان منذ طرده من إيران سنة ١٨٩١ م وأخرجه من الضريح المقدس عند الشيعة الذي كان قد عاذ به ولجأ إليه ، وهو « بقعة حضرة عبد العظيم المقدسة » . فاتصل برجل هارب من إيران يدعى « ميرزا رضا الكرماني » وحرضه على قتله ، فتسلل إلى إيران واغتاله سنة ١٨٩٦ م في المكان نفسه الذي طرد منه الأفغاني . وقد فكر الأفغاني بموافقة محمد عبده في اغتيال الخديوي إسماعيل أثناء مروره على كوبري قصر النيل ، لأن جمال الدين كان متفقاً على برنامج الحكم مع ابنه توفيق ، الذي كان قد نجح في ضمه إلى محفله الماسوني . وقد اشترك من بعد مع نوبار باشا في السعي لعزل إسماعيل .

إنّ الدارس المدقق لسيرة جمال الدين لا يملك إلا ان يتوقف أمام كثير من الظواهر الغريبة في سيرته . انه يتساءَل : فيم تنقله السريع المفاجيء الذي لا يفتر، بين إيران وبلاد الأفغان والهند والحجاز ومصر وتركيا وفرنسا والنمسا وإنجلترا والروسيا ؟ وفيم هذه الأزياء المختلفة التي كان يلبسها لكل بلد ، والتي يحفل بها كتاب ابن أُخته ميرزا لطف الله خـان ؟ فهو في زيّ عربي تارة ، وفي زي علماء الشيعة تارة أخرى ، ومع جماعة من كبار علمائهم ومجتهديهم تارة ثالثة ، وفي طربوش تركي تارة رابعة ، وفي زي أفغاني تارة خامسة . فيم كل هذا ، وباغي الخير لا يحتاج إلى التستر والتخفي ، وإنما يتخفى المريب ؟؟ ومن أين كان ينفق على هذه الرحلات ؟ وفيم كانت صلته بالمستر بلنت ، ذلك الرجل الغريب،الذي كان لا يفتر عن التنقل بين مضارب الأعراب في مصر وفي سوريا وفي نجد ؟ يدعو المصريين إلى الثورة ، ويتكلم

بعد وقوعها باسم عرابي ، ويقدم له صوراً مضللة عن صفته الرسمية وقدرته السياسية وقوة الجيوش الإنجليزية، ثم يدافع عنه بعد اعتقالة ؟! فيم كانت صلة الأفغاني بهذا الرجل ، ينزل ضيفاً عليه عندما زار إنجلترا ، ويكتب الى محمد عبده من بور سعيد وهو في طريقه اليها يطلب اليه أن يكون رده بعنوان المستر بلنت ؟ بل فيم كانت صلته بإنجلترا ، يلجأ الى سفيرها في الآستانة ، لكي يساعده على الخروج من تركيا حين غضب عليه السلطان عبد الحميد ؟ وباسم من كان يفاوض الإنجليز في الوصول إلى اتفاق مع تركيا ضد روسيا ؟ ومع المهدي للاعتراف باستقلال السودان ؟ وما هذا الخليط من اليهود والنصارى الذي يجتمع حول الرجل الذي كان صوته أعلى الأصوات في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وفي التنديد بفساد المجتمع الإسلامي والدعوة إلى إصلاحه ؟ سليم نقاش صاحب الكتاب الذي يحمل عنواناً غريباً في إبان الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وهو : « مصر للمصريين » شامي نصراني . وأديب اسحق من نصارى الشام أيضاً . وكان إذا ذكر بعد موته في مجلس الأفغاني جاشت نفسه بالحزن وهو يقول : (إنا لله وإنا إليه راجعون) . وطبيبه الخاص يهودي يدعى هارون . وقد كان هو ونصراني آخر يدعى جورجي كونجي هما اللذان شهدا احتضاره وحدهما . والذي كان يساعده في تحرير صحيفة العروة الوثقى مع محمد عبده رجل مريب من إيران يدعى ميرزا باقر ، كان قد تنصر وصار داعية للنصرانية هناك مع جمعية للمبشرين ، ثم عاد الى الإسلام ليشارك في تحرير الجريدة الداعية الى الجامعة الإسلامية . ومجالس الأفغاني كانت تضم خليطاً من المسلمين والنصارى واليهود . هذا بالإضافة الى ما أشيع من أنه كان ينزل في حارة اليهود ، ومن أنه ألف جمعية سرية أعضاؤها من شباب اليهود . ولماذا كانت عداوته الشديدة للاستعمار الإنجليزي وحده دون الاستعمار الفرنسي والاستعمار الهولندي ؟ فلم ترد في صحيفة العروة الوثقى إشارة للاستعمار الفرنسى للجزائر ، كما لم ترد فيها

إشارة للاحتلال الهولندي لأندونيسيا ، ولم تشر الصحيفة إلا إشارة عابرة لاحتلال الهند الصينية .

نحن نعرف أن الأفغاني كان ينتسب حين دخل مصر الى المحفل الماسوني الاسكتلندي ، ثم اختلف معه فتحول الى المحفل الماسوني الفرنسي . فهل كانت عداوته للإنجليز مبنية على هذا الخلاف مع المحفل الماسوني الاسكتلندي ، مع ما هو معروف من استغلال الاستعمار للمحافل الماسونية ، الى جانب ما هو معروف من صلتها بالصهيونية ؟! » [1] .

وإني أعتقد أن ماسونية جمال الدين الإيراني المتأفغن هي الباعث والمحرك لكل أعماله المريبة. وقد يظن بعض القراء أن النص السابق لا يكفي لإثبات أن جمال الدين كان ماسونياً . ولذلك فإني أُدعمه بقول للأستاذ أحمد أمين الذي يوقر جمال الدين ويعظمه كما يوقر تلميذه محمد عبده المصري . وعندما قصد أحمد أمين الآستانة سنة ١٩٢٨ رأى واجباً أن يزور قبر جمال الدين ليستعيد عنده ذكرى عظمته وسلسلة أعماله [2] ، يقول أحمد أمين : « ومن تمام برنامجه في هذا الباب أن انضم إلى المحفل الماسوني الاسكتلندي لأنه يضم كثيراً من علية القوم ، لعله بذلك يتمكن من إيصال أفكاره اليهم ، ويضم طائفة من المصريين والأجانب ، فلعل حرية القول فيه تكون أتم ؛ ولكن ما دخل السيد فيه حتى ثارت ثائرته ، وأخذ يهاجمه في تصرفه وينقده بخطبه المتوالية . غاظه من المحفل أنه وجد أعضاءه لا يحبون أن يتكلموا في السياسة فقال : « أول ما شوقني للعمل في بناية الأحرار عنوان كبير خطير : — حرية — مساواة — إخاء ، وأن غرضها منفعة الإنسان — سعي وراء دك صروح الظلم — تشييد معالم العدل المطلق ، ولكن كنت أنتظر أن أسمع

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية : ص ٧٥ — ٨٥ .

(٢) انظر زعماء الإصلاح في العصر الحديث : ص ١١٥ .

وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل من بين أسطوانتي المحافل الماسونية !

إذا لم تتدخل الماسونية في سياسة الكون ، وفيها كل بناء حر ، وإذا كانت آلات البناء التي بيدها لا تستعمل لهدم القديم وتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة ؛ وإذا كانت لا تدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة ، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة » . وأخيراً استقال من هذا المحفل ، وأنشأ محفلاً آخر تابعاً للشرق الفرنسي ؛ وسرعان ما بلغ أعضاؤه أكثر من ثلاثمائة عضو من نخبة المفكرين والناهضين المصريين ؛ وكان في هذا المحفل مطلق الحرية ، نظم شعبة للأعمال المختلفة ؛ فشعبة للحقانية ، وأخرى للمالية ، وثالثة للأشغال ، ورابعة للجهادية . وهكذا لكل وزارة ومصلحة شعبة ،تدرس كل شعبة شؤون وزارتها أو مصلحتها ، وتصرف ما يقع من الظلم ووجوده الإصلاح فيها ، ثم كل شعبة تتصل بالوزير المختص وتبلغه رغباتها في أسلوب حازم صريح . فكان لذلك هزة في الأندية والمجتمعات [(١)] » .

وقد ينخدع القارىء بحملة جمال الدين على المحفل الماسوني الاسكتلندي . وإلا لماذا استقال من هذا المحفل وأنشأ محفلاً ماسونياً آخر تابعاً للشرق الفرنسي ؟ مع العلم أن جميع المحافل الماسونية في العالم تُدار من قبل محفل الماسونية الكونية التي لا يدخلها إلا اليهود الأشكناز . ألا يمكن إصلاح المسلمين وإصلاح حكوماتهم بغير الاستعانة بالمحافل الماسونية مع العلم أن الماسونية جهاز ضخم يخدم اليهودية العالمية ؟!

فإذا كان جمال الدين الإيراني المتأفغن على ما ذكرنا فإننا نرجح ترجيحاً يكاد يقترب من اليقين أن محمد عبده ماسوني كذلك ، لأنه كان خادماً

---

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث . ص ٧٣ وما بعدها .

لأهداف جمال الدين ، يرى بعينيه ، ويعمل بعقله ، ويكتب بوحيه . ومما يؤكد ذلك أننا نجد إشارات صريحة في كتاب لاحد كبار رجال الماسونية في مصر ، تؤكد أن جمال الدين المتأفغن هو مؤسس « محفل كوكب الشرق » ورئيسه . كما تؤكد أن محمد عبده كان عضواً في هذا المحفل ، إذ يقول : « وقد ظهرت الماسونية في سورية في مظهر الإخلاص والمحبة أثناء الحوادث العُرابية سنة ١٨٨٢ م فإن الإخوان المصريين والمهاجرين الذين جاءُوا سورية قابلهم إخوانهم بالترحيب العظيم ، ودعوهم إلى محافلهم ومنازلهم . وكان الأفاضل الشيخ محمد عبده وإبراهيم بك اللقاني وحسن بك الشمسي وجماعة المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وغيرهم يحضرون معنا في محفل لبنان ويخطبون فيشنفون أسماع السوريين بخطبهم النفيسة وأحاديثهم الطليّة . ونال الاستاذ الشيخ محمد عبده رتبة البلح والصدف من المندوب الامريكي الذي حضر محفل لبنان .

ومما يؤكد هذه النصوص ويزيد قيمتها أن الشيخ محمد رشيد رضا – وهو أكثر تلاميذ محمد عبده تعصباً له – قد أيدها في كتابه : « تاريخ الأستاذ الإمام » [1] .

وهذا قول يؤيد ما ذهبنا إليه أورده أُستاذٌ يوقر الشيخ محمد عبده ، وهو الدكتور عثمان أمين الذي عد محمد عبده رائد الفكر المصري ورسولاً من رسل الوعي الإنساني. والدكتور عثمان أمين تلميذ للشيخ مصطفى عبد الرازق والأخير هو تلميذ للشيخ محمد عبده . يقول الدكتور عثمان أمين أثناء حديثه عن محمد عبده بعد أن صار مدرساً : « وفي هذه الفترة من حياته يبدو أنه انضم إلى الفرع الماسوني « كوكب الشرق » التابع المحفل الماسوني الأعظم في إنجلترا ، وكان هذا الفرع يضم حوالي ثلاثمائة عضو من صفوة البلاد . وكان

---

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ١ / ٣٠٨ .

المحفل يحبذ تبادل الأفكار بين الرجال الواقفين على دخائل السياسة ، وينشىء بينهم رابطة من التضامن والتعاون ، وكان هـذا نواة للحزب الوطني الذي سيكون له بعد شأن عظيم »[1] .

وقد أخطأ الدكتور عثمان أمين إذ جعل « كوكب الشرق » تابعاً للمحفل الماسوني الاعظم في إنجلترا الذي استقال منه جمال الدين ، والصحيح أن « كوكب الشرق » كان يتبع محفل الشرق الفرنسي الاعظم .

وقد أخطأ الاستاذ عبد الله التل إذ ذكر انسحاب جمال الدين الافغاني ومحمد عبده من الماسونية وكشف خططها الجهنمية وخطرها على العالم[2] .

ويبدو أن الاستاذ عبد الله التل استند فيما ذكره إلى قول لمحمد رشيد رضا أورده الاب لويس شيخو ، يقول : « فراجعنا « ملخص سيرة الإمام محمد عبده » الذي نشر في مجلة المنار الإسلامية لمنشئها السيد محمد رشيد رضا، فإذا هو يقول في الصفحة (٤٠٢) من المجلد الثامن سنة (١٩٠٥) : « إن الاستاذ الإمام رحمه الله تعالى ترك الماسونية من زمن طويل ، وقد أكثر ابناؤها من دعوته الى محافلها بعد رجوعه من النفي إلى مصر فلم يجب، وأهدوا اليه وساماً فلم يقبله . وقد سألته عن حقيقتها مرة فقال : إن عملها في البلاد التي وجدت فيها للعمل قد انتهى وهو مقاومة الملوك والباباوات ... وأخبرني أن دخوله فيها كان لغرض سياسي اجتماعي وأنه تركها من سنين فلن يعود اليها »[3] .

فهذا اعتراف من الشيخ محمد عبده بأنه دخل في الماسونية ، وإن كان أخفى طبيعة الغرض السياسي الاجتماعي الذي دفعه للدخول فيها .

---

(١) رائد الفكر المصري ، محمد عبده . ص ٤٠ الطبعة الثانية .
(٢) انظر جذور البلاء . ص ١٣٧ .
(٣) أسرار الماسونية : ص ١٩٥ .

ونحن نعلم أن الماسونية حركة سرية ، وأن أعضاءَها يخفون أسرارها عن الغرباء .

فلما علم محمد عبده أن تلميذه محمد رشيد رضا اكتشفه زعم ما زعم وادعى أنه خرج منها . ويؤكد ذلك القسم الذي يتلوه كل طالب يريد الدخول في الطقس السكوتلندي الماسونى : « إني أُقسم بمهندس الكون الاعظم أني لا أُفشي أسرار الماسونية ولا علاماتها ولا ملامساتها ولا أقوالها ولا تعاليمها ولا عاداتها ، وأني أصونها مكتومة في صدري إلى الابد ، ثم إني أعدُ وأُقسم باسم مهندس الكون بأني لا أخون عهد الجمعية وأسرارها لا بالإشارة ولا بالكلام ولا بالحركات ، وأني لا أكتب شيئاً منها ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير . وأرضى إذا حنثت بودي بأن تحرق شفتاي بحديد محمي وأن تقطع يداي ويحز عنقي وتعلق جثتي في محفل ماسوني ليراه طالب آخر ويتعظ بمثلي ، ثم تحرق هذه الجثة ويذر رمادها في الهواء لئلا يبقى أثر من خيانتي » [1] .

ومن يرجع إلى الكتاب الذي كتبه محمد رشيد رضا ـ وهو أكثر تلاميذ محمد عبده تعصباً له – في تاريخ أستاذه يتبين له بكل وضوح ماسونية محمد عبده ونيله رتبة البلح والصدف من المندوب الامريكي الذي حضر إلى محفل لبنان [2] .

من كل ما سبق نستطيع أن نقول إن محمد عبده كان ماسونياً مثل أُستاذه جمال الدين الإيراني المتأفغن .

وقد يقال : وليكن محمد عبده ماسونياً ، فهل لذلك أثر على اتجاهه في التفسير ؟ فنقول : نعم له كل التأثير . لأن الماسونية جمعية تعمل في الظلام

---

(١) انظر لويس شيخو . أسرار الماسونية – ص ٣٦ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام : ١ / ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٨١٩ ، ٨٧٣ .

وغايتها خدمة مصالح اليهودية العالمية . وإلا فما معنى أن يؤسس محمد عبده جمعية دينية سرية من أهدافها التقريب بين الأديان الثلاثة : اليهودية والمسيحية والإسلام ، وكان القس « إسحاق تيلر » راعي الكنيسة الإنجليزية أحد الأعضاء العاملين في تلك الجمعية ؟ وعندما علم السلطان عبد الحميد رحمه الله بأمرها سعى لدى الحكومة الإنجليزية لإصدار العفو عن الشيخ محمد عبده ودعوته إلى مغادرة سوريا فوراً .

والذي يدرس الماسونية يلاحظ أن عمل محمد عبده منسجم مع مبادئها وأهدافها القريبة والبعيدة .

ألم يقرأ هذا المصلح الاجتماعي الاستاذ الإمام مفتي الديار المصرية ورائد الفكر المصري الآية القرآنية : (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ... الآية) ؟ وفي الأسطر التالية نقدم للقارىء بعض قواعد الماسونية وخطوطها العريضة مستندين في ذلك إلى مضابط المجالس الماسونية ومنشوراتها :

أولاً : لا يقبل المتدينون في المحافل الماسونية ، لأن الذي ينخرط في المحافل يجب أن يكون حُراً ، والماسوني الحقيقي لا يكون متديناً .

ثانياً : إن الغاية من وجود الماسونية هي النضال ضد الجمعيات المستبدة المنتمية إلى الماضي ، ولأجل هذه الغاية يقاتل الماسونيون في الصفوف الأولى ، لأنها هي المنظمة الوحيدة التي تناهض الأديان والقوميات والتقاليد .

ثالثاً : من أهداف الماسونية محاربة الأديان وصيانة الدول اللادينية العلمانية ، ولذا فهي تستسيغ الإرهاب بالتجرد عن مفاهيم الاخلاق والضمير .. ويجب أن تكون الماسونية متمرنة حسب الظروف

والأوضاع [1].

وبعدُ ، فهل كان محمد عبده متديناً حقاً؟ ألم يطلق العنان لعقله في تأويل آي القرآن ؟ وهل هاجم المقلدين وطالب بفتح باب الاجتهاد ؟؟ وهل أباح ربا الفضل ؟ ألم يُجزْ لمسلمي الهند العمل بقوانين الإنجليز التي هي قوانين كفر؟ ألم يرفض فكرة تعدد الزوجات ؟ كل هذه الاستفسارات وغيرهـا سنعرف الإجابة عنها من خلال عرضنا لاتجاهه في التفسير وبيان خصائصه .

من كل ما تقدم نستطيع أن نقول في غير مجانبة للحق إن محمد عبده كان في القسم الأول من حياته الفكرية والسياسية تحت إشراف أستاذه جمـال الدين كان ماسونياً ، وكان في القسم الثاني من حياته بعد عودته من المنفى إلى مصر يعمل في ظل صداقة اللورد كرومر ممثـل الاحتلال البريطاني في مصر والمستر بلنت ذلك البريطاني الغريب الخطير الذي كان مصطفى كامـل زعيم الحزب الوطني في مصر أول من تنبه إلى خطورته .

ومهما يكن ، فنحن نتوقع أن يسير محمد عبده في بعض اتجاهه التفسيري مسار السلف من المفسرين فلا يكاد يخالفهم كثيراً ، وفي بعض اتجاهه يحـاول بقدر طاقته أن يوفق بين القرآن كتاب الإسلام وبين الحضارة الغربية الحديثة انسجاماً مع ماسونيته . وسأقوم بكشف قناعه معتمداً على الأدلة والحجج لئلا يكون كلامي تهجماً أو رجماً بالغيب ، وذلك مـا لا نرتضيه ولا نوافق أحداً عليه .

وأنا أعلم بأن كلامي هذا لن يرضي الفئة الباغية العلمانية من أنصـاره ومؤيديه ، لأنهم اتخذوا منهجه ديناً يتعبّدون به ، وإماماً لهم من دون الله . ولن نعبأ بسخطهم لأننا نبغي وجه الله في كل حركاتنا وسكناتنا .

---

(١) انظر جواد رفعت آتلخان . أسرار الماسونية ، ص ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٠ .

طريقته في التفسير :

اتخذ الشيخ محمد عبده لنفسه منهجاً في تفسير القرآن الكريم بسبب اعتماده على هذا التفسير في أن يكون أساساً لدعوته الإصلاحية للمجتمع ولتنقية الدين من البدع والأوهام والخرافات ، ويخالف به جماعة المفسرين من السلف الصالح رضي الله عنهم . وهو فهم كتاب الله من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة ، وذلك لأنه يرى أن هذا هو المقصد الأعلى للقرآن ، وما وراء ذلك من المباحث فهو تابع له ، أو وسيلة لتحصيله [1] .

وقولنا إن الشيخ محمد عبده خالف بهذا المبدأ أو المنطلق جماعة المفسرين القدامى فلأن القدامى فسروا القرآن الكريم عندما كان دستورهم ونظامهم الذي يرجعون إليه في كل أمر من أمورهم . فكان تفسير القرآن غاية عندهم وهدفاً . وجميع المعارف والثقافات التي وضعت في القرن الثاني والثالث كانت لخدمة القرآن الكريم. فالفقيه يصبُّ اهتمامه على آيات الأحكام، والنحوي على الاحتجاج للقراءات المتواترة والشاذة ، والمتكلم على الآيات التي يدعم بها مذهبه الكلامي ، وهكذا ... فلا نستطيع أن نقول إن الإكثار من هذه الأدوات التي استخدمها المفسرون أخرجت الكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي وذهبت بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي كما يقول محمد عبده [2] ، لسبب بسيط وهو أن المعاني الأولى المتبادرة من كلام الله تعالى كانت مستوعبة عند المفسرين بالمأثور . أما المفسرون بالرأي الجائز وغيره فقد رأوا أن يجتهدوا ويُعْملوا عقولهم في تأويل آي القرآن الكريم اعتماداً على الثقافات المطروحة في الساحة الإسلامية النشطة . ودعاهم ذلك الترف العقلي إلى الاستعانة بألوان المعارف والثقافة الإسلامية على توضيح كتاب الله وشرحه

---

(١) انظر تفسير المنار ١ / ١٧ .

(٢) انظر تفسير المنار – ١ / ١٨ وما بعدها .

وتبيينه ، تماماً كما كان يفعل الفقهاء والنحاة عندما يبحثون مسألة أو مشكلة بعيدة الوقوع . وهذا فضل ونشاط وحيوية لا بد أن نعترف بها للمفسرين والعلماء القدامى . أما محمد عبده فقد تصدى لتفسير كتاب الله في وقت غاب فيه الحكم بكتاب الله بفعل الكفار المستعمرين الذين رأوا قوة المسلمين في الحكم بهذا القرآن . ولا ننسى أن انحطاط المسلمين الفكري بسبب الجهل بالإسلام قد وصل إلى مداه . فخرج علينا محمد عبده بنزعته الإصلاحية الترقيعية التي لم يكن من برنامجها تصحيح أوضاع المسلمين كاملة بالرجوع إلى الإسلام ، فاعتمد على التفسير واتخذه منطلقاً لنزعته الإصلاحية الجزئية التي تبقي على النظام الرأسمالي في مصر وغيرها من بلاد الإسلام . فتفسير القرآن عند محمد عبده وسيلة لا غاية .

والتفسير عند محمد عبده ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : جافٌ مُبْعِدٌ عن الله وعن كتابه ، وهو ما يُقصد به حل الألفاظ وإعراب الجُمل وبيان ما ترمي إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية ، وهذا لا ينبغي أن يُسَمى تفسيراً ، وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرها .

وثانيهما : هو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول ، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام ، على الوجه الذي يجذب الأرواح ، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام ، ليحقّق فيه معنى قوله تعالى (هُدىً ورحمة) ونحوها من الأوصاف . فالمقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون هو الاهتداء بالقرآن . وهذا هو الغرضُ الأول الذي يرمي إليه في قراءة التفسير [1] .

القرآن لا يتبع العقيدة وإنما تؤخذ العقيدة من القرآن :

يرى محمد عبده أن القرآن الكريم تؤخذ منه العقيدة ويُستَنبط منه

(١) انظر المرجع السابق – ١ / ٢٤ وما بعدها .

الرأي ، ولا يجوز أن يحمل المسلم مذهباً وينظر للقرآن من خلال هذا المذهب أو الاعتقاد ، فهو يقول : « إذا وزنا ما في أدمغتنا من الاعتقاد بكتاب الله تعالى ، من غير أن ندخلها أولاً فيه ، يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين . وأما إذا أدخلنا ما في أدمغتنا في القرآن وحشرناها فيه أولاً فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال ،لاختلاط الموزون بالميزان ، فلا يُدرى ما هو الموزون من الموزون به . أُريد أن يكون القرآن أصلاً تـُحْمَلُ عليه المذاهب والآراءُ لا أن تكون المذاهب أصلاً والقرآن هو الذي يحمل عليها ، ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها كما جرى عليه المخذولون ، وتاه فيه الضالون [(١)] .

وانسجاماً مع الخطة التي وضعها محمد عبده لنفسه في تفسير القرآن فإنه يرى عدم التعرض في بيان القرآن إلى المسائل الخلافية التي لا تدل عليها عبارته . ويعني بها اختلافات النحاة والفقهاء والمتكلمين متأثراً بطريقة أبي حيان الأندلسي في تفسيره المسمى البحر المحيط ، يقول محمد عبده : « ويذكر بعض المفسرين في هذا المقام مسائل خلافية في الميتة كحل الانتفاع بجلدها وغير ذلك مما ليس بأكل . وقد قلنا إننا لا نتعرض في بيان القرآن إلى المسائل الخلافية التي لا تدلُّ عليها عبارته ، إذ يجب أن يبقى دائماً فوق كل خلاف » [(٢)] .

يجلُّ القرآن عن أن يكون فيه كلمة زائدة :

يقول الشيخ محمد عبده في تفسير قوله تعالى في الآية (٨٨) من سورة البقرة (فقليلاً ما يؤمنون) : « ومن مباحث اللفظ في الآية أنّ كثيراً من المفسرين يزعمون أنّ (ما) زائدة . وما هي بزائدة وفاقاً لابن جرير الطبري ، وجَلّ القرآن أنْ يكون فيه كلمة زائدة ، وإنما تأتي (ما) هذه لإفادة

---

(١) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن — ص ٥٤ .
(٢) تفسير المنار — ٢ / ٩٨ .

العموم تارة ولتفخيم الشيء تارة أُخرى . ويقول ابن جرير : إنما يُؤتى بها في مثل هذا المقام كمبتدأ كلام جديد يفيد العموم كأنه قال : فإيماناً قليلاً ذلك الذين يؤمنون به . وأما التي لتفخيم الشيء فكقوله تعالى : (فبما رحمة من الله لنتَ لهم) أي فبسبب رحمة عظيمة الشأن خصك الله بها لنتَ لهم على ما لقيتَ منهم ، وقد بيَّن الله هذه الرحمة بقوله في وصفه ﷺ (بالمؤمنين رؤوف رحيم) وقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) [1] .

وَوِفاقاً لهذه النظرة إلى وضع ألفاظ القرآن الكريم ، فقد رأى محمد عبده أن كل كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها ، فليس فيها كلمة تقدمت ولا كلمة تأخرت لأجل الفاصلة ، لأن القول برعاية الفواصل إثبات للضرورة على شاكلة قوله في تفسير قول الله تعالى : (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) [2] : « قال الجلال : والرأفة : شدّة الرحمة ، وقدّم الأبلغ للفاصلة . وأنكر الأستاذ الإمام هذا القول أشدّ الإنكار وينكر مثله في كل موضع ، فيقول : إن كل كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها ، فليس فيه كلمة تقدمت ولا كلمة تأخرت لأجل الفاصلة . لأن القول برعاية الفواصل إثبات للضرورة ، كما قالوا في كثير من السجع والشعر إنه قُدّم كذا وأُخّر كذا لأجل السجع ولأجل القافية . والقرآن ليس بِشِعْر ، ولا التزام فيه للسجع ، وهو من الله الذي لا تعرض له ضرورة ، بل هو على كل شيء قدير ، وهو العليم الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه . وما قال بعض المفسرين مثل هذا القول إلا لتأثرهم بقوانين فنون البلاغة ، وغلبتها عليهم في توجيه الكلام ، مع الغفلة في هذه النقطة عن مكانة القرآن في ذاته ، وعدم الالتفات إلى ما لكل كلمة في مكانها من التأثير الخاص عند أهل الذوق العربي » [3] .

---

(١) المرجع السابق – ١ / ٣٧٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٤٣ .

(٣) تفسير المنار ، ٢ / ١٢ .

ويجب أن نذكر في مثل هذا المقام أن الله سبحانه وتعـالى أنزل القرآن على أساليب العرب وعلى منوالهم في حوك الكلام لتقوم بذلك المعجزة . والتقديم والتأخير هو أحد أساليب البلاغة ، فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم ، وله في القلوب أحسن موقع . فالمسألة ليست مسألة إثبات للضرورة التي يترتب عليها عجز الله سبحانـــه وتعالى ، وإنما مجيء القرآن على طرائق العرب في التعبير والصياغة والاسلوب ولذلك نرى محمد رشيد رضا يُعَقبُ على قول أستاذه محمد عبده ،فيقول : إن المسألة خلافية ، والتحقيق أن الفواصـــل ملتزمة في القرآن ، لكن بغير أدنى ضرورة ، ولا ما يوصف بأنه تكلُّف بترجيح اللفظ على بلاغة المعنى ، وإنما هو كقوله : (والعاقبة للمتقين) وقوله (والعاقبة للتقوى) .

تحكيم المذاهب النحوية في القرآن جراءة كبيرة على الله تعالى :

يرى محمد عبده أن تحكيم المذاهب النحوية في القرآن ومحاولة تطبيقه عليها جراءة كبيرة على الله تعالى على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها) : « الكاف : زَعَم الجلال أنها زائدة انتصاراً لمذهب البصريين الذين أنكروا مجيء الكاف بمعنى مثل . ولكن المعنى لا يَستقيم كما يليق ببلاغة القرآن إلا على الاول . وإن تحكيم مذاهبهم النحوية في القرآن ومحاولة تطبيقها عليه، وإن أخل ذلك ببلاغته ، جراءَة كبيرة على الله تعالى . وإذا كان النحو وُجِدَ لمثـــل ذلك فليتهُ لم يُوجَد » [1] .

وحدة القرآن وبلاغة عبارته :

من خصائص تفسير الشيخ محمد عبده الشعور الواضح بوحـــدة القرآن وبلاغة عبارته . إن من عجيب شأن رواة أسباب النزول أنهم يفككون

---

(١) المرجع السابق ، ٣ / ٤٨

الطائفة الملتئمة من الآيات القرآنية ، إذ يفصلون بعضها عن بعض ، أو يفصلون الجمل الموثقة في الآية الواحدة ، فيجعلون كلّ جملة سبباً مستقلاً ، كما يجعلون لكل آية من الآيات الواردة في مسألة واحدة سبباً مستقلا كذلك .
أما محمد عبده فيخالف أُولئك المفسرين ، ويرى أن نظرتهم تلك ، فضلاً عن منافاتها لبلاغة القرآن ، تجعله مفككاً مبدّداً لا اتصال بين أجزائه ، وهو ما يتنزّه عنه كلام الله . ويحاول في غير موضع إثبات أن بين مختلف الآيات القرآنية اتصالاً جوهرياً عميقاً ، وينتهي إلى التصريح بأننا إذا كنا بحاجة إلى معرفة أسباب النزول في آيات الأحكام ، فإن معرفة الوقائع والحوادث التي نزل فيها الحكم تعين على فهمه وفقه حكمته وسرّه ، فلا حاجة إلى التماس هاتيك الأسباب في الآيات النافية للشرك ، المقررة للتوحيد ، وهو المقصود الأول من الدين الإسلامي (١) .

نزعة علمية في تفسير إعجاز القرآن :

يرى محمد عبده وفاقاً لنزعته العقلية في التفسير أنّ إعجاز القرآن يعجز الزمانُ عن إبطال شيء منه ، وأنه موافق لما تجدّد من العلم الحق والتشريع للعدل أو غير مخالف له ، فلا شكّ في أنّ هذه تعد له مزية خارقة للمعتاد في البشر ، وقد ثبت هذا للقرآن وحده ، فهو كتاب مشتمل على كثير من أُمور العالم الكونية والاجتماعية . مرت العصور وتقلبت أحوال البشر في العلوم والأعمال ولم يظهر خطأ قطعي في شيء منها ، لهذا صحّ أن تجعل سلامته من هذا الخطأ ضرباً من ضروب إعجازه للبشر ، وإن لم يكن هذا مما تحدى به الرسول ﷺ من عجز البشر عن مثله ، لأنه لم يكن ليظهر إلا من بعده فادّخر ليكون حجةً على أهله. والقرآن مشتمل على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله ، ثم عرفت بعد

(١) انظر عثمان أمين ، رائد الفكر المصري ، الإمام محمد عبده ، ص ١٧٨ .

ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله في الخلق . وهذه مرتبة فوق ما ذُكِرَ في الوجه السادس من عدم نقض تقدم العلوم لشيء مما فيه . فهذا النوع من المعارف التي جاءت في سياق بيان آيات الله وحكمه كانت مجهولة للعرب أولجميع البشر في الغالب ، حتى أنّ المسلمين أنفسهم كانوا يتأولونها ويخرجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم في كل عصر من ظواهر وتقاليد أو من نظريات العلوم والفنون الباطلة . فإظهار ترقي العلم لحقيقتها المبينة فيه مما يدل على أنها موحى بها من الله تعالى [١] .

والذي يمعن النظر في أقول محمد عبده يُدرك مباهاته وتفاخره بمعرفة علم الكون ومعرفة أحوال البشر . ولا جدال في أنّ محمد عبده ينطلق من قاعدة منهجية هي الدفاع عن الإسلام وكأنه فيقفص الاتهام . فأوقع نفسه في ورطة كان في غنىً عنها وهذه الورطة تتمثل في إقحام القرآن فيميدان العلوم وأنه موافق لما تجدّد منها .

والصحيح أنّ القرآن ليس كتاب علم ، وإن كانت فيه آيات كثيرة تحث الانسان على التفكر والتدبر في أشياء كثيرة في هذا الوجود للوصول إلى معرفة الله تعالى والإيمان بالواجب الوجود وهو الله تعالى . وكيف يصادم كتاب سماوي ليس فيه طب أو هندسة أو كيمياء ما تجدد من علوم البشر التي تعتمد على الملاحظة والتجربة والاستنتاج !

وكيف يجعل محمدعبده عدم تناقض العلوم مع القرآن ضرباً من ضروب إعجازه للبشر ؟ ومثل هذا التفسير العلمي لإعجاز القرآن غير مأمونالعواقب ويناقض الواقع في نفس الوقت . لأن القرآن كتاب الإسلام ، والإسلام دين سماوي جاء لتنظيم علاقة الإنسان بخالقه وبنفسه وبغيره من البشر ، ولم يكن كتاب علم حتى ينسجم أو يتناقض مع مُستحدثات العلوم .

---

(١) انظر تفسير المنار ، ١/٢٠٨ – ٢١٢ .

قصص القرآن ليست تاريخاً ، بل للعبرة وبيان سُنَن الاجتماع :

ولقد أحسن محمد عبده حين أدرك أنه لا ضرورة للاتفاق بين القصص التي جاءت في القرآن وبين ما جاء في كتب بني إسرائيل أو كتب التاريخ القديمة ، على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (ألم تَرَ إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيٍّ لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ... الآية) [1] : « يظنُّ كثير من الناس الآن كما ظنَّ كثير ممن قبلهم أنَّ القصص التي جاءت في القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء في كتب بني إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق أو كتب التاريخ القديمة . وليس القرآن تاريخاً ولا قصصاً ، وإنما هو هداية وموعظة ، فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ، ولا لأجل التفكّه بها أو الإحاطة بتفاصيلها ، وإنما يذكر ما يذكره لأجل العِبرة وبيان سنن الاجتماع (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) وغير ذلك من الآيات .

إن محاولة جعل قصص القرآن ككتب التاريخ بإدخال ما يرون فيها على أنه بيان لها هي مخالفة لسنته ، وصَرْفٌ للقلوب عن موعظته وإضاعة لمقصد حكمته . فالواجب أن نفهم ما فيه ، ونُعمل أفكارنا في استخراج العِبَر منه ، ونَزَعُ نفوسنا عما ذمه وقبَّحَهُ ، ونحملها على التحلّي بما استحسَنَهُ ومَدَحَهُ . وإذا وَرَدَ في كتب أهل الملل أو المؤرخين ما يخالف بعض هذه القصص فعلينا أن نجزم بأنَّ ما أوحاه الله إلى نبيه ونقل الينا بالتواتر الصحيح هو الحق وخبره هو الصادق ، وما خالفه هو الباطل ، وناقله مخطىء أو كاذب . فلا نعُدُّهُ شبهةً على القرآن ، ولا نكلّف أنفسنا الجواب عنه . فإنَّ حال التاريخ قبل الإسلام كانت مشتبهة الأعلام ، حالكة الظلام ، فلا رواية يوثق بها ، للمعرفة التامة بسيرة رجال سندها ، ولا تواتر يُعتَدُّ به بالأولى ، وإنما انتقل العالم بعد نزول القرآن من حال إلى حال ، فكان

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٤٦ .

بداية تاريخ جديد للبشر ، كان يجب عليهم ، لو أنصفوا ، أن يؤرّخوا بـه أجمعين [1] .

موقفه من مبهمات القرآن :

من المعروف أن الله سبحانه وتعالى أبهم في القرآن الكريم أشياء واستأثر بعلمها ولم يبيّنها ، ولذلك لا يبحث عنها . لأن علم المبهمات مرجعه النقل المحض بأسانيد صحيحة ، ولا مجال للرأي فيه . وموقف محمد عبده من مبهمات القرآن الوقوف عند النص القطعي لا يتعداه ، ويثبت أن الفائدة لا تتوقف على سواه على شاكلة قوله : « ذلك العمل الذي أمرهم به موسى عليه السلام هو قتل أنفسهم . والقصة في التوراة التي بين أيديهم إلى اليوم : دعا موسى إليه من يرجع إلى الرب ، فأجابه بنو لاوي ، فأمرهم بأن يأخذوا سيوفهم ويقتل بعضهم بعضاً ففعلوا ، وقتل في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف . وقال مفسّرنا الجلال كغيره إن الذين قتلوا سبعون ألفاً . والقرآن لم يعين العدد . والعبرة المقصودة من القصة لا تتوقف على تعيينه فنمسك عنه . كذا قال الأستاذ الامام . وهذا مذهبه في جميع مبهمات القرآن يقف عند النص القطعي لا يتعداه ، ويثبت أن الفائدة لا تتوقف على سواه » [2].

ومثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (وإذا الصحف نُشّرت) [3] : « الصحف التي تنشر يوم القيامة بعد البعث هي صحف الأعمال . والذي يجب علينا اعتقاده أن أعمال العباد تظهر لهم ثابتة مبينة لا يرتابون فيها يوم الجزاء . ويعبر عن معنى ذلك الثبوت والبيان بنشر صحف الأعمال . أما كون الصحف على مثال الأوراق التي نكتب عليها في الدنيا أو على مثال

---

(١) تفسير المنار ، ٢ / ٤٦٩ – ٤٧١ .
(٢) المرجع السابق ، ١ / ٣٢٠ .
(٣) سورة التكوير ، الآية ١٠ .

الألواح أو ما يشبه ذلك مما جرى استعماله للكتابة عليه فذلك مما لم يصل علمنا إليه ولن نصل إليه بمجرد العقل ، ولم يُروَ عن المعصوم ﷺ فيه نصٌّ قاطع » (١) .

ومثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين)(٢) «ومن الغيب الذي يجب علينا الإيمان به ما أنبأنا به في كتابه من أن علينا حفظةً يكتبون أعمالنا حسنات وسيئات . ولكن ليس علينا أن نبحث عن حقيقة هؤلاء ومن أي شيء خلقوا وما هو عملهم في حفظهم وكتابتهم . هل عندهم أوراق وأقلام ومداد كالمعهود عندنا وهو ما يبعد فهمه ؟ أو هناك ألواح ترسم فيها الألواح ؟ وهل الحروف والصور التي ترسم هي على نحو ما نعهد أو إنما هي أرواح تتجلى لها الأعمال فتبقى فيها بقاء المداد في القرطاس إلى أن يبعث الله الناس ؟ كلٌّ ذلك لا نكلف العلم به ، وإنما نكلف الإيمان بصدق الخبر وتفويض الأمر في معناه إلى الله . والذي يجب علينا اعتقادُهُ من جهة ما يدخل في عملنا هو أنّ أعمالنا تُحفظ وتُحصى لا يضيع منها نقير ولا قطمير » (٣) .

ومثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (كلاّ إنّ كتاب الأبرار لفي علّيّين وما أدراكَ ما عِلّيّون)(٤) : « وهذه الكتب التي تكتب فيها أعمال المجرمين أو أعمال الأبرار مما استأثر الله بعلم حقيقته ، فسِجّين وعلّيون موجودان أودعهما الله أعمال الخاسرين والناجين . وليس علينا أن نعرف أنهما من أوراق أو أخشاب أو معادن أُخَر أو من أرواح غير أجسام . كل ذلك مما لا حاجة إلى البحث فيه لاستكمال الإيمان . وقد يكشفه للمصطفين

(١) تفسير جزء عم ، ص ٢٧ وما بعدها .
(٢) سورة الانفطار ، الآيتان ١٠ ، ١١ .
(٣) تفسير جزء عم ، ص ٣٦ .
(٤) سورة المطففين ، الآيتان ١٨ ، ١٩ .

من عباده ، ولهذا قال : (يَشْهده المقرّبون) » [١] .

ومثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: (قُتِل أَصحاب الاخدود)[٢]: « أما تعيين أصحاب الأخدود وأنى كانوا ومن هم أُولئك المؤمنون وأين كان منزلهم من الأرض فقد كثرت فيه الروايات . والأشهر أن المؤمنين كانوا نصارى نجران عندما كان دينهم دين توحيد ليس فيه حدث ولا بدعة . وأن الكافرين كانوا أمراء اليمن أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء في حقيقة الوثنية . غير أن المؤمن لا يحتاج في الاعتبار وإشعار الموعظة قلبه إلى أن يعرف القوم والجهة وخاصة الدين الذي كان عليه أُولئك أو هؤلاء حتى يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات والأساطير المحشوة بالخرافات . وإنما الذي عليه هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولا . ولو علم الله خيراً في أكثر من ذلك لتفضل علينا به » [٣] .

ومثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (فأما مَنْ ثَقُلَتْ موازينه ، فهو في عيشة راضية ، وأما منْ خَفّت موازينه ، فأُمُّه هاوية) [٤] : « وتقدير الله الأعمال وما تستحقُّه من الجزاء في ذلك اليوم إنما يكون على حسب ما يعلم لا على طريقة ما نعلم . فعلينا أن نفوّض الأمر فيه إليه سبحانه مع الإيمان به . ومن عجيب ما قاله بعض المفسرين « إنه ميزان بلسان وكفّتين كأطباق السموات والأرض ولا يعلم ما هيّته إلا الله » . فماذا بقي من ماهيته بعد لسانه وكفّتيه حتى يفوّض العلم فيه إلى الله! والكلام فيه جراءة على غيب الله بغير نصّ صريح متواتر عن المعصوم. ولم يرد في الكتاب إلا كلمة الميزان. وقد عرفت ما يمكننا أن نفهم منها لتنتفع بما تعتقد . وما عدا ذلك فعلمه

(١) تفسير جزء عم ، ص ٤٤ وما بعدها .

(٢) سورة البروج ، الآية ٤ .

(٣) تفسير جزء عم ، ص ٥٩ .

(٤) سورة القارعة ، الآيات ٦ — ٩ .

إلى الله سبحانه . وقــد قالوا إن منكر الميزان بالمعنى المعروف لا يُكَفَّر خصوصاً إذا كان القائل به يحددُ له لساناً وكفتين ، مع أن البشر قد اخترعوا من الموازين ما هو أتقن من ذلك وأضبط وأوفى ببيان الموزون ، أفيأبى الحكيم الخبير إلا استعمال ذلك الميزان الخشن الناقص الذي هدى العلم عقول البشر إلى ما هو أدق منه ؟! أيأبى عالم الغيب والشهادة أن يستعمل في وزن المعاني والمعقولات إلا ذلك الميزان الذي اخترعه بعض البشر قبل أن يبلغ بهم العلم ما بلغ بأهل العصر الحاضر وما سيبلغ بأهل العصور المقبلة ؟!

على أن جميع ما اخترع البشر وما يخترعون مهما دقّ ولطُف إنمــا هو معيار الأثقال الجسمانية والأوزان المحسوسة . وهــلاّ يكون الأليق بالمقام الإلهي أن يكون ميزان المعاني المعقولة لديه أسمى وأعلى من أن يكون على نمط ما يستعمله البشر مهما ارتقت المعارف وسَمَت بهم العلوم ! وهل يليق بمن يخاف مقام ربه أن يجرُأ على القول بوجوب الاعتقاد بأن الميزان الذي يزن الله به الأعمال يوم القيامة هو الميزان الذي تستعمله القبائل التي لم تزل في مهد الانسانية الأولى ميزان ضعفاء العقول قصار الأنظــار الذين لا يعرفون قيمة للإيمان بالغيب ولا لحياء العقل من الله وإطراقه عن أن ينظر إلى ما تشامخ من غيوب الله تعالى علمه وتعاظمت قدرته ! عليك أيها المؤمن المطمئن إلى ما يخبر الله به أن توقن أن الله يزن الأعمال ويميز لكل عمل مقداره ، ولا تسل كيف يزن ولا كيف يُقدِّر ، فهو أعلم بغيبه ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » [(١)] .

ولكن الشيخ محمد عبده لم يلتزم الوقوف عند النص القطعي لا يتعداهُ ، بل نجده يخالف منهجه غير مرة فيخوض في مبهمات القرآن مُستعيناً بمــا عرف من مستحدثات العلوم على شرحها وتوضيحها على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (وفُتحت السماءُ فكانت أبواباً) [(٢)] : « وقــد يكون معنى

---

(١) تفسير جزء عم ، ١٤٧ .

(٢) سورة النبأ ، الآية ١٩ .

تفتح السماء ما عنى بقوله (إذا السماء انشقت) (إذا السماء انفطرت) (ويوم تشقّق السماءُ بالغمام) أي أنه يقع الاضطراب في نظام الكواكب فيذهب التماسك بينها ولا يكون فيما يُسَمّى سماء إلا مسالك وأبواباً لا يلتقي فيها بشيء وذلك هو خراب الكون العلوي كما يخرب الكون السفلي » [1] ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (فإذا جاءت الصاخّة) [2] : « والصّاخّة ها هنا كالقارعة في سورتها ، هي الحادثة العظمى التي عبر عنها بالطامة الكبرى يكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذي يحدث من تخريب الكون ووقع بعض أجرامه على بعض . ولكون هذه الحادثة تأتي بذلك الصوت المفزع سمّيت صاخّة وقارعة ، أو أنها سميت صاخة لانها بما تأتي به من ذلك الصوت تصخّ الآذان أي تصمّها . وهذه الاسماء كلها أسماء يوم القيامة » [3] .

ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى: (وإذا البحار سُجّرت) [4]: «أما تسجير البحار فهو أن يفجر الزلزال ما بينها حتى تختلط وتعود بحراً واحداً . وهو بمعنى الملء ، فإن كل واحد منها يمتلىء حتى يفيض ويختلط بالآخر . وتَسجير البحار على هذا المعنى لازم لما سبقه من تقطع أوصال الارض وانفصال الجبال ، ويدلّ على رجحان هذا التأويل ظاهر قوله تعالى في سورة الانفطار (وإذا البحار فجّرت) . وقد يكون تسجيرها إضرامها ناراً ، فإن ما في بطن الارض من النار يظهر إذ ذاك بتشققها وتمزّق طبقاتها العليا . أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً، ولا يبقى في البحار الا النار . أما كون باطن الارض يحتوي على نار فقد وَرَدَ به بعض الاخبار ؛ وردَ أن البحر غطاء جهنم وان لم يعرف في صحيحها . ولكن البحث العلمي أثبت ذلك ويشهد عليه غليان

---

(١) تفسير جزء عم ، ص ٥ .
(٢) سورة عبس ، الآية ٣٣ .
(٣) تفسير جزء عم ، ص ٢٢ .
(٤) سورة التكوير ، الآية ٦ .

البراكين وهي جبال النار كما تَشهَدُ عليه الزلازل الشديدة التي تشقّ الارض والجبال في بعض الاطراف كما وقع في « جاوا » من عدة سنوات ، فإن آثار النار في بطن الارض قد ظهرت فيها ظهوراً لا شبهة تطرأ على الذهن بعده » [(١)] .

ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (اذا السماء انشقت، وأذنت لربّها وحُقّت) [(٢)] : « انشقاق السماء مثل انفطارها الذي مَرّ تفسيره في سورة الانفطار . وهو فساد تركيبها واختلال نظامها عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه . وهو يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجرّ اليها سَيرُ العالم كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره ، فيحدث من ذلك غمام وأيّ غمام . يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع . فتكون السماء قد تشققت بالغمام واختل نظامها حال ظهوره (وأذنت لربها) أي استمعت لامر ربها وفعلت حين أراد انشقاقها فعل المطواع الذي اذا أُورد عليه الامر من جهة آمره أنصت له وأذعن ، فكأنه قال : امتثلت له ، (وحُقّت) أي حُقّ لها أن تتمثل أي يجدر بها ذلك وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع ، لانها مخلوقة له وهي في قبضته ، وهو الذي يمسكها أن تزول ، فإذا أراد تبديد نظامها بدّده وما يكون لها أن تعصي إرادته . ومتى فَسَدَ نظام السماء فتساقط من كواكبها بعضها على بعض أصاب الارض من ذلك أشدّ ما يصيبها من الاضطراب فتدك جبالها وتنقطع أوصالها وتفقد التماسك بينها ، فلا يبقى لها هذا الاندماج الذي هي عليه الآن ، فتمدّ مدّ الاديم العكاظيّ كما روي عن ابن عباس . ولا تكون الا كتلة مائرة تتساوى أعاليها وأسافلها وعظمت بهذا الانتفاش وزادت أقطار حجمها » [(٣)] .

---

(١) تفسير جزء عم : ص ٢٦ .

(٢) سورة الانشقاق ، الآيتان ١ ، ٢ .

(٣) تفسير جزء عم : ص ٤٩ وما بعدها .

ومن مثل ذلك عندما عرض لتفسير سورة الفيل ، بعد أن ذكر ما قيل في ارسال الطير على أبرهة ، وما جاءت به بعض الروايات من أن الذي أصابهم هو داء الجدري والحصبة ، يقول : « وقد بيّنت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمه من الطير مما يرسله الله مع الريح ، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الامراض ، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح ، فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتّصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه ، وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يُعَدُّ من أعظم جُنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها ، وهو فِرَقٌ وجماعات لا يُحْصي عددها إلا بارئها ، ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى في قهر الطاغين على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب ولا على أن يكون له ألوان خاصة به ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها . فلله جُندٌ من كلّ شيء :

« وفي كلّ شيء له آيةٌ تدلّ على أنه الواحدُ » (١)

من كل ما تقدم نستطيع أن نقول إن الشيخ محمد عبده قد خالف منهجه ومنهج كثير من مفسري السلف إذْ أقحم نفسه في الخوض في الجزئيات والتفصيلات التي أبهمها الله سبحانه في كتابه الكريم . وسبب ذلك سيطرة الناحية العقلية ومستحدثات العلوم على اتجاهه التفسيري . ولا جدال في أنه قرأ بعض الكتب في الفلك . فعندما وقف أمام آي القرآن التي تتناول الحديث عن نهاية العالم « الحياة الدنيا » وتشقق السماء وتسجير البحار أخضع

(١) تفسير جزء عم ، ص ١٥٨ .

مفهوم هذه الآيات لما عرفه عن نظام الجاذبية وتكوّن المجموعة الشمسية في صورة تصل الى درجة المباهاة بمعرفة علم الكون. وهي نزعة علمية في التفسير غير مأمونة العواقب كانت موجودة عند القدماء من المفسرين ، فجاء محمد عبده فضخّمها ولفت الأنظار اليها . ونريد أن نتساءل : هل يعجز الله سبحانه عن إنهاء الحياة الدنيا بطريقة أخرى غير التي ذكرها محمد عبده ؟ وما قيمة الأفكار العلمية التي اعتمد عليها محمد عبده في تفسير الآيات السابقة بعد قرنين أو ثلاثة مثلاً عندما تزداد معلومات الإنسان عن نظام الكون الدقيق العجيب ؟ إن الله سبحانه هو الذي وضع سنن الحياة وقوانين الأشياء كلّها ، وهو قادر على سلب هذه القوانين لحكمة يريدها كما سلب خاصية الحرق من النار التي وقع فيها إبراهيم الخليل عليه السلام ، فقال عز من قائل : (يا نارُ كوني بَرْداً وسلاماً على إبراهيم) .

وفي تفسير سورة الفيل يجوز أن تكون الطير هي ما يُسَمّى اليوم بالميكروبات ، كما يجوز أن تكون الحجارة هي جراثيم بعض الأمراض . فالعربُ المعاصرون للرسول محمد عليه السلام لا يعرفون شيئاً عن هذه الميكروبات والجراثيم ، وهم الذين نزل القرآن بلغتهم وتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله . وإني أُحسُّ بل أُدرك بأن غرض محمد عبده من هذا الاتجاه في تفسيره هو إقناع المضبوعين بالثقافة الغربية من المسلمين وإقناع المستشرقين والمبشرين بأن القرآن لا يحوي الا الذي يقبله العقل ويدعمه العلم . وهو متعسفٌ في هذا الاتجاه وحاطب ليل . أيعجز الله سبحانه عن تدمير جيش أبرهة الحبشي الذي جاء لهدم البيت بغير المكروبات والجراثيم ؟ والذي يبدو لي أن محمد عبده كان على حظٍ وافر من الانهزام الروحي والفكري . وذلك راجع عندي الى اختلاط العلم والفكر عند محمد عبده وغيره من الانهزاميين. فالدين الإسلامي لا يُعادي العلم ، بل يحثُّ عليه ويُعْلي شأن العلم والعلماء في كثير من آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ . وقد وقف محمد عبده وغيره

من المسلمين موقفاً فيه انبهارٌ وتحيُّر إزاء تقدم العـلوم ورقي الصناعة في الغرب في القرن التاسع عشر والعشرين . ونظراً لتخلف المسلمين وانحطاطهم وتقدم الغرب الكافر مادياً فقد حسبوا أن كل ما عندهم شرٌّ ، وأن كل مـا عند الغربيين خير . ولم يُفـرّقوا بين العلم التجريبي والفكر . فالعـلم عامٌّ يأخذه المسلم من أية جهة دون تحفظ ، أما الفكر فهو خاص . وأفكار الغرب وحضارته ومقاييسه في الحياة هي غير أفكار الاسلام وحضارته ومقاييسه في الحياة . ولا يجوز المسلم أن يخضع مفهوم الآيات القرآنية لثقافة أو مذهب أو معلومات علمية يحملها مسبقاً . والله سبحانه لم يستشر عقول البشر عندمـا وضع أُصول العقيدة الاسلامية ونظام الاسلام .

وهذه النزعة العلمية طغت على اتجاه محمد عبده التفسيري ، ولنستمع اليه إذ يفسر قول الله تعالى : (ولا تقولوا لِمَنْ يُقْتَلُ في سبيل الله أمواتٌ بـل أحياءٌ ولكن لا تَشعرون) [1] : « وإذا كان من خواص الأثير النفوذ في الأجسام اللطيفة والكثيفة كما يقولون حتى أنه هو الذي ينقل النور مـن الشمس إلى طبقة الهواء ، فلا مانع أن تتعلق به الروح المطلقة في الآخرة ، ثم هو يحل بها جسماً آخر تنعم به وترزق سواء أكان جسم طير أو غيره ، وقد قال تعالى في آية أُخرى (أحياء عند ربهم يُرزقون) . وهذا القول يقرب معنى الآية من العلم » [2] .

فـفضلاً عن نزعة محمد عبده العلمية في تأويل هذه الآية يخوض في مبهم لا يجوز أن نبحث عنه . ويكفي الايمان بحياة هؤلاء الشهداء بعد قتلهم في سبيل الله بجوار ربهم . ولا نكلف أنفسنا البحث عن كيفية حياتهم ورزقهم . لأن الله سبحانه قادر على إحيائهم ورزقهم بطريقة لا نعرفها ، لأن ذلك مـن خصائص صنعة الله وارادته .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٤ .

(٢) تفسير المنار ، ٢ / ٣٩ .

وقد أدرك محمد رشيد رضا خطأ أستاذه في مثل هذا الاتجاه فتعقب على ذلك بقوله : « والمعتمد عند الاستاذ الامام في هذه الحياة هو أنها حياة غيبية تمتاز بها أرواح الشهداء على سائر أرواح الناس ، بها يرزقون وينعمون، ولكننا لا نعرف حقيقتها ولا حقيقة الرزق الذي يكون بها ، ولا نبحث عن ذلك لأنه من عالم الغيب الذي نؤمن به ونفوض الامر فيه الى الله تعالى » .

تأثره بالمعتزلة في تفسيره :

يأخذ المعتزلة بمبدأ التحسين والتقبيح العقليين ، أي أنهم يرون الحسن ما حسّنه العقل والقبيح ما قبحه العقل ، بخلاف أهل السنة الذين يرون أن الحسن ما حسّنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع . والمعتزلة كذلك لا يقولون بالسّحر ولا يعتقدون في السّحَرة ، ويُغرقون في الاستهزاء والسُّخرية بأهل السُّنّة القائلين بحقيقة السّحر. فالعقل عند المعتزلة خارج دائرة الشرع، وعند أهل السُّنّة داخل دائرة الشرع . والعقل له سلطان عظيم عند المعتزلة الى درجة أنهم يعتبرونه حُجّة على الناس أمام الله سبحانه قبل بعث الرسل عليهم السلام . ونظراً لأن المعتزلة رفعوا من شأن العقل فإنهم يحملون على التقليد والمقلدين ، لان التقليد في نظرهم يُنافي العقل .

ونحن الآن لسنا بصدد مناقشة أصول المعتزلة وبيان فسادها أو صحتها ، ولكننا نقول ان المعتزلة حاولوا التوفيق بين أفكار الاسلام وأفكار الثقافة اليونانية الوثنية ليقيموا مذهبهم المعروف ، فأخطأوا وبخاصة في قياس أفعال الله سبحانه على الانسان ، كقولهم ان الله يجب عليه أن يفعل الاصلح، ومثل انكارهم لبعض الاحاديث الصحيحة التي تعارض اصول مذهبهم . فجاء الشيخ محمد عبده ورفع سلطان العقل في فهم القرآن وفي التحسين والتقبيح متأثراً بالمعتزلة ، وانضم الى ذلك تأثر بمنهج ديكارت الذي يرى أن الشك هو وحده الذي يؤدي الى اليقين . وقد وصف الدكتور عثمان أمين هذا الاتجاه العقلي

عند الشيخ محمد عبده في التفسير ، يقول : « ها نحن أولاء نرى الاتجاه العقلي عند الشيخ محمد عبده وقد اتصلت به نزعات جوّانية ، فجعلت من تفسيره تبريراً للمبدأ القائل بأن « الدين المملوء بالخرافات ، والعقل المستنير لا يجتمعان في دماغ واحد » واذن فلا يمكن أن يحتوي القرآن على ما يستحيل عند العقل الصريح. ولكي لا يناقض الاسلام صريح العقل يلزم أن يكون هنالك تأويل صحيح لا يراعي الا الدليل العقلي أو الأحاديث الصحيحة ، لا الظنون الشخصية والميول الحزبية » [1] .

وفارق كبير بين عملية التوفيق بين أفكار الاسلام وأفكار الثقافة اليونانية الوثنية التي قام بها المعتزلة لتنزيه الله واثبات عدله والدفاع عن الاسلام وبين عملية محمد عبده في التوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية . فالعملية الاولى كانت في ظل دولة الاسلام وعلماء المسلمين الواعين المستنيرين . أما العملية الثانية فكانت في ظل الاستعمار البريطاني الكافر وفي وقت كان الكفر بأجمعه يحاول جاهداً القضاء على الخلافة الاسلامية في استانبول . ونحن نسوق الآن مواقف الشيخ محمد عبده التي تأثر فيها بالمعتزلة :

حملته على التقليد والمقلّدين:

ان الذي يُمعِنُ النظر في تفسير الشيخ محمد عبده يجده يحمل حملة شعواء على التقليد والمقلدين . والوقوف عند آراء الأئمة الأربعة (أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل) يسمى بالجمود ، وهو ما يطلق عليه لدى الشرعيين بالتقليد .

وقد بدأ عهد الجمود أو التقليد وقفل باب الاجتهاد منذ القرن السادس الهجري وذلك بعد ان انتابت المسلمين منذ منتصف القرن الرابع بعض من العوامل السياسية والاجتماعية كان لها أسوأ الأثر في نهضتهم ونشاطهم الفكري

---

(١) رائد الفكر المصري ، الامام محمد عبده ، ص ١٧٤ وما بعدها .

والفقهي . فوقفت حركة الاجتهاد واقتصر الفقهاء الا قلة قليلة منهم على تقليد أو اتباع الأئمة المجتهدين الكبار (أبي حنيفة ومالك وأقرانهما) ، كما كان على رجال القضاء الأخذ بآراء هؤلاء الأئمة ، ومن ذلك يُرى أنهم عالجوا الفوضى والفساد بالجمود لا بالتنظيم القويم . ويلاحظ أن المقلدين فريقان : (ا) فريق المتعصبين المتطرّفين (ب) وفريق المقلدين المعتدلين . أما الفريق الأول فقد كانوا ينظرون إلى أقوال إمامهم كما ينظرون الى النصوص ، أو بعبارة أُخرى أنهم ينظرون الى النصوص بعين مذهبهم ، فكانوا يعمدون الى تفسير آيات الأحكام بما يؤيد مذهب الإمام الذي يتبعونه ، أي أنهم كانوا لا يرجعون الى نص في القرآن أو في الحديث الا ليلتمسوا فيه ما يؤيد مذهب امامهم ولو أدى بهم ذلك الى سلوك طريق التعسف في التفسير . أما فريق المعتدلين فقد كانوا ينظرون الى أقوال امامهم نظرة الباحث النزيه ، ويقفون منها موقف الإنصاف ، ولا يُحجمون أحياناً عن عدم الأخذ ببعض تفصيلات المذهب الذي يتبعونه . وحين انتقلت الخلافة الى آل عثمان في تركيا كان علماء المسلمين مُسَيْطرين على زمام تعليم الامة الاسلامية فإذا بنا نجدهم لا يسمحون للأفكار الجديدة أن تقترب من ذلك التعليم ، فأدّى ذلك بالجمود الى أن يسود ، الامر الذي أدى بالمعاهد الاسلامية في القرن التاسع عشر الى أن تظل على الحال التي كانت عليها في القرن الثالث عشر [1] .

واذا كانت حملة المعتزلة على التقليد والمقلدين تنصبُّ على العقائد فإن الشيخ محمد عبده وسع هذه الدائرة فجعل حملته تنصبُّ على التقليد والجمود عند أقوال الائمة المجتهدين الكبار أو ما يسمى علم الفروع .

ولذلك نجد الشيخ محمد عبده لا يكاد يدع فرصة تواتيه في أثناء التفسير من غير أن يعلن النكير على التقليد والمقلدين على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى :

---

(١) انظر ازمة الفكر السياسي الاسلامي في العصر الحديث ، ص ٣٥ – ٣٧ .

(وما بعضهم بتابع قبلة بعض) [1] : « لان كلا منهم قد جمد بالتقليد على ما هو عليه ، والمقلد لا ينظر في آية ولا دليل ، ولا في فائدة ما هو فيه والمقارنة بينه وبين غيره ، فهو أعمى لا يبصر ، أصمّ لا يسمع ، أغلف القلب لا يعقل » [2] .

ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (واذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا أوَ لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) [3] : « وقال الجلال وغيره : لا يعقلون شيئاً من أمر الدين . وتعقبه الاستاذ الامام بقوله : عقلُ الشيء معرفته بدلائله ، وفهمه بأسبابه ونتائجه . وأقرب الناس الى معرفة الحق الباحثون الذين ينظرون في الدلائل بقصد صحيح ولو في غير الحق . لان الباحث المستدل اذا أخطأ يوماً في طريق الاستدلال أو في موضوع البحث فقد يُصيب في يوم آخر ، لان عقله يتعود الفكر الصحيح ، واستعادة المطالب من الدلائل . وأبعد الناس عن معرفة الحق المقلدون الذين لا يبحثون ولا يستدلون، لانهم قطعوا على أنفسهم طريق العلم ، وسجلوا على عقولهم الحرمان من الفهم ، فهم لا يُوصَفُون بإصابة لان المصيب هو من يعرف أن هذا هو الحق ، انما يعرف ان فلاناً يقول ان هذا هو الحق ، فهو عارف بالقول فقط ، ولذلك ضرب لهم المثل في الآية الآتية بعدما سجل عليهم الضلالة بعدم استعمال عقولهم » [4] .

ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (ومَثَلُ الذين كفروا كمَثَلِ الذي ينعِقُ بما لا يسمع الا دُعاءً ونداءً صمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلون) [5] : « والآية صريحة في أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٥ ،
(٢) تفسير المنار ، ٢ / ١٧ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٧٠ .
(٤) تفسير المنار ، ٢ / ٩٢ .
(٥) سورة البقرة ، الآية ١٧١ .

الكافرين ، وأن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه ، وعرفه بنفسه حتى أقتنع به ، فمن ربي على التسليم بغير عقل ، والعمل – ولو صالحاً – بغير فقه ، فهو غير مؤمن ، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقي عقله وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه ، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته في دينه ودنياه ، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل في اعتقاده ، فلا يأخذ بالتسليم لأجل آبائه وأجداده ، ولذلك وصف الله الكافرين بعد تقرير المثل بأنهم (صُمٌّ) لا يسمعون الحق سماع تدبر وفهم (بُكْمٌ) لا ينطقون به عن اعتقاد وعِلْم (عُمْيٌ) لا ينظرون في آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق حتى تبين لهم أنه الحق (فهم لا يعقلون) مبدأ ما هم فيه ولا غايته كما يطلب من الإنسان ، وإنما ينقادون لغيرهم كما هو شأن الحيوان ، ولذلك اتبعوا من لا يعقلون ولا يهتدون . فالعاقل لا يقلد عاقلاً مثله ، فأجدر به ألا يقلد جاهلاً ضالاً هو دونه »[1] .

وكان الشيخ محمد عبده يلح إلحاحاً شديداً على فتح باب الأجتهاد ، ويرى أن قفل باب الأجتهاد لا مسوغ له فضلاً عن أنه منافٍ لمبادىء الشريعة الإسلامية . والذي يسمع كلام محمد عبده في فتح باب الأجتهاد لا يسعه إلا أن يدعمه ويؤيده لأول وهلة .

والاجتهاد في اصطلاح الأصوليين : بذل الفقيه جهده في استنباط الحكم الشرعي من دليله على وجه يحسُّ فيه العجز عن المزيد . والدليل على اعتباره الكتاب والسنة والعقل . فكان ﷺ يجتهد ، ويأمر أصحابه بالاجتهاد .

وللمجتهد صفات أو شروط ثلاثة يجب أن تجتمع فيه ، فضلاً عن كمال العقل والدين ، وهي :

---

(١) تفسير المنار : ٢/٩٤ وما بعدها .

١ ـ العلم باللغة وطرق دلالتها على المعاني . ولا يمكن ذلك إلا لمن زاول علومها المختلفة .

٢ ـ العلم بالقرآن والسنة وما جاء فيها من احكام، ولا يشترط في ذلك أن يكون حافظاً لكل ما ورد ، بل يكفي أن يكون قادراً على جمع ما يرتبط بموضوع بحثه منها ، وعلى معرفة ما قاله المختصون في الحديث من صحة أو ضعف ، وما قالوه في رجاله من جرح أو تعديل .

٣ ـ العلم بمقاصد الشرع ، وأحوال الناس وما جرى عليه عُرفهم وما فيه صلاح لهم أو فساد ، والقدرة على معرفة علل الأحكام وقياس الأشباه على الأشباه ، ليستطيع فهم الوقائع ، واستنباط الأحكام الملائمة لمقاصد الشارع ، والمحققة لمصالح العباد المعتبرة [١] .

والاجتهاد هو الأصل الثالث بعد الكتاب والسنة ، فمجاله إذن هو ما لم يُنص على حكمه في واحد منها ، وهو أوسع المجالات . وكل ما عُلم من الدين بالضرورة ليس مجالاً للإجتهاد ، فلا يكون مجالاً للأختلاف ، والحق فيه واحد غير متعدد . أما ما كان مجالاً للأجتهاد فهو مجالٌ لاختلاف المجتهدين بسبب اختلاف الفطر والأنظار . ومن المعروف أن الأئمة الأربعة الكبار كانوا يستنكرون التقليد أو التعصب لمذاهبهم مما يؤدي إلى الجمود .

ومحمد عبده كان يرى أن فتح باب الأجتهاد هو الوسيلة العملية للملاءمة بين أحداث الحياة المتجددة وبين تعاليم الإسلام ، وأن القرآن يستطيع أن يساير حركة التطور. ومن الضروري ذكره في مثل هذا المقام أن بلاد المسلمين كانت تحكم في الوقت الذي ألح محمد عبده على فتح باب الاجتهاد ، كانت تحكم بالنظام الرأسمالي الكافر ، ولا تزال حتى الآن تحكم به ما عدا الافغان والمملكة العربية السعودية ، فإنها تحكمان بالإسلام اكثر من غيرهما من بلاد الإسلام .

---

(١) انظر أصول التشريع الإسلامي . ص ٧٤ وما بعدها .

والحياة التي كان يحياها المسلمون في عصر محمد عبده ليست من صنع الإسلام ، بل هي حياة من صنع الأنظمة الرأسمالية الكافرة .

ودولة الخلافة في استانبول كانت قد أحدثت دستوراً اقتُبِس من الدساتير الغربية، والكفار يتربصون بدولة الخلافة للقضاء عليها . ومصر بالذات وقعت بعد حركة عُرابي تحت قبضة الاحتلال البريطاني منذ سنة ١٨٨٢ م .

ونريد الآن طرح هذه الأسئلة :

١ — ما قيمة فتح باب الاجتهاد في الوقت الذي كانت مصر تحكم بنظام الغرب الرأسمالي الكافر الذي يختلف عن الإسلام في قاعدته الفكرية وأنظمته؟

٢ — من الذي يتبنَّى الأحكام الشرعية التي يستنبطها المجتهدون من الأدلة التفصيلية وأعني بها الكتاب والسنة والإجماع والقياس ؟ أهو اللورد كرومر الكافر ممثل الاحتلال البريطاني في مصر ، أم المحفل الماسوني (كوكب الشرق) الذي انضم إليه محمد عبده ؟ ومن المعروف أن الخليفة وحده هو الذي يتبنى الأحكام الشرعية ، أو كما يقولون : الإمام يرفع الخلاف .

٣ — هل يجوز الاجتهاد في مورد النص ، والشيخ محمد عبده أفتى لأهل الهند من المسلمين بالعمل بالقوانين الإنجليزية ، وهي قوانين كفر . وعدّ ذلك رُخصة ، مع العلم بأن نصوص الكتاب والسنة القولية والفعلية وإجماع الصحابة وجميع فقهاء الإسلام تؤكد على ضرورة الحكم بما أنزل الله ؟

٤ — هل تجتمع في الشيخ محمد عبده شروط المجتهد ؟

والحق يقال إن محمد عبده لم يلح على فتح باب الاجتهاد لمصلحة الإسلام والمسلمين ، أي ليستنبط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية ويأمر المسلمين بالعمل بها ، بل ليستطيع التوفيق ما أمكنه بين الإسلام وبين الحضارة الغربية، أو ليلائم بين أحداث الحياة المتجددة التي هي ليست من صنع أحكام الإسلام ومقاييسه في الحياة وبين تعاليم الإسلام ، وذلك ليزيل الجفوة المتأصلة عند

المسلمين والعداء الدفين لكل ما هو من الغرب الصليبي . ومن هنا نستطيع أن نقول ان إلحاح محمد عبده على فتح باب الاجتهاد ومحاربة التقليد كانت كلمة حق يراد بها باطل .

إنكاره السحر :

أعطى محمد عبده نفسه حرية واسعة في فهم القرآن الكريم . وخالف أقوال أهل السنة ، وتابع المعتزلة في قولهم إن السحر لا حقيقة له ، وذلك على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (ومن شر النفاثات في العقد [1] : « والنفاثة من صيغ المبالغة كالعلامة والفهامة يستعمل للذكر والانثى . والنفاثات جمعه . والمراد بهم هنا النامون المقطعون لراوبط الألفة المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم . وإنما جاءت العبارة كما في الآية لأن الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه مثلا - مثلا - فيما يوهمون به العامة ، عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلوها ، ليكون ذلك حلا للعقدة التي بين الزوجين . والنميمة تشبه أن تكون ضرباً من السحر لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة ، بوسيلة خفية كاذبة ، والنميمة تضلل وجدان الصديقين ، كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته ، ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق إذا وقب » [2] .

انكاره بعض الأحاديث الصحيحة :

ويتابع الشيخ كلامه متأثراً بالمعتزلة فيرفض ما جاء من الروايات في سحر الرسول ﷺ على شاكلة قوله : « وقد رووا ها هنا أحاديث في أن

---

(١) سورة الفلق ، الآية ٤ .

(٢) تفسير جزء عم : ص ١٨١ .

النبي ﷺ سحره لبيد بن الأعصم وأثر سحره فيه حتى كان يخيل له أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله ، او يأتي شيئاً وهو لا يأتيه ، وأن الله أنبأه بذلك ، وأخرجت مواد السحر من بئر ، وعوفي ﷺ مما كان نزل به من ذلك ، ونزلت هذه السورة .

ولا يخفي أن تأثير السحر في نفسه عليه السلام حتى يصل به الأمر إلى أن يظن أنه يفعل شيئاً وهو لا يفعله ، ليس من قبيل تأثير الأمراض في الأبدان ولا من قبيل عروض السهو والنسيان في بعض الأمور العادية ، بل هو ماس بالعقل ، آخذ بالروح ، وهو مما يصدق قول المشركين فيه : (ان تتبعون إلا رجلا مسحوراً) . وليس المسحور عندهم إلا من خولط في عقله وخيل له أن شيئاً يقع وهو لا يقع ، فيخيل اليه أنه يوحى اليه ، ولا يوحى اليه ، وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هي النبوة ولا ما يجب لها : إن الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفة قد صح فيلزم الاعتقاد به ، وعدم التصديق به من بدع المبتدعين ، لأنه ضرب من إنكار السحر ، وقد جاء القرآن بصحة السحر . فأنظر كيف ينقلب الدين الصحيح ، والحق الصريح في نظر المقلد بدعة ، ونعوذ بالله ... يحتج بالقرآن على ثبوت السحر ، ويعرض عن القرآن في نفيه السحر عنه ﷺ ، وعده من افتراء المشركين عليه ، ويؤول في هذه ولا يؤول في تلك ، مع أن الذي قصده المشركون ظاهر ، لأنهم كانوا يقولون : إن الشيطان يلابسه عليه السلام ، وملابسة الشيطان تُعرف بالسحر عندهم ، وضرب من ضروبه ، وهو بعينه أثر السحر الذي نُسب إلى لبيد ، فإنه خولط في عقله وإدراكه في زعمهم . والذي يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به ، وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم ﷺ ، فهو الذي يجب الاعتقاد بما يثبته ، وعدم الاعتقاد بما ينفيه . وقد جاء بنفي السحر عنه عليه السلام ، حيث نسب القول بإثبات حصول السحر له إلى المشركين أعدائه ، ووبخهم على زعمهم هذا ، فإذن هو ليس بمسحور قطعاً .

وأمـا الحديث فعلى فرض صحته ، هو آحاد ، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد ، وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيـــدة من العقائد ، لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون. على أن الحديث الذي يصل إلينا من طريق الآحاد، إنما يحصل الظن عند من صح عنده ، أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح ، فلا تقوم بـــه عليه ُحجّــــة .

وعلى أية حال ، فلنا بل علينا أن نفوض الأمر في الحديث ، ولا نحكمه في عقيدتنا، ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل ، فإنه إذا خولط النبي ﷺ في عقله كما زعموا ، جاز عليه أن يظن أنه بلّغ شيئاً وهو لم يبلّغه ، أو أن شيئاً نزل عليه وهو لم ينزل عليه . والأمر ظاهرٌ لا يحتاج إلى بيان ثم إن نفي السحر عنه لا يستلزم نفي السحر مطلقاً . فربما جاز أن يصيب السحر غيره با لجنون نفسه ، ولكن من المحال أن يصيبه ، لأن الله عصمه منه . ما أضر الحبُّ الجاهل وما أشد خطره على من يظن أنه يحبه، نعوذ بالله من الخذلان . على أن نافي السحر بالمرة لا يجوز أن ُيعَدّ ُمبتدعاً ، لأن الله تعالى ذكر ما يعتقد به المؤمنون في قوله (آمن الرسول ... الآية) ، وفي غيرها من الآيات وردت الأوامر بما يجب على المسلم أن يؤمن به حتى يكون مسلماً، ولم يأت في شيء من ذلك ذكر السحر على أنه مما يجب الإيمان بثبوتـــه أو وقوعه على الوجه الذي يعتقد بـه الوثنيون في كل ملة ، بل الذي َورَدَ في الصحيح هو أن تعلُّم السحر كفرٌ . فقد طلب منا ألا ننظر بالمرة فيما يعرف عند الناس بالسحر ويسمى باسمه . وجاء ذكر السحر في القرآن في مواضع مختلفة . وليس من الواجب أن نفهم منه ما يفهم هؤلاء العميان » [1] .

وإنني أوافق الأستاذ محمد حسين الذهبي على ما ذهب إليه فيهذه المسألة

---

(٢) تفسير جزء عم: ١٨١ — ١٨٣ .

إذ يقول : « وهذا الحديث الذي يرده الأستاذ الإمام رواه البخاري وغيره من أصحاب الكتب الصحيحة . وليس من وراء صحته ما يُخل بمقام النبوة ، فإن السحر الذي أصيب به النبي عليه الصلاة والسلام كان من قبيل الأمراض التي تعرض للبدن بدون أن تؤثر على شيء من العقل ، وقد قالو إن ما فعله لبيد بن الأعصم بالنبي ﷺ من السحر لا يعدو أن يكون نوعاً من أنواع العقد عن النساء ، وهو الذي يسمونه « رباطاً » ، فكان يخيل اليه أن عنده قدرة على إتيان إحدى نسائه ، فإذا ما هم بحاجته عجز عن ذلك . أما السحر الذي نفي عنه ﷺ فمراد به الجنون ، وهو مخل ، ولا شك بمقام النبوة ، وقد قالوا : (يأيها الذي نُزّل عليه الذكر إنك لمجنون) .

ثم إن الحديث رواية البخاري وغيره من اصحاب الصحيح ، ولكن الأستاذ الإمام ومن على طريقته لا يفرقون بين رواية البخاري وغيره، فلا مانع عندهم من عدم صحة ما يرويه البخاري ، كما أنه لو صح في نظرهم فهو لا يعدو أن يكون خبر آحاد لا يثبت به إلا الظن ، وهذا في نظرنا هدم للجانب الأكبر من السنة التي هي بالنسبة للكتاب في منزلة المبيّن من المبيّن ، وقد قالوا إن البيان يلتحق بالمبيّن . وليس هذا الحديث وحده هو الذي يضعّفه الشيخ ، أو يتخلص منه بأنه رواية آحاد ، بل هناك كثرة من الأحاديث نالها هذا الحكم القاسي ، فمن ذلك أيضاً حديث الشيخين (كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها) فإنه قال فيه : « إذا صح الحديث فهو من قبيل التمثيل لا من باب الحقيقة » . فهو لا يثق بصحة الحديث رغم رواية الشيخين له ، ثم يتلخص من إرادة الحقيقة على فرض الصحة ، بجعل الحديث من باب التمثيل ، وهو ركون إلى مذهب المعتزلة الذين يرون أن الشيطان لا تسلط له على الإنسان إلا بالوسوسة والاغواء فقط »[1] .

---

(١) التفسير والمفسرون : ٣ / ٢٤٠ وما بعدها .

وها هو ذا الشيخ محمد رشيد رضا تلميذ محمد عبده ومترجم أفكاره وآرائه لا يوافق أُستاذه على ما ذهب اليه في جعل الحديث ماساً بالعقل ومخلا بالتالي بمقام النبوة ، ويعده صريحاً في أن المراد من السحر فيه خاص بمسألة مباشرة النساء على شاكلة قوله : « فهذا الحديث صريح في ان المراد من السحر فيه خاص بمسألة مباشرة النساء . ولكن فهمَ أكثر العلماء أنه ﷺ سحر سحراً أثر في عقله كما أَثر في جسده، فأنكره بعضهم وبالغوا في إنكاره وعدوه مطعناً في النبوة ومنافياً للعصمة لقول عائشة : حتى أنه كان يخيل اليه أنه فعل الشيء ولم يكن فعله . فعظمت هذه الرواية على علماء المعقول وعدوها مخالفة للقطعي في النقل وهو ماحكاه الله تعالى عن المشركين من طعنهم فيه كعادة أمثالهم في رسلهم بقولهم (إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً) وتفنيده تعـــالى لهم بقوله (أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) ، ومخالفة للقطعي في العقل من عصمة النبي ﷺ من كل ما ينافي النبوة والثقة بها، اذ يدخل في ذلك التخييل ما هو من التشريع، ومخالفة لعلم النفس الذي يعلم منه أن الأنفس السافلة الخبيثة لا تؤثر في الأنفس العالية الطاهرة . فأنكر صحة الرواية بعض العلماء ، وأقدم من عرفنا ذلك عنهم من المفسرين الفقهاء أبو بكر الجصاص الحنفي المعتزلي في كتابه «أحكام القرآن » ، وآخرهم شيخنا الأستاذ الإمام في تفسيره « جزء عمّ » . وقد أطال شيخنا في هذا وبالغ فيه. وبنى إنكاره على القاعدة المتفق عليها عند علماء العقائد وأصول الفقه في معارضة الظنيّ للقطعيّ ، إذ الحديث آحادي ، وهو يفيد الظن فيردّ بالقطعي عقلا ونقلا وهو ما ذكرناه آنفاً .

وقد اتفقوا على أن أحاديث الآحاد لا يُحتجّ بها في أصول العقائد ، وقال: إن كونه يفيد الظن خاص بمن صح عنده وإن له أن يتأوّله أو يفوّض الأمر فيه على قاعدتهم الأخرى في النصوص المعارضة للعقل . ولعمري إن ما نعرفه عن شيخنا محمد عبده — قدس الله روحه — من إجلاله وإكباره لشأن محمد

رسول الله وخاتم النبيين في نفسه الزكية ، وروحه القدسية ، وعلو مداركه العقلية ، مما لم نعرف مثله عن أحد من العلماء العقليين كفلاسفة المسلمين ومتكلميهم ، ولا من العلماء الروحيين كالصوفية ، ولا من علماء النقل كجامعي الروايات الكثيرة في معجزاته ﷺ ، وحسبك منها تلك الآثار البليغة في رسالة التوحيد ، بل كان يقول إن روحه ﷺ كانت منطوية على جملة هداية الدين ومدارك التشريع التي فصلت في كتاب الله تعالى وسنته تفصيلاً تاماً كما نقلناه عنه في تاريخه .

وأجاب عن الرواية المحدّثون المصححون لها علماً والمقلدون لهم بأن غاية ما تدل عليه أن ذلك السحر إنما أثّر في بدنه دون روحه وعقله ، فكان تأثيره من الأعراض الجسدية كالأمراض التي لم يُعصم الأنبياء عليهم السلام منها [1] » .

فأنت ترى أن الشيخ محمد رشيد رضا ينقد أستاذه محمد عبده لإنكاره الحديث الصحيح ومبالغته في الإطالة في إنكار صحة الحديث بدون مسوّغ لذلك. ومع ذلك فانه يدافع عن شيخه ويستر انحرافه بحجة إجلاله وإكباره لشأن محمد رسول الله وخاتم النبيين . وهذا الدفاع ساقط في نظر أهل التقوى والورع وأتباع الحق . إذ كيف يجلُّ محمد عبده ويُكبر شأن محمد ﷺ وينكر أحاديث رواها الشيخان البخاري ومسلم رضي الله عنهما ؟ ومن المعروف أن صحيح البخاري ومسلم هما أصح كتب الحديث إطلاقاً بإجماع الجمهور .

ويلاحظ الباحث أن محمد عبده دأب على إزالة الهيبة عن أحاديث رسول الله ﷺ التي ثبتت صحتها إذا لم توافق هواه ومنحاه العقلي الغالب عليه في تفسيره وفتاواه . ورأينا كيف أنه ألح إلحاحاً شديداً على فتح باب الاجتهاد على مصراعيه في صورة تقلل من الجهد الذي بذله الأئمة الأربعة المجتهدون

---

(١) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ، ص ١٣٠ - ١٣٢

الكبار رضي الله عنهم بحجة محاربته للتقليد والمقلدين .

وأما المفسرون الأسلاف رضي الله عنهم فقد أصابهم من لاذع قوله واستخفافه بجهودهم واجتهادهم في توضيح وشرح كتاب الله ما أصابهم ، ومن الأمثلة على ذلك أنه لما أبدى رأياً طريفاً في تفسير بعض الآيات قال له أحد المجاورين : إن ما قلته لا يوافق عليه الجَمل – يعني بالجمل أحد المؤلفين ممن كتبوا الحواشي على تفسير الجلالين – فقال محمد عبده على الفور : إنني أقرّر ما يدل عليه المعنى الجليل ، والكلام البليغ ، ولا يعنيني أوافقَ عليه الجمل أو الحمار [1] .

من هذا النص نلاحظ قسوته على المفسرين السابقين بالكلام اللاذع . وكان من الواجب ألا يتفوّه بمثل هذا القول ولكنها نزعة عدم التوقير للأقدمين . ولكل مجتهد نصيب .

وأما شيوخ الأزهر فقد شنّع عليهم وآذاهم وطعن فيهم [2] ، وقد قاد حملة تنقّب عن أسوأ ما في الأزهر وما في كتبه لتعرضه على الناس . وقديماً قالوا (من فتش عن عيب وجده) .

ولا جدال في أن الاعتماد على العقل وحده عند محمد عبده في فهم كتاب الله هو الذي أوقعه في هذه الأخطاء الشنيعة . فلو نظرنا الى كتاب الله لوجدنا أن العبادات وبعض الأحكام الشرعية مثلاً لا يمكن أن يخوض فيها العقل أو يوجد لها علة . فالصلاة مثلاً أمر تعبّدي لا يُعقل معناه وقس عليها. والعقل في نظر الإسلام يكون ويعمل في دائرة الشرع وليس في خارج هذه الدائرة كما فعل محمد عبده ومن سبقه من المعتزلة .

وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الشرع أوجب التعفف أي غضّ البصر

---

(١) انظر التفسير والمفسرون ، ٣/٥٢٢

(٢) انظر مثلا كتاب تفسير الفاتحة ، ص ٤٤ وما بعدها ،

بالنسبة إلى الحرة الشوهاء شعرها وبشرتها مع أن الطبع لا يميل إليها ، ولم يوجب غض البصر بالنسبة إلى الأمة الحسناء التي يميل إليها الطبع ، وأيضاً فقد أوجب الله تعالى القطع في سرقة القليل دون غصب الكثير ، وأوجب الجلد على القاذف بالزنا بخلاف القاذف في غير الزنا مع أنه قد يكون أفظع منه كالقذف بالكفر ، وشرط في شهادة الزنا أربعة رجال واكتفى بشهادة القتل باثنين مع أن القتل أغلظ من الزنا ، وأوجب الزكاة في الذهب والفضة ولم يشرعها في الماس والياقوت وغيرهما من المعادن النفيسة ، وأحل البيع وحرم الربا مع أن كلا منهما بيع وهما متماثلان ، وشرط في شهادة الرجعة أن يكون الشاهد مسلماً وأجاز في الوصية أن يكون الشاهد كافراً ، ونهى عن تقديس الأحجار وأمر بتقبيل الحجر الأسود ، وغير ذلك كثير . فلو جُعل للعقل أن يفهم من مجموع الشرع علة ، أو يفهم من ظاهر النص علةً ، أو يفهم من مجرد التماثل بين حكمين وجود القياس بينهما لحرم كثيراً مما أباحه الله وأحل كثيراً مما حرمه الله .

ويتحدث الدكتور عبد الحليم محمود عن الذين نهجوا النهج العقلي في الدين في الماضي والحاضر ، يقول : « أما الطائفة الثالثة التي لم تسجد لله إلا شكلاً فإنها طائفة المعتزلة من علماء الكلام : إنهم لم يسجدوا لله سجود خضوع وإذعان ، ومذهبهم قائم على تحكيم العقل في الدين ، ووصل بهم الأمر إلى أنهم يوجبون على الله بعض الأعمال ، سبحانه وتعالى ، ويحرمون عليه إتيان بعضها سبحانه وتعالى ، فوضعوا أنفسهم بعملهم هذا موضع المشرعين لله ، سبحانه ، يُلزمونه سلباً ويلزمونه إيجاباً ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، وصدق فيهم قول الله تعالى : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون) .
وكل من نهج النهج العقلي في الدين ، في العصر الحاضر ، إنما هو تابع من أتباع المعتزلة ، ولا مناص من الإقرار بأن مدرسة الشيخ محمد عبده ، انما

هي مدرسة اعتزالية في مبادئها وأصولها ، وهي مدرسة اعتزالية في غاياتها وأهدافها ، ذلك أنها تضع قضايا الدين .... فى ميزان عقلها ، فتنفي وتثبت ، حسبما تقتضيه الأهواء والنزعات .

والمدرسة العقلية في الدين ، أيا كانت وفي أي مكان وجدت ، وفي أي زمان نشأت لم تسجد لله سجود خضوع وإذعان ، وانما سجدت للعقل ، وعبدت العقل فتفرقت الى ما لا يكاد يحصى من الفرق (ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نُولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً). وسبيل المؤمنين ، انما هو السجود لله وحده ، وذلك ايضاً سبيل الراسخين في العلم ، اذ الراسخون في العلم ، هم دائماً مؤمنون ساجدون لأمر الله ، واليهم تشير الآية الكريمة : (أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الألباب)[1] .

والدكتور سليمان دنيا ينتقد محمد عبده ويصفه بأنه قد عول على العقل تعويلا يجعله في عداد المفكرين الاحرار ، وكان يرى أن العقل كفيل بحل المشاكل[2] .

ويقول الدكتور سليمان دنيا: « إن الذي لا شك فيه عندي أن الشيخ محمد عبده ، قد تحيف من حق النصوص ، وبالغ في تقدير قيمة العقل ، والكتاب كله شواهد على هذا الذي أذهب إليه »[3] .

موقفه من حقيقة الملائكة وابليس :

ولأن الشيخ محمد عبده يعتمد على عقله في فهم كثير من آيات القرآن التي

---

(١) الاسلام والعقل : ص ٣١ - ٣٣ .

(٢) انظر الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : ج ١ / ص ٩ .

(٣) المرجع السابق : ٢٦/١ .

لا يجوز للعقل أن يخوض فيها ألبته كالمغيبات مثلاً ، فإنا نجده يؤول قصة الملائكة وإبليس تأويلا بعيداً مردوداً ومتأثراً بالغزالي في التعبير عن معنى بعينه . وغرضه من هـذا التأويل الذي أرتآه وعبر عنه بالايماء والاشارة إقناع منكري الملائكة من معاصريه بوجودهم بتعبير مألوف عندهم تقبله عقولهم ، فجعل الملائكة قوىً لا تعقل مخالفاً منطوق الآيات ومفهومها وما فهمه المسلمون من أن الملائكة عباد الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهذا لا يتأتى إلا إذا عقلوا وأدركوا بطريقة لا نعرفها نحن على شاكلة قوله في تأويل قوله تعالى :(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى وأستكبر وكان من الكافرين)[1] :

وذهب بعض المفسرين مذهباً آخر في فهم معنى الملائكة ، وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة ، من كونهم موكلين بالأعمال ، من إنماء نبات ، وخلقة حيوان ، وحفظ إنسان ، وغير ذلك ، فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة ، وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن إلا بروح خاص ، نفخه الله في البذرة فكانت بـه هذه الحياة النباتية المخصوصة ، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان، فكل أمرٍ كلي قائمٌ بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده ، فإنما قوامه بروح إلهي ُسمي في لسان الشرع ملكاً، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يُسَمّ هذه المعاني القوى الطبيعية ، إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة ، أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة .

والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن في باطن الخلقة أمراً هو مناطها، وبه قوامها ونظامها ، لا يمكن العاقل أن ينكره ، وإن أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكاً وزعمَ أنه لا دليل على وجود الملائكة، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعيه أو ناموساً طبيعياً لأن هذه الأسماء لم ترد

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٤ .

في الشرع . فالحقيقة واحدة ، والعاقل من لا تحجبه الاسماء عن المسميات ، وإن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً لا يدرك كنهه ، والذي لا يؤمن بالغيب يقول : لا أعرف الروح ، ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها ، ولا يعلم إلا الله علام يختلف الناس؟ وكل يقر بوجود شيء غير ما يرى ويحس، ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ، ولا يصل بعقله إلى إدراك كنهه ، وماذا على هذا الذي يزعم أنه لا يؤمن بالغيب – وقد أعترف بما غُيبَ عنه – لو قال : أصدق بغيب أعرف أثره ، وإن كنت لا أقدره قدره ، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ، ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحي ، ويحظى بما يحظى به المؤمنون ؟

يشعر كل من فكر في نفسه ، ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن في نفسه تنازعاً ، كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى ، فهذا يورد وذاك يدفع ، واحد يقول : افعل ، وآخر يقول : لا تفعل ، حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين ، فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ونسميه قوة وفكراً ، وهو في الحقيقة معنى لا يدرك كنهه ، وروح لا تُكتنه حقيقتها ، لا يبعد أن يسميه الله ملكاً ، أو يسمي أسبابه ملائكة ، أو ما شاء من الأسماء ، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس ، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة ، والسلطان النافذ ، والعلم الواسع . فإذا صح الجري على هذا التفسير ،فلا يستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها ، وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حُدد له من الأثر الذي خص به ، خلق بعد ذلك الإنسان ، وأعطاه قوة يكون بها مستعداً للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الارض ، وعبّر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير ، وجعله بهذا الاستعداد

الذي لا حد له، والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في أرضه، لأنه أكمل الموجودات في هذه الارض ، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبّر عنها بإبليس ، وهي القوة التي لزّها الله بهذا العالم لزاً ، وهي التي تميل بالمستعد للكمال ، أو بالكامل الى النقص ، وتعارض مدّ الوجود لتردّه الى العدم ، أو تقطع سبيل البقاء ، وتعود بالموجود الى الفناء ، أو التي تعارض في اتباع الحق وتصدّ عن الخير ، وتنازع الإنسان في صرف قواه الى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته ، فيصل الى مراتب الكمال الوجودي التي خُلق مستعداً للوصول اليها ، تلك القوة التي ضللت آثارها قوماً فزعموا أن في العالم إلهاً يسمى إله الشر ، وما هي بإله ، ولكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكمته إلا هو . ولو أن نفساً مالت الى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك . والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس الى ما أبصرت من الحق »[1] .

أرأيت كيف يجنح محمد عبده جنوحاً واضحاً الى التمثيل والتخييل في قصة الملائكة وإبليس ؟ وقد صرف الألفاظ عن ظاهرها بغير قرينة تدعو الى ذلك . وهو وإن كان متأثراً بالمعتزلة الذين يجنحون الى التمثيل والتخييل في كل جملة قرآنية تعارض مذهبهم إلا أنه فاقهم في المسلك وجاوزهم بحجة إقناع منكري الملائكة بوجودهم على نحو يبدو فيه متأثراً أيضاً بالغزالي واشارات الصوفية وتأويلات الباطنية .

والإيمان بالملائكة جزء من الإيمان في شريعة الاسلام . والملائكة من المغيّبات ، مثل الجنة والنار . وهذه المغيبات يؤمن بها المسلم إيمان تسليم وإذعان وتصديق . وإنكارها يؤدي الى الكفر والعياذ بالله . واذا أوّلها المسلم على نحو يؤدي الى إنكارها فقد كفر .

---

(١) تفسير المنار ، ١/٢٦٧ – ٢٦٩ .

والأساس هو الإيمان بالله الواجب الوجود عن طريق العقـــل . وعندما يؤمن الإنسان بالله الواجب الوجود الذي خلق الكون والإنسان والحياة ونظمها وأبدعها ، فلا يمكن بأية حال أن يترك الناس هملاً بدون تنظيم ، ومن هنا كانت الكتب السماوية من عند الله سبحانه وينزل بها جبريل عليه السلام على الأنبياء عليهم السلام .

والقرآن الذي بين أيدينا نزل على محمد ﷺ خاتم الأنبيـــاء والمرسلين . فهو إما أن يكون من عند الله سبحانه أو من عند محمـــد عليه السلام أو من عند العرب . والقرآن تحـــدّى العرب بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا وتطامنت كبرياؤهم وسلّموا بالعجز . ومحمـــد عليه السلام له الحديث ، وهو يختلف عن أسلوب القرآن ، ويعرف ذلك كلٌّ من له أدنى فهم بمعرفة الفصاحة والبلاغة . فلو كان القرآن من عنده لكان الحديث على أسلوب القرآن . إذن فالقرآن الكريم ليس من عنـــد العرب ولا من عند محمـــد ﷺ ، وهو من الله سبحانه وتعـــالى نزل بلسان عربي مبين . والقرآن الكريم ، كتاب الإسلام هو الذي عرّفنا ما الإيمان ؛ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى .

إذن فمـــا قيمة أن يتعسف الشيخ محمد عبده ويميل إلى التمثيل في قصة الملائكة وإبليس على النحو الذي رأينا ليقنع منكري الملائكة بوجودهم ؟ ! فمنكر الملائكة كافر. والكافر لا يؤمن بالملائكة إلا إذا آمن بالخالق الواجب الوجـود ، وهذا هو الأساس . ومن هنا يتبين لنا تخبط الشيخ وسوء مسلكه وانهزامه الروحي والفكري .

ويقول الشيخ محمـــد عبده في موضع آخر إلى تقرير التمثيل والتخييل في القصة ، يقول : « وتقرير التمثيل في القصة على هذا المذهب هكذا : أن إخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه ، التي بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات

يتصرف فيها ، فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض ، وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يُفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره ، ويعطي أستعداداً في العلم والعمل لا حدّ لهما ، هو تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك ، وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الارض . وتعليم آدم الأسماء كلها بيانٌ لاستعداد الإنسان ليعلم كل شيء في هذه الأرض ، وانتفاعه به في استعمارها . وعرض الأسماء على الملائكة ، وسؤالهم عنها ، وتنصلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدوداً لا يتعدى وظيفته . وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها في ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك . وإباءُ إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر ، وإبطال داعية خواطر السوء التي هي مثارُ التنازع والتخاصُم والتعدي والإفساد في الأرض ، ولولا ذلك لجاءَ على الإنسان زمنٌ يكون فيه أفراده كالملائكة بل أعظم ،أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشري »[1] .

وهذا التأويل الذي جَوزه محمد عبده تأويل بعيدٌ مردود . وفيه صرف الحقيقة إلى المجاز والتمثيل من غير قرينة تدعو إلى ذلك . ولو حكمنا هذه النزعة على فهمنا لمراد الله تعالى في القرآن الكريم لصُرفت الأحكام الشرعية إلى التمثيل الذي يؤدي إلى تعطيل الشريعة الاسلامية . والملاحظ أن محمد عبده بذل الجهد الكبير ليروج لهذا التأويل بجعل الأوامر التي وردت في الآية من قبيل الأمر التكويني لا الأمر التكليفي .

تأثره بأبن تيمية في الحملة على البدع والأوهام

وجه محمد عبده النقد العنيف إلى البدع المذمومة والأوهام المنتشرة بين المسلمين في أُخريات القرن التاسع عشر . وهذا الموقف شبيه بموقف ابن تيمية

---

(١) تفسير المنار : ٢٨١/١ وما بعدها .

الحراني من بدع الصوفية المنتشرة في القرن الثامن الهجري .

وإذا كانت البدع قد انتشرت في بلاد الإسلام بفعل الصوفية في القرن الثامن الهجري القريب العهد بحركة الاجتهاد فإن من الأولى أن تنتشر في القرن الثالث عشر الهجري بفعل انحطاط المسلمين فكرياً واستمرار توقف الاجتهاد وإهمال الدولة العثمانية الأعجمية للغة العربية لغـــة القرآن الكريم ، كتاب الإسلام ، مصـــدر العقيدة الأول والأحكام الشرعيه التي يعالج المسلمون بهـــا مشاكلهم .

ولأن محمد عبده اتخذ تفسير القرآن ودروس التفسير الأساس لدعوتـــه الإصلاحية الجزئية كان من البدهي أن يتصدى لهذه البدع والأوهام ينقـدها بعنف ويطلب من المسلمين التخلي عنها .

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن محمد عبده متأثر بالحركة الوهابية التي استوحت برنامجها الإصلاحي من مواقف ابن تيمية الحراني الذي كان يدور في نطاق المذهب الحنبلي في معظم أحواله . وهـــو أيضاً متأثر بالدعوة السنوسية الإصلاحية في ليبيـــا .

وها هوذا يتحدث عن المبتدعة في دين الاسلام والمنحرفين في اعتقادهم في أثناء تفسيره لقوله تعالى (ولا الضالين) من سورة الفاتحة على شاكلة قوله: «والقسم الثالث : من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها ، بدون نظر في أدلتها ولا وقوف على اصولها ، فاتبعوا أهواءهم في فهم ما جاءت به من أصول العقائد ، وهؤلاء هم المبتدعة في كل دين ، ومنهم المبتـدعون في دين الاسلام ، وهم المنحرفون في اعتقادهم عما تدل عليه جملة القرآن ، وما كان عليه السلف الصالح وأهـــل الصدر الأول ، ففرقوا الأمة الى مشارب ، يغص بمائها الوارد ولا يرتوي منها الشارب ، واني أشير الى طرف من آثارهم في الناس : يأتي الرجل إلى دوائر القضاء ، فيُستحلف بالله العلي العظيم ، أو بالمصحف الكريم ، وهـو كلام الله القديم أنه ما فعل كـذا ، فيحلف وعلامة الكذب بادية على وجهه ، فيأتيه

المستحلف من طريق آخر ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقد لهم الولاية فيتغير لونه وتضطرب اركانه ، ثم يرجع في قسمه ويقول الحق ، ويُقر بأنه ما حلف أولاً أنه لم يفعله ، تكريماً لاسم ذلك الشيخ وخوفاً منه أن يسلب عنه نعمة أو يحل به نقمة إذا حلف باسمه كاذباً . فهذا ضلال في اصول العقيدة يرجع الى الضلال في الايمان بالله تعالى وما يجب له من الوحدانية في الافعال .

ولو أردنا ان نسرد ما وقع فيه المسلمون من الضلال في العقائد الاصلية بسبب البدع التي عرضت على دين الاسلام لطال المقام واحتيج الى وضع مجلدات في وجوه الضلال . ومن اشنعها أثراً وأشدها ضرراً خوض رؤساء الفرق منهم في مسائل القضاء والقدر ، والاختيار والجبر ، وتحقيق الوعد والوعيد ، وتهوين مخالفة الله على نفوس العبيد »[١] .

ويحمل على العلماء الذين يجارون أهل البدع والاهواء في تفسيره لقوله تعالى : (ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمِنَ الظالمين)[٢] : « هذا الخطاب بهذا الوعيد لأعلى الناس مقاماً عند الله تعالى هو اشد وعيداً لغيره ممن يتبع الهوى ويحاول استرضاء الناس بمجاراتهم على ما هم عليه من الباطل . فإنه افرده بالخطاب مع أن المراد به أمته .

نقرأ هذا التشديد والوعيد ، ونسمعه من القارئين ، ولا نزدجر عن اتباع أهواء الناس ومجاراتهم على بدعهم وضلالاتهم ، حتى أنك ترى الذين يشكون من هذه البدع والاهواء ويعترفون ببُعدها عن الدين يجارون أهلها عليها ، ويمازجونهم فيها ، وإذا قيل لهم في ذلك قالوا ماذا نعمل ؟ ما في اليد حيلة العامة عمى ، آخر زمان ! وأمثال هذه الكلمات هي جيوش

---

(١) تفسير المنار ، ١/٧٠ وما بعدها .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٤٥ ،

البـــاطل تؤيـده وتمكنه في الأرض ، حتى يحل بأهله البلاء ويكونوا من الهالكين » [١] .

وفي موضع آخر من تفسيره ينقد أعمال مدعي التصوف مثل إحيـــاء الموالد وما ينفق فيهـــا من أموال في غير سبيل الله : « ولقد تشوهت سيرة مدعي التصوف في هذا الزمان ، وصارت رسومهم أشبه بالمعاصي والأهواء من رسوم الذين أفسدوا التصوف من قبلهم ، وأظهرهـا في هذه الاحتفالات التي يسمونها الموالد . ومن العجيب ان تبع الفقهـاءُ في أستحسانها الأغنياء ، فصاروا يبذلون فيها الأموال العظيمة ، زاعمين أنهم يتقربون بها الى الله تعالى. ولو طلب منهم بعض هذا المال لنشر علم أو إزالة منكر او اعانة منكوب لضنوا به وبخلوا ، ولا يرون ما يكون فيها من المنكرات منافياً للتقرب الى الله تعالى ، كأن كرامة الشيخ الذي يحتفلون بمولده تبيح المحظورات ، وتحل للناس التعاون على المنكرات . فالموالد أسواق الفسوق ، فيها خيام للعواهر ، وحانات للخمور ، ومراقص يجتمع فيها الرجال لمشاهدة الراقصات المتهتكات، الكاسيات العاريات ، ومواضع أخرى لضروب من الفحش في القول والفعل يُقصد بها إضحاك الناس . وبعض هذه الموالد يكون على المقـــابر ، ويرى كبار مشايـخ الأزهر يتخطون هذا كله لحضور موائد الأغنياء في السرادقات والقباب العظيمة التي يضربونها وينصبون فيها الموائد المرفوعة ، ويوقدون الشموع الكثيرة ، احتفالاً باسم صاحب المولد ، ويهنىء بعضهم بعضـاً بهذا العمل الشريف في عرفهم » [٢] .

التوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية :

ذهب محمد عبـده الى ان الإصلاح الاجتماعي وإصلاح التعليم الإسلامي هما

---

(١) تفسير المنار ، ٢ / ١٨ . وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ، ٢ / ٧٤ وما بعدها .

الوسيلة الى الإصلاح السياسي وتحرير المسلمين من سيطرة الغرب . وقد رأينا كيف كان يحض على التفكير المتحرر الذي لا يوقر رأياً ولا ينتهي عند الحدود التي يُخشى معها الزلل فيما يستعصي على طاقة العقل ويخرج عن حدود صلاحيته [١] . ولقد رأينا كيف حمل المبعوثون الى الغرب من مصر وغيرها

أفكار الغرب ومقاييسه وقيمه ، من مثل الحرية والوطن وحرية المرأة وغيرها ، وألقوا بها في التربة الإسلامية التي تحمل عداءً دفيناً أصيلاً للغرب وأفكاره منذ قرون خلت . وبلغ العداء ذروته في أيام الحروب الصليبية الكافرة ، واستمر الى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . ومن الطبيعي ألا تنبت هذه البذور الغربية في التربة الإسلامية إلا اذا توفرت لها عوامل الإنبات والنماء .

والغرب الصليبي الكافر عندما غزا بلاد المسلمين في الحروب الصليبية كان همجياً متخلفاً . ولذلك لم يتأثر به المسلمون عندما احتل بلاد الشام. والصحيح أن الصليبيين هم الذيم استفادوا من المسلمين من حيث الرقي المادي العلمي . وهذه قضية لا تحتاج الى أدلة باعتراف المستشرقين وكتّاب الغرب . أما الحال في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل العشرين فمختلف عن الهجمة الأولى . لأن الغرب شهد نهضة ورقياً مادياً وصناعياً وعلمياً منذ القرن الثامن عشر . ولما استولى على مصر وغيرها من بلاد الإسلام ظن المسلمون أو المصبوعون بثقافة الغرب من المسلمين أن التقدم العلمي والصناعي في الغرب لا بد أن يصاحبه تقدم ونهوض فكري . وهذه النظرة أتاحت لهذه البذور الغربية بعض عوامل الإنبات .

ورأى مفكرو الغرب ورجالاته أنهم لكي يضمنوا استعمارهم واحتلالهم لبلاد المسلمين فلا بد من إزالة الجفوة والعداء بينهم وبين المسلمين ، فلا بد من

---

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : ١ / ٣٢٢ .

حركة توفيقيـة تجعل من المعالجات والأحكام الرأسمالية وكأنها من الاسلام أو على الأقل لا تتعارض مع الاسلام . فكان محمـــد عبده في مصر التي احتلتّها بريطانيا ، وكان أحمد خان في الهند الذي كانت تقوم حركته على الافتتان بالعلم الطبيعي والحضارة الغربية المادية لإفساد عقول المسلمين بعـد زوال دولة المغول الاسلامية في الهنـــد . وحاول أحمد خان أن يجعل الولاء للسلطـة البريطانية مشتقاً من تعاليم الاسلام ، وينشىء جيلاً من شباب الهنـــد يعاون الاستعمار باسم التقدمية في الاسلام [1] . وهو في ذلك لا يختلف عن حركة الشيخ محمد عبده .

والذي ساعد على هذه الحركة التوفيقية على الحيـاة ، مع وجود علماء من المسلمين في مصر والهند يدركون خطورتها ويقاومونها ، كون هذا الجيل من الأمة الاسلامية لم يتسلم من سلفه أية أفكار إسلامية، ولا أفكاراً غير إسلامية، وبالطبع لم يتسلم طريقة تفكير منتجة . فهو قد ورث الأفـــكار الاسلامية باعتبارها فلسفةخيالية ، تماماً كما يرث اليوم اليونان فلسفة أرسطو وأفلاطون. وورث الاسلام باعتبـــاره طقوساً وشعائر للتدين ، كما يرث النصارى دين النصرانية . وهو في نفس الوقت عشق الأفكار الراسمالية من مجرد مشاهدته نجاحها لا من إدراكه لواقع هذه الأفكار ، ومن خضوعه لتطبيق أحكامهـا عليه ، لا من إدراك انبثاق هذهالمعالجات عن وجهة النظر الرأسمالية للحياة. ولذلك بات خالياً من الأفكار الرأسمالية تفكيرياً ، وإن كان يخوض غمار الحياة على منهجها ، وأضحى خاليا من الأفكار الاسلامية عملياً ، وإن كان يتدين بالاسلام ويدرس أفكاره .

وأتاح لحركة محمد عبـــده التوفيقية الحياة بعض الشيء اعتماده على فكرة انّ ما لا يخالف الاسلام ولم يرد نص على النهي عنه يجوز أخذه . وهـــذه

---

(١) انظر الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص ٢٣ وما بعدها .

فكرة باطلة من أساسها . ويتضح من تدقيق الأدلة أن أخذ أي حكم من غير ما جاء به الشرع أخذٌ لحكم كفر ، لأنه أخذٌ لغير ما أنزل الله . فإن الله سبحانه وتعالى نهى عن تحكيم غير الشرع ، وفوق نهيه هــــذا من مثل قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) وقول الرسول ﷺ (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) ، فإنه جل شأنه قد نهى نهيــــاً صريحاً عن أخذ الحكم الذي لم ينزله ، فهو يقول للرسول عليه السلام (وان احكم بينهم بما أنزل الله) . والمعروف ان احكام الإسلام ومعالجاته تقوم على قاعدة فكرية مفادها الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى .

والنظام الرأسمالي يقوم على قاعدة فكرية مؤدّاها فصل الدين عن الحيـاة بعد عملية صراع رهيبة بين رجال الدين في أوروبا وعلى رأسهم البــــابا وبين المفكرين والحكام .

والفكر المـاركسي – اللينيني يقوم على قاعدة فكرية تقول بأن الكون مادي يدير نفسه بنفسه وان الحياة مادة . وكل نظام من هذه الأنظمة يقوم على قاعدة فكرية . ونظراً لأن القـــاعدة الفكرية للإسلام تختلف عن القاعدتين الفكريتين الرأسمالية والشيوعية ، فإن نظام الإسلام يختلف تماماً عن النظام الرأسمالي وعن النظام الشيوعي ، وإن كانت بعض احكام الاسلام تشبه ما عند النظام الرأسمالي من إباحة الملكية الفردية وكذلك المشابهة بين الملكية العـــامة لكل ما هو ضروري للجماعة في الإسلام وإلغـــاء الملكية الفردية في المرحلة الشيوعيـة . فالإسلام ليس ديموقراطياً ولا رأسماليـــاً ولا شيوعياً .

ونحن الآن توضح جوانب التوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية والأحكام والمعالجات الغربية التي قام بها محمد عبده خدمة لأهداف الماسونية

أولا، التي من أهدافها العظيمة ترويج العلمانية والقضاء علــى كل نظام أصيل، وخدمة لبريطانيا التي كان يمثلهـــا اللورد كرومر صديق محمد عبده الحميم وولي نعمته

جانب اصلاحي خلقي :

رأى محمد عبــده ان الإصلاح الأخلاقي يجب ان يسبق الإصلاح السياسي. وهذه الرؤية من صميم الأفكار الرأسمالية الغربية .

وكل من يتتبع إنتاج محمد عبده في التفسير يخرج بنتيجة مؤداها ان المحور الذي يدور عليه نشــاطه في ذلك التفسير مشاغله الأخلاقيــة بوجه خاص . وبهـــذا الصدد يقول الدكتور عثمان امين : « ولعل المحور الذي يدور عليه نشاط الإمام في ذلك التفسير مشاغله الأخلاقية بوجه خاص: فما كتبه الأستاذ بنفسه ، والدروس التي قيدها عنه تلاميذه تبين ما ذهبنا اليه بياناً لا ريبــة فيه . والواقع ان كتاباته وآثاره جميعاً تفيض بالمعاني الأخلاقية التي يريــد ان تتسم بها نفوس المصريين ، كتنمية الشخصية ، وتحرر الفكر ، وبذل الجهد ، والتسامح ، والاستقلال . وإنا لنجد هذه الافكار تمتد امتداداً طبيعاً حتى تصل إلى الاعتبارات الاجتماعية العصرية عن العدالة والتعاون والاحسان ، تلك الاعتبارات التي لم تفتأ ماثلة في ذهن المصلح المصري . وعندنا ان طرافة تفسير الاستاذ الامــام للقرآن تتلخص في انــه كان وسيلة فعـــالة لاصلاح المجتمع الاسلامي ، وكان مشبعاً بروح اخلاقية خالصة ، وكان في الوقت نفسه ملائماً لذوق العصر ومطالبه » [١] .

فالدكتور عثمان أمين يعترف بأن تفسير الشيخ محمد عبده كان ملائماً لذوق العصر ومطالبه . أي أن تفسيره لم يكن دعوة انقلابية تصحيحية للأوضاع القائمة على اساس الافكار الرأسمالية الكافرة، بل كان توفيقاً وملائمة بين الاسلام

---

(١) رائد الفكر المصري ، الإمام محمد عبده : ص ١٨٧ .

وذوق العصر ومطالبه ، أو بمعنى آخر بين الاسلام وبين الاحكام والمعالجات الرأسمالية . ولنستمع إليه كيف ينقد حكم الخديوي وفساده وطغيانه وبغيه وعدم قبوله للنصيحة على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (وإذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالإثم ... الآية)[1] : « هذا الوصف ظاهر جداً في تفسير التولي بالولاية والسلطة ، فإن الحاكم الظالم المستبد يكبر عليه أن يرشد إلى مصلحة أو يحذّر من مفسدة ، لأنه يرى أن هذا المقام الذي ركبه وعلاه يجعله أعلى الناس رأياً وأرجحهم عقلا ، بل الحاكم المستبد الذي لا يخاف الله تعالى ويرى نفسه فوق الحق ، كما أنه فوق اهله في السلطة ، فيجب أن يكون أفنُ رأيه خيراً من جودة آرائهم ، وإفساده نافذاً مقبولاً دون إصلاحهم ، فكيف يجوز لاحد منهم أن يقول له : اتق الله في كذا ؟ وإن الأمير منهم ليأتي أمراً فيظهر له ضرره في شخصه أو في ملكه ويود لو يهتدي السبيل الى الخروج منه فيعرض له ناصحٌ يشرع له السبيل فيأبى سلوكها ، وهو يعلم أن فيها النجاة والفوز إلا أن يحتال الناصح في اشراعها ، فيجعلها بصيغة لا تُشعر بالارشاد والتعليم ، ولا بأن السيد المطاع في حاجة إليه . وقد عرضت نصيحة على بعضهم مع ذكر لفظ النصيحة بعد تمهيد له بالحديث (الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) وبيان معناه . فعظم عليه أن يقول أحد إنني أنصح لك لأنك إمامي ، وكان ذلك آخر عهد الناصح به .

فانظر كيف لم يرض حاكم مسلم بأن يبذل له ما يجب أن يبذل لله ولرسوله وللأئمة. وقد كان العلماء ينصحون للخلفاء والملوك المسلمين ، فيأخذون بالنصح بحسب مكانهم من الدين ، واما الطغاة البُغاة الذين ليس لهم من الاسلام إلا ما يخدعون به العامة من إتيان المساجد في الجمع والاعياد والمواسم المبتدعة فإنهم يُؤذون من يشير اشارة ما الى أنهم في حاجة الى تقوى الله في انفسهم ، أو في عيال الله الذين سُلطوا عليهم ، وان لم يبق لهم من السلطان والحكم ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٦ .

ما يمكنهم من كل ما يهوون من الإفساد والظلم . وإذا كان هـــذا شأن أكثر الملوك والامراء الذين ينسبون الى الدين ويدعون اتباعه ، فهل تجـــد دعوى فرعون الألوهية غريباً عجيباً ؟! » [١].

وقد يُعجب كثير من المسلمين اليوم بكلام محمد عبده هذا لأول وهلة . ولكن المدقق لا يسعه إلا أن يتساءل : لماذا صبّ الشيخ محمد عبـــده جام غضبه على الخديوي عباس وسكت عن النظـام الرأسمالي الكافر الذي فرَضه الانجلـــيز على المسلمين في مصر ؟ ونحن لا ندافع عن الخديوي ، فهو عميل للإنجليز مثله مثل غيره من الحكام المسلـــين . ولكن : هل تنتهي مصيبة المسلمين في مصر لو أُبعد الخديوي عباس عن الحـــكم ؟ والصحيح أن مصيبة المسلمين في مصر وغيرهـا من بلاد المسلمين تتمثل في النظام الرأسمالي الكافر الذي يطبّقونه على أمة لا تدين به ، وفي الاحتلال الغربي لبـــلاد المسلمين . والمعروف أن الاستعـــمار الغربي الكافر فرَض أنظمته وأحكامه فرْضـــاً على المسلمين ، ووضع على كل بلدمن بلاد المسلمين حاكماً يطبّق أنظمتهوأحكامه ويرعى مصالحه .

ولكن كيف يهاجم محمد عبده النظامالرأسمالي الكافر والاحتلالالبريطاني وهو الصديق الحميم للّورد كرومر ممثـل الاحتلال البريطاني في مصر ! وعين الرضا ، كما يقول الشاعر ، عن كل عيب كليلة . والدليـل على صدق قولنا أن الاحتلال العسكري لبلاد المسلمين قـد زال اليوم تقريباً ، ما عدا فلسطين ، فهل المسلمون اليوم ينعمون بالحياة السعيدة والعزّة والمنعـــة ؟ كلا بالطبع . والسبب بقاء النظام الرأسمالي الكافر الفاسد مطبقاً علىالمسلمين . وكان الاحتلال العسكري في السابق لتطويع المسلـــين وتذليلهم لتقبّل نظامه وأفكاره

---

(١) تفسير المنار ، ٢/٥٠ وما بعدها .

ومقاييسه في الحياة . ولما اطمأن الى حكام من أبناء المسلمين يعجبون بنظامه وأفكاره خرج من بلاد المسلمين بجيوشه .

وفي موضع آخر من تفسيره نراه يحمل حملة شعواء على بُخل المسلمين بالإنفاق على التربية والتعليم ونحوهما من المنافع العامة على شاكلة قوله : « ترى كثيراً من أغنياء المسلمين عارفين بما عليه أُمتهم من الجهل بأمور الدين ومصالح الدنيا وفساد الاخلاق وتقطع الروابط وتراخي الأواخي وما نشأ عن ذلك من هضم حقوقها وانتزاع منافعها من أيدي أبنائها . ويعلمون إصلاحهم يتوقف على بذل شيء من أموالهم ينفق على التربية والتعليم ونحوهما من المنافع العامة . ثم هم يُدعون الى بذل قليل من كثير ما خزنوه في صناديق الحديد وما ينفقونه في شهواتهم ولذاتهم وتأييد أهوائهم وحظوظهم ، فيبخلون بذلك ويرونه مغرماً ثقيلاً. ولا يحفلون بوعد الله للمنفقين في سبيله ولا بوعيده للباخلين بفضله . وأمثال هؤلاء لا يستحقون أن يكونوا من المسلمين ، لأنه لا يوجد في نفس الواحد منهم عرق ينبض بالتألم لمصائب الاسلام وأهله »[1].

ويحثّ الشيخ محمد عبده على الإنفاق في وجوه البر العامة مثل إزالة الجهل بنشر العلم ومساعدة العجزة والضعفاء وترقية الصناعات وإنشاء المستشفيات والملاجيء وغير ذلك على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : « مثَلُ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثَل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم [2] » : « إن من سنة القرآن الحكيم مزج آيات الأحكام بآيات المواعظ والعبر والتوحيد ، ليقرر أمر الحكم وينصر النفوس على القيام به .

وإن أمر الإنفاق في سبيل الله أشق الأمور على النفوس ، لا سيما إذا أتسعت دائرة المنفعة فيما ينفق فيه ، وبعدت نسبة من يُنفَق عليه من المنفِق . وإنما يصعب على المرء الإنفاق على منفعته من يبعد عنه ، لأنه فطر على ألا يعمل عملا

(١) تفسير المنار ، ٣/ ٢٢
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٦١

لا يتصور لنفسه فائدة منه. واكثر النفوس جاهلة بأتصال منافعها ومصالحها بالبعداء عنها. فلا تشعر بأن الانفاق في وجوه البر العامة كإزالة الجهل بنشر العلم ومساعدة العجزة والضعفاء وترقية الصناعات وإنشاء المستشفيات والملاجيء وخدمة الدين المهذب للنفوس . وهو الذي تقوم به المصالح العامة، حتى تكون كلها سعيدة عزيزة . فعلمهم الله تعالى ان ما ينفقونه في المصالح يضاعف لهم أضعاف كثيرة ، هو مفيد لهم في دنياهم . وحثهم على ان يجعلوا الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ليكون مفيداً لهم في آخرتهم ايضاً »[1] .

ويبين مساوىء ضعف الصبر في نفوس المسلمين وان ذلك سبب جهلهم وشقائهم على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر[2] : « والصبر ملكة في النفس يتيسر معها احتمال ما يشق احتماله ، والرضى بما يكره في سبيل الحق . وهو خلق يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق . وما أُتي الناس من شيء مثلما أُتوا من فقد الصبر أو ضعفه . كل أمة ضعف الصبر في نفوس افرادها ضعف فيها كل شيء وذهبت منها كل قوة . ولنضرب لذلك مثلاً : نقص العلم عند أمة من الامم كالمسلمين اليوم ، إذا دققت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصبر . فإن من عرف باباً من ابواب العلم لا يجد من نفسه صبراً على التوسع فيه ، والتعب في تحقيق مسائله ، وينام على فراش من التقليد هين لين لا يكلفه مشقة ولا يجشمه تعباً ، ويسلي نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه . ولو كان عنده احترام حقيقي لسلفه لا تخذهم اسوة له في عمله فحذا حذوهم ، وسلك مسلكهم ، وكلف نفسه بعض ما حملوا انفسهم عليه ، واعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين . ثم هو إذا تعلم لا يجد صبراً على مشقة دعوة الناس الى علم ما يعلم ، وحملهم على عرفان ما يعرف ،

---

(١) تفسير المنار ، ٣ / ٥٩ .

(٢) سورة العصر ، الآية ٣ .

ولا جلداً على تحصيل الوسائل لنشر مـــا عنده ، بل متى لاقى أول معارضة قبع في بيته ، وترك الخلق للخالق كما يقولون . يجلس الطالب للدرس سنة أو سنتين ، ثم تعترضه مشقـة التحصيل فيترك الدرس أو يتساهل في فهمه ، أو يكل والده من الإنفاق عليه ، فيصرفـه إلى حرفة اخرى يظنها اربح له فينقطع عن الطلب ، ويذهب في الجهل كل مذهب . وكل هذا من ضعف الصبر. يبخل البخيل بماله ، ويجهـــد نفسه في جمعه وكنزه ، وتعرض له وجوه البر فيعرض عنها ، ولا ينفق درهماً في شيء منها ، فيؤذي بذلك وطنه وملته ، ويترك الشر والفقر يأكل قومه وأمته . ولو نظرنا إلى مـا قبض يده لوجدناه ضعف الصبر . ولو صبر على محاربة خيال الفقر اللائح في ذهنه يهدده بالنزول به ، لما أُصيب بذلك المرض القاتل له ولأهله . يُسرف المسرف في الشهوات ، ويتهتك المتهتك في المنكرات حتى ينفذ المال . وتسوء الحـــال ، ويستبدل الذل بالعز ، والفقر بالغنى ، ولا سبب لذلك إلا ضياع صبره في مقاومة الهوى ، وضبط نفسه عن مواقع الردى . ولو صبر في مجاهدة تلك النزعات لما كان قد خسر ماله ، وأفسد حاله »[1] .

هذه المسائل الاجتماعية والمشاغل الخلقية التي وجدناها في تضاعيف تفسير محمد عبده تستحق منا وقفة قصيرة ، فنقول : ان محمد عبده لم يكن داعياً الى تصحيح جذري للأوضاع القائمة في مصر وفي غيرهـــا من بـلاد المسلمين التي كانت اوضاعاً صاغها النظام الرأسمالي المطبق بقوة الاحتلال ، بل نجده ينحو نحواً فيه مهادنة وخضوع لأحكام النظام الرأسمالي ومعالجاته ومقاييسه في الحياة . ونحن نعلم ان طريقة الرسول عليه السلام في نشر الدعـــوة الاسلامية كانت تعتمد على التكتل حول الاســـلام ، ثم الانطلاق والجهر بالدعوة ، ثم التماس النصرة لإقامة حكم الله في الأرض بإقامة دولة الاسلام .

واتباع هذه الطريقة حكم شرعي ، لأن الرسول عليه السلام لا ينطق عن

---

(١) تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن : ص ٨٧ / ٨٩ .

الهوى ان هو إلا وحي يوحي . وبإقامة الدولة الاسلامية صار المجتمع صالحاً، فأدى ذلك الى اصلاح الفرد . وان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . والدليل على ان افراد المجتمع لم يكونوا كلهم صالحين عند إقامة دولة الاسلام وجود كثير من المنافقين في جيش الرسول عليه السلام . فصلح هؤلاء المنافقون فيما بعد وجرهم سيل الاسلام الجارف . ولو انتظر الرسول عليه السلام حتى يصلح كل أفراد المجتمع المكي او المدني لما انتشرت دعوة الاسلام أبداً ولبقي الشرك مسيطراً . هذه هي سنة الله ولن تجد لسنته تبديلا . هذه هي طريقة الرسول عليه السلام في قلب الأوضاع المشركة الكافرة وإخضاعها لأحكام الاسلام ومعالجاته ومقاييسه في الحياة .

إصلاح المجتمع يُصلح الفرد ولا يمكس . وما عدا ذلك مضيعة للوقت وركون الى العدم . أما الشيخ محمد عبده فمتأثر في معالجته للمسائل الاجتماعية بالمصلحين البروتستانت من أمثال مارتن لوثر الماسوني . والنظام الرأسمالي الذي يقوم على فصل الدين عن الحياة يعتبر المجتمع قائماً على الفرد . ومن حق هذا الفرد حرية التملك والفكر وما يسمونه بالحرية الشخصية . والدولة في نظر الفكر الرأسمالي شر لا بد منه . ووظيفتها الأولى حماية حقوق الأفراد . والفرد هو أساس المجتمع . فإذا صلح الفرد صلح المجتمع .

والمجتمع في الواقع ليس بمجموعة من الأفراد وحسب ، وإنما هو مجموعة من الأفراد يؤمنون بفكر معين ويطبّق عليهم نظام منبثق عن هذا الفكر ، وتصدر عنهم مشاعر منسجمة بسبب الإيمان بهذا الفكر وتطبيق النظام المنبثق عن هذا الفكر .

وهناك نقطة هامّة أودّ أن أشير أليها ، وهي أن كثيراً من المفكرين المعاصرين ينظرون الى الأخلاق والفضائل التي حث عليها الاسلام نظرةً قائمة بذاتها . وهذا خطأ فادح ، لان الأخلاق والفضائل الاسلامية نتيجة حتمية للإيمان بالعقيدة الاسلامية ، ولا يجوز الفصل بينهما . فالصدق والوفاء وعدم

الخيانة وحسن المعاملة كلها ترتبط بأوامر الله ونواهيه. ولا يمكن الارتباط بأوامر الله والبعد عن نواهيه إلا بالايمان بالعقيدة الاسلامية . ولا يمكن أن تظهر هذه الاخلاق والفضائل ظهوراً مشرقاً إلا بتطبيق احكام الاسلام تطبيقاً كاملاً وليس تطبيقاً جزئياً ، لأن الاسلام لا تظهر روعته ظهوراً جلياً إلا إذا طبّق تطبيقاً شاملاً .

ونظراً لأن النظام الرأسمالي يعنى بالفرد وحرياته الشخصية فقد أهمل الجماعة ، وأخذ المفكرون الغربيون يحاولون ترقيع هذا النظام الفاسد من مثل تشجيع الجمعيات الخيرية المختلفة واليانصيب لمساعدة العجزة والمرضى في المستشفيات وغير ذلك من هذه الوجوه الضرورية للمجتمع التي لا يعنى بها النظام الرأسمالي عناية اساسية . أضف إلى ذلك تشجيع النقابات وقوانين العمل والعمال وشركات التأمين على الحياة . اما الاسلام فإنه يضمن لكل من يحمل التابعية للدولة الاسلامية المأكل والملبس والمسكن .

والتعليم في الاسلام يكون مجاناً وكذلك المعالجة الطبية وغيرها من الأمور الضرورية التي يجب على الدولة توفيرها للمجتمع . إذن فلا حاجة في النظام الاسلامي إلى إيجاد الجمعيات الخيرية والنقابات وشركات التأمين على الحياة واليانصيب وغير ذلك من هذه الهيئات التي تمد مظهراً من مظاهر عجز النظام الرأسمالي وفساده وعفونته .

إذن ، فهذه الاوضاع والاخلاق الفاسدة التي دعا محمد عبده الى التخلي عنها ونبذها هي نتيجة حتميه من نتائج تطبيق نظام الغرب الرأسمالي الكافر وسيطرة النظرة النفعية الانانية على المجتمع في مصر وبلاد المسلمين. فعندما يزول هذا النظام وافكاره ومقاييسه في الحياة تزول بالتالي كل اوضاعه الفاسدة التي يشكلها ويصوغها .

أما أن يغض محمد عبده الطرف عن هذا النظام الفاسد ولا يدعو المسلمين

الى نبذه وإبعاده كلياً عن حياتهم ، وينادي بإصلاح جزئي وتربية خلقية من وجهة النظر الرأسمالية فهذا كله توفيق بين الاسلام وبين افـــكار الغرب واحكامه ومعالجاته الرأسمالية .

فما قيمة أن يدعو مصلح مسلمٌ اليوم الى اغلاق الخمارات في بلاد المسلمين والنظام الرأسمالي الذي يطبق على المسلمين يعطي الرخص بفتح هذه الخمارات؟ وقس على هذه اموراً كثيرة . من هذا نستطيع ان نقول ان دعوة محمد عبده الاصلاحية الخلقية التربوية لاوضاع ليست من تخطيط الاسلام ولا تخضـــع لمقـــاييسه هي ابقاء وسكوت عن هذا النظام الفاسد الكافر الذي يجب على المسلمين جميعهم الاطاحة به . فلفظة إصلاح تعني الابقاء على شيء وترك شيء. أما الدعوة التصحيحية الانقلابية فتعني نسف هذا الوضع الفاسد من جذوره وتطبيق نظام صالح عادل أصيل ، هو النظام الاسلامي ، نظام الله سبحانه وتعالى الذي خلق الكون والانسان والحياة ونظمها وأبدعها . النظام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . كتاب الله وسنة نبيه محمـــد عليه السلام . ولن يضل المسلمون ما ان تمسكوا بهما. فالامراض الاجتماعية والخلقية والتربوية التي جهد محمد عبده في حث المسلمين في مصر وغيرها على نبـــذها واطراحها هي مـــن آفات النظام الرأسمالي الذي يناقض الواقـــع وفطرة الانسان .

والمثل المأثور يقول درهم وقاية خيرٌ من قنطار علاج .

ولا يزال المسلمون يعانون الى يومنا هـــذا من فساد هذا النظام وفساد مؤسساته وأوضاعه التي يصوغها ويشكلها .

اباحة ربا الفضل

عالج الشيخ محمد عبده قضية الربا الذي حرمـــه الاسلام عند تفسير قوله تعالى : (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انمـــا البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم

الرِّبا) الى قوله تعالى: (واتقوا يوماً تُرجَعون فيه الى الله ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون)[1] . يقول محمد عبده : « نزلت هذه الآية في تحريم الربا الذي كان معروفاً في الجاهلية يأتيه اليهود والمشركون . وهي من آخر القرآن نزولاً كما سيأتي . وذكرت في النظم بعد آيات الصدقة التي كان آخرها آية الكاملين في السخاء والجود الذين ينفقون في عامة الاوقات والأحوال ، لما بينهما من التناسب بالتضادّ . فالمتصدق يعطي المال بغير عوض يقابله ، والمرابي يأخذ المال بغير عوض يقابله . وانـنا نذكر تفسير الآيات ثم نُفيض الكلام في مسألة الربا ، وحكمة تحريمه . لأن لهذه المسألة شأناً كبيراً في حياة الأمة السياسية والاجتماعية في هذا العصر . ويزعم بعض المتفرنجين من المسلمين أن تحريم الربا هو العقبة الكئود في طريق مجاراة المسلمين للأمم الغربية في الثروة التي هي مناط العزة والقوة »[2] .

ويتحدث محمد عبده عن الربا المحرم بنص القرآن والربا المحرم بأحاديث الآحاد والقياس ، يقول : قد عُلم مما تقدم في تفسير الآيات أنها نزلت في وقائع كانت للمرابين من المسلمين قبل التحريم. فالمراد بالربا فيها ما كان معروفاً في الجاهلية من ربا النسيئة أي ما يؤخذ من المال لأجل الإنساء أي التأخير في أجل الدين . فكان يكون للرجل على آخر دين مؤجل يختلف سببه بين أن يكون ثمن شيء اشتراه منه أو قرضاً اقترضه ، فاذا جاء الأجل ولم يكن للمدين مال يفي به ، طلب من صاحب المال أن يُنسيء له في الأجل ويزيد في المال ، وكان يتكرر ذلك حتى يكون أضعافاً مضاعفة . فهذا ما ورد في القرآن بتحريمه ، لم يحرّم فيه سواه . وقد وصفه في آية آل عمران التي جاءت غيرها بصيغة النهي ، وهو قوله عز وجل (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة) . وهذه أول آية نزلت في تحريم الربا ، فهو تحريم لربا

---

(١) سورة البقرة ، الآيات ٢٧٥ – ٢٨١

(٢) تفسير المنار : ٣/٩٣ وما بعدها .

مخصوص بهذا القيد ، وهو المشهور عندهم »[1] .

ويقول محمد عبده : « ولا يدخل الربا المحرم الذي لا يشك فيه من يعطي آخر مالاً يستغله ، ويجعل له من كسبه حظاً معيناً لأن مخالفة الفقهاء في جعل الحظ معيناً قبل الربح قل أو كثر لا يدخل ذلك في الربا الجلي المركب المخرب للبيوت ، فإن هذه المعاملة نافعة للعامل ولصاحب العمل معاً ، وذلك الربا ضار بواحد بلا ذنب سوى الاضطرار ، ونافع لآخر بلا عمل سوى القسوة والطمع فلا يمكن أن يكون حكمها في عدل الله واحداً »[2] .

ويأخذ محمد عبده برأي ابن قيم الجوزية في أعلام الموقعين « وهو أن الربا نوعان : جلي وخفي ، فالجلي حُرِّم لما فيه من الضرر العظيم ، والخفي حُرِّم لأنه ذريعة إلى الجلي ، فتحريم الأول قصد ، وتحريم الثاني وسيلة . فأما الجلي فربا النسيئة ، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، مثل أن يؤخر دينه ويزيده في المال . والخفي هو ربا الفضل الذي حرم لسد الذريعة »[3] .

ويذهب الى ان المحرَّم إما أن يكون لذاته كربا النسيئة ، وإما أن يكون لسد الذريعة كربا الفضل . ويرى أن المحرم لذاته لا يباح إلا لضرورة كأكل الميتة ولحم الخنزير وشرب الخمر ، وان المحرَّم لسد الذريعة قد يباح للحاجة والمصلحة الراجحة . لذلك فهو يرى أن الحاجة تدعو الى إباحة هذا النوع من ربا الفضل[4] .

ونحن الآن نناقش رأي ابن قيم الجوزية الذي تبناه محمدعبده المتضمن أن الربا نوعان : نوع محرم لذاته ، ونوع محرم لغيره ، وعلة الربا المحرم لذاته

---

(١) تفسير المنار ، ٣/١١٣ وما بعدها
(٢) مجلة المنار ، ٩/٣٣٢ . مطبعة المنار ، الطبعة الأولى .
(٣) تفسير المنار ، ٣/ ١١٤ وما بعدها .
(٤) أنظر تفسير المنار ، ٤/١٢٧

(وهو الربا الجلي) ما فيه من الضرر العظيم ، وعلة الربا المحرم لغيره (وهو الربا الخفي) كونه ذريعة للربا الجلي .

ونحن نذهب مع الدكتور عبد العزيز الخياط إذ يقول بهذا الصدد : « والواقع أن وصف الربا بأنه جلي وخفي ، وتحريم الجلي وإباحة الخفي لداعي الضرورة أمر لا يستقيم مع معنى الربا نسيئة أو فضلاً ، فالربا هو كل زيادة لأحد المتعاقدين في عقد المفاوضة من غير مقابل ، أو هو الزيادة في مقابل الاجل ، وقد ورد النص بتحريم المعنيين ، فضلاً عن أن الربا المحرم لذاته لا يعلل، لانه اذا علل انتفى أن يكون محرماً لذاته وإنما يكون محرماً لعلته، فإذا انتفت العلة انتفى التحريم ، ولم يقل أحد بهذا ، بل الربا محرم بالنص سواء علل أم لم يعلل ، وسواء حصل منه ضرر أو نفع ، ولا يصح القول بتحريم الربا المعلل بتخريب البيوت ، وإباحة الربا الغير المخرّب للبيوت اضطراراً ، لان منع تخريب البيوت حكمة تحريم الربا وليس علته ، وفرق بين الحكمة والعلة ، وسواءٌ تحققت الحكمة أو لم تتحقق فالربا محرمٌ ولا وجه للتفرقة بين ربا محرم لذاته وربا محرم لغيره .

إن الله تعالى أطلق لفظ الربا في التحريم إذ قال : (وأحل الله البيع وحرم الربا) فأنصرف الى قليله وكثيره ، ظاهره وخفيه ، المحرم لذاته أو لغيره ، وهذا ما يقرره الشيخ خلاّف نفسه بقوله» والخلاصة أن القيد في آية آل عمران ليس للتخصيص والاحتراز عما عداه وإنما هو لمراعاة الواقع والغالب والتوبيخ والتبشيع ، والإشارة الى حكمة التحريم ، ولا تعارض بينهما وبين إطلاق التحريم في آية البقرة ، ولا نسخ لآية آل عمران بآيات البقرة ، فأكل الربا محرم شرعاً على الاطلاق، وآية آل عمران خصت بالذكر صورة من أبشع صوره التي كانت فاشية فيهم .

إن قوله تعالى (لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة) نص في تحريم الربا المضاعف ، أما غير المضاعف فهو مسكوتٌ عنه حتى جاءت آيات البقرة

فبيّنته، لأنها أطلقت لفظة الربا وفسرت المقصود بآية آل عمران بأنه لتقبيح ما كان عليه نوع الربا في الجاهلية وليست لإباحة ما عداه، ولا عبرة بخصوص السبب، وإنما العبرة بعموم اللفظ، فعموم لفظة (الربا) محرم لكل أنواعه، وقد صورت آية البقرة بشاعة آكل الربا بأنه (لا يقوم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) وجسدت هذه البشاعة في الصورة الحسية مما لم يصوره القرآن لأي فاسق يرتكب محرماً من المحرمات، ولم يتوعد الله تبارك وتعالى مرتكبي منكر بحرب كما توعد آكلي الربا الذين لا ينتهون بعد التحريم، ولا يكتفون برؤوس أموالهم ويتركون ما بقي من الربا، قال تعالى: (وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون) وهذا الوعيد لم يكن إلا في الربا لشدة النهي عنه.

ورد حديث النبي ﷺ (الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل، سواء بسواء، يداً بيد، فإذا اختلفت الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد، وفي روية أخرى (مثلاً بمثل، يداً بيد فمن زاد او استزاد فقد أربى والآخذ والمعطي سواء). وورد حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: (لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا منها غائباً بناجز).

وهذه الأحاديث صريحة في بيان ان الزيادة رباً لا شك فيه، وأنها محرمة فهي توكيد لمعنى الربا العام الوارد في النص القرآني، وما ورد من حديث (لا ربا إلا في النسيئة) فمعمول على نفي الكمال لا نفي الأصل، قال الصنماني: والى ما أفاده الحديث «يعني تحريم ربا الفضل وربا النسيئة» ذهبت الجلة من العلماء الصحابة والتابعين والعترة والفقهاء، فقالوا: يحرم التفاضل فيما ذكر غائباً او حاضراً، وذهب ابن عباس وجماعة من الصحابة الى أنه لا يحرم الربا

إلا في النسيئة مستدلين بالحديث الصحيح (لا ربا إلا في النسيئة) فالمراد نفي الكمال لا نفي الأصل ، وحديث أبي سعيد منطوق ، ولا يقاوم المفهوم المنطوق فإنه مطرح مع المنطوق ، وقد روى الحاكم ان ابن عباس رجع عن ذلك القول أي أنه لا ربا إلا في النسيئة واستغفر الله من القول به .

ورد من أحاديث النبي عن أكل الربا قوله ﷺ (الربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها مثل أن ينكح الرجل أُمه) وهذا منتهى التقبيح لآكل الربا ومنتهى المبالغة في تحريمه ، وفيه دلالة صريحة على ان الربا أنواع كثيرة تربو على السبعين نوعاً كلها محرمة صغيرها وكبيرها جليها وخفيها ، فمهما اختلفت الأسماء وتعددت الأشكال من ربا نسيئة او فضل او فائدة في مصرف او صندوق توفير او سند او غير ذلك فهو رباً ما دام زيادة بين مثلين من غير عوض او في مقابل الأجل ، ولعل تصوير النبي صلى عليه الله وسلم هو أبلغ تصوير لانتشار الربا بأنواعه المختلفة في زماننا حين قال : سيأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا ، قال قائل : يا رسول الله : كلهم ؟ قال : من لم يأكله ناله غباره .

إن دعوى الاضطرار التي أستند اليها من قال بجواز الفائدة في التعامل بالربا دعوى غير قائمة لاعتبارين : الاول : ان النص في الاباحة للاضطرار ورد في عدة آيات في القرآن الكريم تبيح كلها أكل ما حرم الله من المنصوص عليها للاضطرار الذي يخشى منه لو لم يبح الاكل مما حرمه الله ان يموت الانسان جوعاً او يهلك عطشاً ، قال تعالى : (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير و ما أُهلّ به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ان الله غفور رحيم) وقال تعالى في سورة المائدة (فمن اضطُر في مخمصة غير متجانف لاثم فإن الله غفور رحيم) فما أباح الله الأكل منه هو لحم الميتة والدم وما أُهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع وكلها من المطاعم ، وهي التي أُبيحت عند الاضطرار في المجاعة المهلكة لكي

يحفظ الانسانُ حياته ، ولو أخذنا بقاعدة التوسع في الضرورة ، وتعدية النص الى غير الطعام فإننا لا نجد الضرورة هنا بمعناها الشرعي قائمة في التعامل الربوي في الشركات ، فأية ضرورة يخشى معها الانسان على نفسه الهلاك لكي يأخذ المال بالربا ؟ .

على ان الربا في واقع الامر تبع للنظام الرأسمالي المسيطر على البلاد الاسلامية وهو مظهر من مظاهره الشنيعة ،وهو نظام ابتدعه اليهود ونشروه، وأستغلوا به حاجات الفقراء والمحتاجين واستذلوا به الدول والشعوب ، وليست الحاجة ملحة الى وجوده ، بل ليس للمسلمين حاجة فيه . وبإمكانهم ان يمنعوه ويلغوه ، ويُقيم دولهم بدله مصارف تقوم بإقراض المحتاجين ، وتشغيل أموال الأغنياء بالوجه المباح شرعاً . ونحن نرى ان المصارف حلت محل الافراد المرابين في تخريب البيوت ، والتحكم في مصائر الأمم والشعوب .

والحقيقة التي لا مرية فيها ان الذين أباحوا الربا انساقوا مع الواقع الغربي وقد بهرهم في مطلع نهضته معاملات المصارف واعانتها للمحتاجين واقراضها لهم ، ورأوا – ظاهراً – الفوائد التي تترتب على التعامل بالفائدة البسيطة كما يقولون ، ولكن سرعان ما تكشف ولا يزال يتكشف بشاعة التعامل بالربا بجميع أنواعه وأنه السبب في الأزمات العالمية فضلاً عن تحكم المصارف في الافراد والحكومات ، وعن تضخم أموالها بسرعة مذهلة ، هذا بالاضافة الى أن هذه المصارف لا تساعد إلا الأفراد المليئين أو المضمونين ، والشركات المضمونة لتنمية أموالها أو لمن يجد كفيلاً مليئاً أي له مركز مالي مضمون ، ولا تُساعدُ الفقير والمحتاج حقيقة . ومن ذلك يظهر لنا أن ما استند اليه المبيحون للشركات بما فيها من ربا سواء أكان ذلك مطلقاً أو مقيداً بالضرورة لا وجه له وأن التعامل الربوي في الشركات حرام مطلقاً »[1] .

---

(١) الشركات في الشريعة الاسلامية والقانون الوضعي : القسم الثاني ، ص ١٦٨ – ١٧٤

مما تقدم نستطيع أن نقول إن محمدعبده أباح ربا الفضل للضرورة والحاجة والمصلحة الراجحـــة . وقد بيّنا فساد ذلك وتهافته وان مصلحة المسلمين لا تكون بالتعامل بأي نوع من أنواع الربا مهما كانت الفائدة بسيطـــة . وهذه الإباحة منسجمة مع اتجـــاهه في التوفيق بين الإسلام وبين أحكام ومعالجات النظام الرأسمالي ، والربا والمصارف والفوائد مظهر من مظاهر هـذا النظام . ولو كان الرجل مخلصاً في دعوته لدعا المسلمين الى الرجوع الى الحياة الإسلامية بتطبيق نظام الإسلام الذي يُلغي الربا إلغـــاء تاماً ويطرده من حياة المجتمع الاسلامي . ولكن أنّى لمحمد عبده أن يفعل ذلك ، ففاقد الشيء لا يُعطيه كما يقولون ، والشيء من معدنه لا يُستغرب .

ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن علماء المسلمين والفقهاء اتفقوا على تحريم قليل الخمر وإن كان لا يُسكر ، وعلى تحريم الخلوة بالأجنبية وإن كان عنّيناً، وعلى تحريم النظر الى وجه المرأة الشابة ، إلى غير ذلك ممـا يكثر ويعلم على القطع والثبات أن الشرع حكم فيها بالمنع ، لأنها ذرائع المحرّمات. والربا أحق ما حُميَت مراتعه وسُدّت طرائقه .

إنكار تعدُّد الزوجات للمصريين

أباح الإسلام تعدُّد الزوجات ، وحـــدّد القرآن عددهن بأربع ، يقول تعالى : (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا)[1] . لكننا نرى الشيخ محمد عبده يفسّر هذه الآية وغيرها تفسيراً ينكر فيه أشد الإنكار تعـــدُّد الزوجات ، لأنه ينتج عنه فسادٌ في العلاقات الزوجية التي تقوم على نظام يمحو الثقة بين الرجل والمرأة ، ويوغر

---

(١) سورة النساء ، الآية ٣

صدور الضرائر بالأحقاد ، وينقل جراثيم العـداوة منهنّ الى أبنائهن وبناتهن وعشيرتهن .

وقبل دروس التفسير بنيّف وعشرين سنة كتب محمـــد عبده نفسه في « الوقائع المصرية » مقالاً تحت عنوان « حكم الشريعة في تعـدّد الزوجات » قال فيه : « أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربـع من النسوة ، إنْ علم من نفسه القدرة على العدل بينهن ، وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة .. وإن هذا الإلزام بالعدل أمر حتمي لا يحتمل تأويلا ، فكيف يسوّغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن إلا قضاء شهوة فانية ، واستحصال لذة وقتية ، غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ، ومخالفة الشرع الشريف » [1] .

ويقول محمد عبده في دروس التفسير عنـــد تفسيره للآية الثالثة من سورة النساء : « جاء ذكر تعدد الزوجات في سياق الكلام عن اليتامى والنهي عن اكل اموالهن ولو بواسطة الزوجية فقال إن احسستم من انفسكم الخوف من اكل مال الزوجة اليتيمة فعليكم ألا تتزوجوا بها فإن الله تعالى جعل لكم مندوحة عن اليتامى بما أباحه لكم من التزوج بغيرهن الى أربـع نسوة ، ولكن ان خفتم الا ّ تعدلوا بين الزوجات أو الزوجتين فعليكم أن تلتزموا واحدة فقط. ولما قال (فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة) علله بقوله (ذلك أدنى ألا تعولوا) أي أقرب من عدم الجور والظلم ، فجعل البعد من الجور سبباً في التشريـع ، وهذا مؤكد لاشتراط العدل ووجوب تحرّيه ومنبهٌ الى ان العـــدل عزيز . وقد قال تعالى في آية اخرى من هذه السورة (ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) ... فمن تأمل الآيتين علم ان إباحة تعـدد الزوجات في الاسلام أمر مضيق فيه اشد التضييق كأنـه ضرورة من الضرورات التي تباح لمحتاجها بشرط الثقـة بإقامة العدل والأمن من الجور . واذا تأمل المتأمل مع

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام : ٢/١٢٥ ، ١٢٧

هذا التضييق ما يترتب على التعدد في هذا الزمان من المفاسد جزم بأنه لا يمكن لأحدٍ ان يربي امة فشا فيها تعدد الزوجات ؟ فإن البيت الذي فيه زوجتان لزوج واحد لا تستقيم له حال ولا يقوم فيه نظام ، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على إفساد البيت كأن كل واحد منهم عدو للآخر ، ثم يجيء الأولاد بعضهم لبعض عدو ، فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد الى البيوت ومن البيوت الى الأمة .

كان للتعدد في صدر الاسلام فوائد اهمها صلة النسب والصهر الذي تقوى به العصبية ولم يكن له من الضرر مثل ماله الآن ، لان الدين كان متمكناً في نفوس النساء والرجال وكان اذى الضرة لا يتجاوز ضرتها. أما اليوم فإن الضرر ينتقل من كل ضرة الى ولدها الى سائر اقاربه فهي تغري بينهم العداوة والبغضاء : تُغري ولدها بعداوة إخوته وتغري زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها ، وهو بحماقته يطيع أحب نسائه اليه فيدب الفساد في العائلة كلها. ولو شئت تفصيل الرزايا والمصائب المتولدة من تعدد الزوجات لأتيت بما تقشعر منه جلود المؤمنين ؛ فمنها السرقة والزنا والكذب والخيانة والجبن والتزوير ، بل منها القتل حتى قتل الولد والده والوالد ولده والزوجة زوجها والزوج زوجته ، كل ذلك واقع ثابت في المحاكم ... اما والأمر على ما نرى ونسمع فلا سبيل الى تربية الأمة مع فُشُوّ تعدد الزوجات فيها ، فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة خصوصاً الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم ، فهم لا ينكرون أن الدين أُنزل لمصلحة الناس وخيرهم ، وان من أصوله منع الضّرر والضّرار ، فإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله ، فلا شك في وجوب تغيُّر الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة: يعني على قاعدة درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح . وبهذا يُعلم أن تعدد الزوجات محرّم قطعاً عند الخوف من عدم العدل »[١] .

---

(١) تفسير المنار ، ٣٤٨/٤–٣٥٠ ، الطبعة الرابعة .

فأنت ترى أن محمد عبده ينكر أشد الإنكار تعدُّد الزوجات للمصريين ومن على شاكلتهم من سائر المسلمين، وهو ينطلق من أن إباحة تعدد الزوجات في الإسلام أمر مضيّق فيه كأنه ضرورة من الضرورات بشرط الثقة بإقامة العدل ، ومن فساد أحوال التعدد في عصره بين المصريين الذين تزوجوا أكثر من واحدة، ومن دفاعه عن الإسلام في إباحته تعدد الزوجات؛ وكان كثير من المستشرقين ورجالات أوروبا وأمريكا يحملون على الإسلام بفعل إباحة تعدد الزوجات .

والآن نناقش محمد عبده فيما ذهب اليه ، فنقول: إن قوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورُباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة او ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا) تحديد عدد الزوجات بأربع، وكانوا في الجاهلية يزيدون على الأربع . وهذه الآية نزلت على النبي ﷺ في السنة الثامنة للهجرة ، وكان نزولها لتحديد عدد الزوجات بأربع ، وقد كان الى حين نزولها لا حد له . ومعنى الآية : تزوجوا ما لذّ لكم وطاب من النساء اثنتين وثلاثاً وأربعاً . والآية تُبيح تعدد الزوجات وتحدده بأربع ، ولكنها تأمر بالعدل بينهن ، وترغب في الاقتصار على الواحدة فيحالة الخوف من عدم العدل ، لأن الاقتصار على الواحدة في حالة الخوف من عدم العدل أقرب الى عدم الجور وهو ما يجب ان يتصف به المسلم .

إلا أنه يجب ان يعلم ان العدل هنا ليس شرطاً في إباحة تعدد الزوجات ، وانما هو حكم لوضع الرجل الذي يتزوج عدداً من النساء فيما يجب ان يكون عليه في حالة التعدد ، وترغيب في الاقتصار على الواحدة في حالة الخوف من عدم العدل ، وذلك ان معنى الجملة قد تم في الآيةفي قوله (فانكحوا ماطاب لكم من النساء ،ثنى وثلاث ورباع) . وهذا معناه جواز حصول التعدد مطلقاً ، وقد انتهى معنى الجملة ، ثم استأنف جملة أُخرى ركلاماً آخر فقال : (فإن خفتم)، ولا يتأتى انتكون (فإن خفتم) شرطاً لأنها لم تتصل بالجملة

الاولى اتصال الشرط ، بل هي كلام مستأنف ، ولو أراد أن تكون شرطاً لقال : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ان عدلتم). وذلك لم يكن ، فثبت ان العدل ليس شرطاً، وإنما هو حكم شرعي آخر غير الحكم الاول . فإنه أولاً أباح تعدد الزوجات بأربع ، ثم جاء بحكم آخر وهو ان الاولى الاقتصار على واحدة اذا رأى ان تزوجه بأكثر من واحدة يجعله لا يعدل بينهن . ومن ذلك يتبين ان الله تعالى أباح التعدد دون قيد ولا شرط ودون أي تعليل ، بل لكل مسلم ان يتزوج اثنتين وثلاثاً وأربعاً مما يطيب له من النساء ، ولهذا تجد الله تعالى يقول (ما طاب لكم) أي ما وجدتموه من الطيبات لكم ، ويتبين ان الله قد أمرنا بالعدل بين النساء ورغبنا في حالة خوف الوقوع في الجور بين النساء أن نقتصر على واحدة ، لأن الاقتصار على واحدة أقرب الى عدم الجور .

ومحمد عبده يرى ان التعدد في صدر الاسلام له فوائد أهمها صلة النسب والصهر ولم يكن له من الضرر مثل ما له الآن ، لأن الدين كان متمكناً في نفوس النساء والرجال . ولستُ ادري كيف يكون لحكم شرعي فوائد في عصر ثم تنقلب هذه الفوائد الى ضرر في عصره ؟ وكأن أحكام الاسلام تصلح في عصر ولا تصلح في عصر آخر . وهل عدم تمكن الدين في نفوس النساء والرجال مسوغ للإقتصار على زوجة واحدة وإنكار التعدد ؟ مع ان الاولى ان يدعو محمد عبده مسلمي عصره الى الرجوع الى الاسلام وإعادة الإيمان به إيماناً قوياً وتطبيقه عليهم . ولكنه يريد ان يوفق بين الاسلام وبين أوضاع المسلمين التي يصوغها ويشكلها النظام الرأسمالي واحكامه ومعالجاته وأنا على يقين من أن محمد عبده لا يقف هذا الموقف من تعدد الزوجات لو كانت أوروبا وأمريكا تبيح تعدد الزوجات . ولا يجوز لمحمد عبده أن يتخذ أخطاء بعض المصريين في تعدد الزوجات سبباً أو حجة لإنكار التعدد .

فالخطأ هنا خطأ بعض المصريين وليس خطأ الاسلام واحكامه . والله سبحانه

عندما وضع لنا الاحكام والمعالجات كان يعلم أن هذه الاحكام والمعالجات تصلح لكل زمانٍ ومكان ، لانه خالق الكون والإنسان والحياة ، وهو ادرى بما يصلح للبشر وبما يؤذيهم . ومن كلام محمد عبده نُحِسُّ انهزاميته الفكرية وانه مضبوع بالفكر الرأسمالي والاحكام والمعالجات الرأسمالية . والغريب انه في حالة التوفيق والتلفيق يستند الى بعض القواعد الفقهية مثل قاعدة دَرْء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، والضرورة والمصلحة الراجحة ، والرخصة. ومعلوم انه لا يجوز الاجتهاد في مورد النص أبداً . ولا يجوز ان يعالج الخطأ بالخطأ ، بل يعالج بالرجوع الى الصحيح ، وهو نظام الاسلام واحكامه ومعالجاته .

ونريد أن نسأل الآن انصار الشيخ محمد عبده هذا السؤال : هل انحطاط المسلمين الآن راجعٌ الى اباحة تعدُّد الزوجات ؟ واذا كان ذلك كذلك فلماذا كانوا خيرَ امة أُخرجت للناس وكانت دولتهم دولة الدنيا مع ان اباحة التعدُّد موجودة وقائمة ؟ لا شك ان انحطاط المسلمين وتخلفهم راجع الى تطبيق النظام الرأسمالي الفاسد عليهم . والى نفس النتيجة التي خرج بها محمد عبده في تحريم تعدد الزوجات عند الخوف من عدم العدل انتهت ايضاً حركة الارشاد الهندية « أمير علي » ، اذ صرح قادتها بأن تعدد الزوجات في الاسلام غير مطابق للشرع مطلقاً ، وهو اقتناع نفذ في مصر ايضاً الى دوائر من الشيوخ ظلت فيما عدا ذلك بعيدة عن اتجاهات الإرشاد الحديث . والمعروف أن السيد أمير علي الهندي يشبه السيد أحمد خان الهندي في دعوته الاصلاحية . ومثل هذين مثل محمد عبده في مصر في مهادنة الانجليز والتوفيق بين الاسلام وبين احكام ومعالجات النظام الرأسمالي .

وقد كان أمير علي مضبوعاً بالثقافة الغربية ، وقد خاصمه كثير من المسلمين لانه متزوج انجليزية ، ويتبع النمط الانجليزي في معيشته الخاصة [١] .

---

(١) انظر زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، ص ١٤١ .

أرأيت بريطانيا عدوة الاسلام الاولى كيف كانت تسخّر محمد عبده في مصر وأحمد خان وأمير علي في الهند لتحريم ما احل الله وإباحة ما حرمه ؟ وكيف كان هؤلاء يهدمون ويعطلون احكام الاسلام بهذا التأويل السخيف المتهافت ؟ وكيف اباح محمد عبده ربا الفضل للضرورة والمصلحة الراجحة وحرم تعدد الزوجات عند الخوف من العدل وقد بينا ان الله اباح التعدد دون قيد أو شرط ودون أي تعليل ؟ ويجب أن نذكر أن الماسوني الكبير مصطفى كال اتاتورك اليهودي الاصل الغى تعدد الزوجات على الاتراك المسلمين واجبرهم على التزوج بواحدة بقانون وضعه لهذا الغرض ، كما اجبرهم على لبس البرنيطة تشبهاً بالغرب ومنع لبس الطربوش .

المساواة الأدبية بين الرجل والمرأة

إن نزعة الدفاع في تفسير محمد عبده عن الاسلام جعلته يخطو خطوة ابعد من قوله ان تعدد الزوجات في الامة لا يتفق مع التربية السليمة وفيه حط من مقام الزوجة ومكانتها ، بل تعدى ذلك الى اقامة الحجة على أن الفهم المنطقي للقرآن يثبت المساواة الادبية الكاملة بين الرجل والمرأة ، وهو متأثر في هذا الرأي بأفكار الغرب وقيمه ومقاييسه في الحياة ، على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى: (فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض .. الآية) [1] » وذكر أن الذكر والانثى متساويان عند الله تعالى في الجزاء ، تساوياً في العمل حتى لا يغتر الرجل بقوته ورياسته على المرأة فيظن انه اقرب الى الله منها ، ولا تسيء المرأة الظن بنفسها فتتوهم ان جعل الرجل رئيساً عليها يقتضي ان يكون أرفع منزلة عند الله تعالى منها. وقد بين الله تعالى علة هذه المساواة بقوله (بعضكم من بعض)، فالرجل مولود من المرأة والمرأة مولودة من الرجل ، فلا فرق بينهما في البشرية

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩٥ .

ولا تفاضل بينهما إلا بالاعمال، أي وما تترتب عليه الاعمال ويترتب هو عليها من العلوم والاخلاق »[1] . وعندما يسمع الرجل الغُمر هذا الكلام لا يجد به بأساً ، وقد يعجب به . ولكن المدقق ذا العقل الحصيف يرى فيه غير ذلك. فنحن لا نخالف محمد عبده في قوله إن الذكر والانثى متساويان أمام الله في الجزاء . ولكننا نخالفه في اطلاق المساواة بين الرجـــل والمرأة . فالمرأة في عرف الاسلام كائن إنساني له روح انسانية من نفس النوع الذي منـــه روح الرجل (يأيهـــا الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء) . وحرمة الدم والعرض والمال والكرامة حقوق مشتركة لا تميز فيهـــا بين جنس وجنس . والاوامر والتشريعات فيها عامة للجميع . والجزاء في الآخرة واحد للجنسين . وتحقيق الكيان البشري في الارض متاح للجنسين : الأهليـــة للملك والتصرف فيـه بجميع أنواع التصرف من رهن واجارة ووقف وبيع وشراء واستغلال .

ولكن الإسلام بعد تقرير المساواة الكاملة في الانسانيـة ، والمساواة في جميع الحقوق التي تتصل مباشرة بالكيان البشري المشترك بين الجميع – يفرق بين الرجل والمرأة في بعض الحقوق وبعض الواجبات . وقبـــل الدخول في تفصيل هذه المواضع التي يفرق فيها الاسلام بين الرجل والمرأة ينبغي أولا أن نرد المسألة الى جوهرها الحقيقي ، الى اصولهـــا الفسيولوجية والبيولوجية والسيكولوجية وتبعاً لهـــذا الاختلاف الحاسم في المهمة والاهداف اختلفت طبيعة الرجل والمرأة ، ليواجه كل منهما مطالبه الاساسية وقد زودته الحياة بكل التيسيرات الممكنة ، ومنحته التكييف الملائم لوظيفته[2] .

وإن محمد عبده في مقولته بإطلاق المساواة بين الرجل والمرأة دون تقييد

---

(١) تفسير المنار ، ٥/٤ ٣٠ وما بعدها .

(٢) انظر شبهات حول الاسلام ، ص ١٠٠ – ١٠٤ .

قد فتح الباب على مصراعيه لقاسم أمين الذي يسمى محرر المرأة زوراً وزيفاً لأن يكتب كتابيه : « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » .

وأخطر ما في هذه الدعوة وأمثالها مما يراد به حملنا على كل فاسد من مذاهب الغرب أن اصحابها يريدون إقحامها على إسلامنا زاعمين انها لا تعارضه. وقد كان قاسم أمين هو أول من جرأ الناس على تحريف النصوص حين طلع علينا بطائفة من المزاعم التي تقوم على المجازفة ، ومن النصوص المحرفة عن مواضعها والمخلوعة من سياقها خلعاً يخرجها عن مدلولها، وحين تصيد من كتب التاريخ ورواياته - على اختلاف درجاتها ودرجات مؤلفيها - كل شاذ غريب فحشدها في حيز واحد وضم بعض اشتاتها الى بعض ، حتى خيل الى قارئها انها - على شذوذها وقلتها - شيء مألوف كثير الوقوع .

ومع أن هذا الذي جمعه هو خلاصة ما في الكتب - صحيحها وسقيمها - من غرائب الأخبار والآراء التي تصور حالات شاذة نادرة لا تنهض بها حجة ولا يبطل بها عُرف، ومع ان كثيراً من النصوص التاريخية أو الفقهية التي اقتطفها ناقصة الدلالة غامضة العبارة ، فقد استطاع أن يروّج ذلك كله بين الناس بمرور الايام ، بفضل قوة حزبه الذي كان يسمية اللورد كرومر حزب الشيخ محمد عبده،حتى أصبحت هذه النصوص من بعد - على فساد الاستدلال بها - هي البضاعة المشتركة لمتابعي دعوته ومطوّريها [١] .

فمحمد عبده هو الذي اعطى اشارة الضوء الاخضر لقاسم أمين وأمثاله ، وحزب محمد عبده هو الذي روّج لهذه الأفكار بين الناس بمرور الأيام .

وقاسم أمين في كتاب « تحرير المرأة » الذي طبع سنة ١٨٩٩ انصرف فيه جهده الى التدليل على ما زعمه من ان حجاب المرأة بوضعه السائد ليس من الاسلام ، وان الدعوة الى السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده

---

(١) انظر حصوننا مهددة من داخلها ، ص ١١٥ وما بعدها .

بينما غلب المنهج الغربي الحديث على كتابه الثاني « المرأة الجديدة » الذي طبع سنة ١٩٠٠ م . ومعنى ذلك ان الكتابين طبعا في حياة محمد عبده .

ويتضح من منهج المؤلف في كتـاب « تحرير المرأة » التوفيق بين الاسلام وبين مذاهب الغربيين . والكتاب هذا ليس كتاب فقه ، وصاحبه ليس فقيهاً يعرض لشرح النصوص الاسلامية شرحاً نزيهاً ليستنبط منها ، ولكنه كتاب موجّه لخدمة فكرة معينة يحاول المؤلف ان يُسخّر النصوص لخدمتها . لذلك جاء كتابه مملوءاً بالمغالطات ، سواءٌ كان ذلك في تفسير الآيات القرآنية أو في النصوص التاريخية والفقهية أو الادلة العقلية . وهـذا الاتجاه الذي يُفسر النصوص تفسيراً جديداً مخالفاً لكل ما هو ثابت متواتر في تفسيرها هو جزء من اتجاه عام تزعّمه الشيخ محمد عبده متـذرعاً اليه بالدعوة الى فتح باب الاجتهاد الذي زعم ان الفقهاء قـد أغلقوا بابه ، وهو يدعو الى الملاءمة بين الاسلام وبين الحضارة الغربية . ومن المعروف المشهور ان مؤلف الكتاب « تحرير المرأة » ليس له إلمـام بالعلوم الاسلامية . ولذلك شاع بين الناس وقتذاك أن مؤلفه في الحقيقة هو الشيخ محمد عبده أُستاذ قاسم أمين [1] .

ومن الغريب أن قاسم أمين وأمثاله جاءوا بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن ليخرجوا للناس حقائق التنزيل التي غاب علمها عن الأولين والآخرين من الفقهاء والمفسرين ، ويضربوا بإجماع المسلمين في الاجيال المتعاقبة والقرون المتطاولة عُرض الحـائط . أليس ابتداع هذه الدعوة في ظل الاحتلال الإنجليزي وتزعم فريق من المتفرنجين الذين عُرفوا بموالاة ذلك الاجنبي المحتل ، هو وحده دليـلا كافياً على انها طارئة علينا من الغرب تقليـداً لمذاهب أهله المبتدعين في دينهم بأهوائهم وأهواء رؤسائهم والخـارجين على نصرانيتهم وكتابهـا ؟

وأول أخطاء هؤلاء أنهم يجعلون أكبر همهم مصروفاً الى إثبات ان المرأة

---

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : ١/٢٧٣ - ٢٨٢ .

تستطيع القيام بأعمال الرجل ، وأنها إنسان مثله لا فرق بين عقلها وعقله . ومن الواضح ان عمل الانثى الاول الذي لا يصلح له غيرها هو النسل وحفظ النوع. ومن الثابت ان إرهاق المرأة بالعمل يترك أثراً في مزاجها وفي أعصابها ، ومن الثابت ايضاً ان ذلك الاثر ينتقل الى جنينها في حالة الحمل ، كما ينتقل الى طفلها في حالة الرضاعة. واعتماد المرأة العاملة على الخدم وعلى دور الحضانة في رعاية وليدها لا يؤدي الى كمال تنشئته ، لان الاخلاص له والحرص على ابتغاء الكمال من كل وجه لا يتوافر في أحد توافره في الام ، لأن من وراء اخلاصها وحرصها غريزة الامومة .

ولجوء الام العاملة الى الوسائل الصناعية في ارضاع طفلها خيانة للأمانة وتفريط فيها وتعطيل لسنة الله، لأن الله سبحانه لم يخلق ثدي الانثى لتبرزه في السهرات وتكشف عن جماله وتنصبه شركاً في الطرقات ، ولكنه أوجده أصلاً للإرضاع [1] .

وهكذا نرى خطر أقوال محمد عبده التي كان يبثها في أثناء دروس التفسير وفي كتابة التفسير من مثل قوله بالمساواة الأدبية بين الرجل والمرأة . وكيف جاء تلاميذه في حياته وبعدها ليروّجوا لأفكار غريبة عن الاسلام في بلاد المسلمين ، مسخّرين النصوص بطريقة تعتمد على المغالطات والتلفيق لخدمة هذه الأفكار . ونرى كيف سار قاسم أمين على خط أستاذه محمد عبده في تفسير النصوص تفسيراً جديداً مخالفاً لكل ما هو ثابت متواتر في تفسيرها ليقوم بالملاءمة والتوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية .

فتوى لأهل الهند بالعمل بالقوانين الانجليزية

لم يتوقف محمد عبده عند حد التوفيق بين الاسلام وبين الأحكام والمعالجات الرأسمالية، بل وصل الى حد مدح سياسة الانجليز في التسامح وإقامة العدل،

---

(١) — انظر كتاب « حصوننا مهددة من داخلها » ص ١٢٤ - ١٢٧ .

والتساهل في العمل بالقوانين الانجليزية ولا يرى ضيراً في ترك أحكام الاسلام بحجة الرخصة ومصلحة المسلمين .

ومحمد عبده في غير إنتاجه التفسيري يروّج لفكرة سياسة الانجليز في التسامح وإقامة العدل على شاكلة قوله تحت عنوان « سياسة الانجليز في التسامح » : « نعم ، نحن لا ننكر أن بين الأمم الاوروبية أمة تعرف كيف تحكم من ليس على دينها وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم وهي الامة الانجليزية ، فهي وحدها الامة المسيحية التي تقدّر التسامح حق قدره ، ولا يصعب علينا أن نقول : إن منشأ ذلك أن أمراءها في الحروب الصليبية وقوّاد جيشها كانوا من أشد الصليبيين علاقة بسلطان المسلمين وأمراء جيشه . وقد امتاز الانجليز في ذلك الزمن المظلم بدرس عقائد المسلمين وعاداتهم ، فحملوا من ذلك شيئاً كثيراً الى بلادهم ، ولم تحجبهم غشاوة التعصب عن إبصار ضوء الحق، وظهر أثر ذلك في أقلام كثير من كتّابهم مثل ولتر سكوت وشيل وغيرهما قبل أن يظهر في أقلام الكاتبين من غير الانجليز بأزمان طويلة . فلنا أن نقول ولا نخشى لائماً : إن هذه الخصلة الشريفة – خصلة إطلاق الحرية لأهل الدين يتمتعون بأداء فرائضه مع احترام ما يحترمون – هي من أجلّ الخصال ورثها غير المسلمين عن المسلمين . وهل أجد من يأبى عليّ القول بأن الاسلام السليم من البدع هو أستاذ الانجليز وعنه أخذوا هذه الخلّة ؟ ألا ترى أن نظامهم في ذلك يقرب من نظام المسلمين يوم كانوا مسلمين : يكتفون من الناس بالخضوع للقوانين وأداء ما يفرض عليهم من الضرائب، ثم يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ما تسمح به السياسة لا يفرّقون بين دين ودين . وهكذا كان حال المسلمين وإن كان ذلك على قاعدة أبرّ وأرحم » [1] .

وهذا الموقف يؤكده محمد عبده في جواب أو فتوى لسؤال سأله مولوي

---

(١) – محمد عبده « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » ص ١٧٩ وما بعدها .

نور الدين مفتي بنجاب من الهند عن مسألة الحكم بالقوانين الانجليزية . وقد حوّل محمد عبده هذه المسألة الى تلميذه محمد رشيد رضا ليجيب عنها كما كان يفعل في أمثالها أحياناً . وهذا نص جواب محمد رشيد رضا عن مسألة الحكم بالقوانين الانجليزية في الهند ، وهو الفتوى السابعة والسبعون من فتاوى المجلد السابع من المنار . وهذه الفتوى وإن كانت من كلام محمد رشيد رضا ، فانها تعدّ من كلام محمد عبده الاستاذ . وقد ذكرنا في أول حديثنا عن مدرسة محمد عبده في التفسير أن محمد رشيد رضا ترجمان أفكار محمد عبده وموضّحها وشارحها وان شئت فقل إنه الناطق الرسمي للشيخ محمد عبده . وفضلاً عن ذلك فإن كلام محمد عبده الذي أورده في كتاب « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » لا يختلف عن جوهر هذه الفتوى ، يقول محمد رشيد رضا : « أيجوز للمسلم المستخدم عند الانجليز الحكم بالقوانين الانجليزية وفيها الحكم بغير ما أنزل الله ؟ (ج) : إن هذا السؤال يتضمن مسائل من أكبر مشكلات هذا العصر كحكم المؤلفين للقوانين وواضعيها لحكوماتهم وحكم الحاكمين بها والفرق بين دار الحرب ودار الاسلام فيها . وانا نرى كثيرين من المسلمين المتدينين يعتقدون أن قضاة المحاكم الاهلية الذين يحكمون بالقانون كفار أخذاً بظاهر قوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون). ويستلزم الحكم بتكفير القاضي الحاكم بالقانون تكفير الأمراء والسلاطين الواضعين للقوانين ، فانهم وان لم يكونوا ألّفوها بمعارفهم فانها وضعت بإذنهم ، وهم الذين يولّون الحكام ليحكموا بها ، ويقول الحاكم من هؤلاء : أحكم باسم الامير فلان لأنني نائب عنه بإذنه ، ويطلقون على الامير لفظ « الشارع » .

أما ظاهر الآية فلم يقل به أحد من أئمة الفقه المشهورين ، بل لم يقل به أحد قط . فإن ظاهرها يتناول ما لم يحكم بما أنزل الله مطلقاً سواء حكم بغير ما أنزل الله تعالى أم لا ، وهذا لا يكفّره أحد من المسلمين حتى الخوارج الذين يكفّرون الفسّاق بالمعاصي ومنها الحكم بغير ما أنزل الله . واختلف أهل السنّة في الآية ، فذهب بعضهم الى أنها خاصة باليهود ، وهو ما رواه

سعيد بن منصور وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : إنما أنزل الله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، والظالمون والفاسقون » في اليهود خاصة . وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال : الثلاث الآيات التي في المائدة (ومن لم يحكم بما أنزل الله) الخ ليس في أهل الاسلام منها شيء هي في الكفار . وذهب بعضهم الى أن الآية الأولى التي فيها الحكم بالكفر للمسلمين والثانية التي فيها الحكم بالظلم لليهود ، والثالثة التي فيها الحكم بالفسق للنصارى ، وهو ظاهر السياق وذهب آخرون الى العموم فيها كلها، ويؤيده قول حذيفة لمن قال انها كلها في بني اسرائيل : نعم الاخوة لكم بنو اسرائيل ان كان لكم كل حلوة ولهم كل مرّة ، كلا والله لتسلكن سبيلهم قدّ الشراك . رواه عبد الرزاق وابن جرير والحاكم وصحّحه . وأول هذا الفريق الآية بتأويلين : فذهب بعضهم الى أن الكفر هنا ورد بمعناه اللغوي للتغليظ لا معناه الشرعي الذي هو الخروج من الملّة — واستدلّوا بما رواه ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكفر الواقع في أحدى الآيات الثلاث انه ليس بالكفر الذي تذهبون اليه ، انه ليس كفراً ينقل عن الملّة ، كفر دون كفر . وذهب بعضهم الى أن الكفر مشروط بشرط معروف من القواعد العامة ، وهو أن من لم يحكم بما أنزل الله منكراً له أو راغباً عنه لاعتقاده بأنه ظلم مع علمه بأنه حكم الله أو نحو ذلك مما لا يجامع الايمان والإذعان .

ولعمري إن الشبهة في الأمراء الواضعين للقوانين أشد والجواب عنهم أعسر ، وهذا التأويل في حقهم لا يظهر . وأن العقل ليعسر عليه أن يتصور ان مؤمناً مذعناً لدين الله يعتقد أن كتابه يفرض عليه حكماً ثم هو يغيّره باختياره ويستبدل به حكماً آخر بارادته إعراضاً عنه وتفضيلا لغيره عليه ويعتدّ مع ذلك بإيمانه وإسلامه . والظاهر أن الواجب على المسلمين في مثل هذه الحال مع مثل هذا الحاكم أن يلزموه بإبطال ما وضعه مخالفاً لحكم الله ولا يكتفوا بعدم مساعدته عليه ومشايعته فيه ، فان لم يقدروا! فالدار لا

لا تعتبر دار إسلام فيما يظهر ، وللاحكام فيها حكم آخر . وهـا هنا يجيء سؤال السائل ، وقبل الجواب عنه لا بد من ذكر مسألة يشتبه الصواب فيها على كثير من المسلمين وهي : إذا غلب العدو على بعض بلاد المسلمين وامتنعت عليهم الهجرة فهل الصواب أن يتركوا له جميع الأحكام ولا يتولـّوا له عملا أم لا ؟ يظن بعض الناس أن العمل للكافر لا يحلّ بحال ، والظاهر لنا أن المسلم الذي يعتقد أنه لا ينبغي أن يحكم المسلم إلا المسلم وأن جميع الأحكام يجب أن تكون موافقة لشريعته وقائمة على أصولها العادلة ينبغي له أن يسعى في كل مكان بإقامة ما يستطيع إقامته من هذه الأحكام ، وأن يحول دون تحكم غير المسلمين بالمسلمين بقدر الإمكان – وبهذا القصد يجوز له أو يجب عليه أن يقبل العمل في دار الحرب إلا اذا عـلم أن عمله يضرّ بالمسلمين ولا ينفعهم ، بل يكون نفعه محصوراً في غيرهم ، ومعيناً للمتغلب على الإجهـاز عليهم . واذا هو تولى لهم العمل وكُلف الحكم بقوانينهم فماذا يفعـل وهو مأمور بأن يحكم بما أنزل الله ؟ أقول : إن الأحكام المنزلة من الله تعالى منها ما يتعلق بالدين نفسه كأحكام العبـادات وما في معناها كالنكاح والطلاق وهي لا تحلّ مخالفتها بحال ، ومنها ما يتعلق بأمر الدنيا كالعقوبات والحدود والمعاملات المدنية . والمنزّل من الله تعالى في هذه قليل وأكثرها موكول الى الاجتهاد . وأهم المنزّل وآكده الحدود في العقوبات ، وسائر العقوبات تعزير مفوّض الى اجتهاد الحاكم ، والربا في الأحكام المدنية . وقد ورد في السنّة النهي عن إقامة الحدود في أرض العدو . وأجاز بعض الأئمة الربا فيها ، بل مذهب أبي حنيفة أن جميع العقود الفاسدة جائزة في دار الحرب واستدل له بمراهنة أبي بكر رضي الله عنه لأبي بن خلف على أن الروم يغلبون الفرس في بضع سنين وإجازة النبي ﷺ ذلك ، وصرّحوا بعدم إقامة الحدود فيهـا ، روي ذلك عن عمر وأبي الدرداء وحذيفة وغيرهم وبه قال أبو حنيفة . قـال في أعلام الموقعين : « وقد نص أحمد وإسحق بن راهويه والأوزاعي وغيرهم من علماء الاسلام على أن الحدود لا تُقام في أرض العدو » وذكرها أبو القاسم

الخرقي في مختصره فقال : « لا يُقام الحد على مسلم في أرض العدو ، وقد أتي بسر بن أرطأة برجل من الغزاة قد سرق مجنّه فقال : لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا تقطع الأيدي في الغزو » لقطعتها» . رواه أبو داود وقال أبو محمد المقدسي : وهو إجماع الصحابة . روى سعيد بن منصور في سننه بإسناده عن الأحوص بن حكيم عن أبيه أن عمر كتب الى الناس ألا يجلدوا أمير جيش ولا سرية ولا رجلا من المسلمين حداً وهو غاز حتى يقطع الدرب قافلاً لئلا تلحقه حميّة الشيطان فيلحق بالكفّار . وعن أبي الدرداء مثل ذلك. ثم ذكر ترك سعد إقامة حدّ السكر على أبي محجن في واقعة القادسية. وذكر أنه قد يحتج به من يقول : لا حدّ على مسلم في دار الحرب كما يقول أبو حنيفة ، ولكنه علّله تعليلا آخر ليس هذا محل ذكره . وانظر تعليل عمر تجده يصح في بلاد الحرب . فعلم مما تقدم أن الأحكام القضائية التي أنزلها الله تعالى قليلة جداً · وقد علمت ما قيل في إقامتها في دار الحرب لا سيما عند الحنفية . فاذا كانت الحدود لا تُقام هناك فقد عادت أحكام العقوبات كلها الى التعزير الذي يفوّض الى اجتهاد الحاكم . والأحكام المدنية أولى بذلك لأنها اجتهادية أيضاً ، والنصوص القطعية فيها عن الشارع قليلة جداً . واذا رجعت الأحكام هناك الى الرأي والاجتهاد في تحري العدل والمصلحة ، وأجزنا للمسلم أن يكون حاكماً عند الحربي في بلاده لأجل مصلحة المسلمين ، فالذي يظهر أنه لا بأس من الحكم بقانونه لأجل منفعة المسلمين ومصلحتهم . فان كان ذلك القانون ضاراً بالمسلمين ظالماً لهم فليس له أن يحكم به ولا أن يتولى العمل لواضعه إعانة له .

وجملة القول إن دار الحرب ليست محلا لإقامة أحكام الاسلام . ولذلك تجب الهجرة منها الا لعذر أو مصلحة للمسلمين ، يؤمن معها من الفتنة في الدين ، وعلى من أقام ان يخدم المسلمين بقدر طاقته ، ويقوّي أحكام الاسلام بقدر استطاعته . ولا وسيلة لتقوية نفوذ الاسلام وحفظ مصلحة المسلمين مثل تقلد أعمال الحكومة ، ولا سيا اذا كانت الحكومة متساهلة قريبة من العدل

بين جميع الأمم والملل كالحكومة الانجليزية . والمعروف ان قوانين هذه الدولة أقرب الى الشريعة الاسلامية من غيرها ، لأنها تفوّض أكثر الأمور الى اجتهاد القضاة ، فمن كان أهلاً للقضاء في الاسلام وتولي القضاء في الهند بصحة قصد وحسن نية يتيسر له أن يخدم المسلمين خدمة جليلة . وظاهر ان ترك أمثاله من أهل العلم والغيرة للقضاء وغيره من أعمال الحكومة تأثماً عن العمل بقوانينها يضيّع على المسلمين معظم مصالحهم في دينهم ودنياهم . وما نُكب المسلمون في الهند ونحوها وتأخروا عن الوثنيين إلا بسبب الحرمان من أعمال الحكومة. ولنا العبرة في ذلك بما يجري عليه الأوروبيون في بلاد المسلمين ، إذ يتوسلون بكل وسيلة الى تقلد الأحكام، ومتى تقلدوها حافظوا على مصالح أبناء ملتهم وجنسهم ، حتى كان من أمرهم في بعض البلاد ان صاروا أصحاب السيادة الحقيقية فيها ، وصار حكامها الأولون الآن في أيديهم .

والظاهر مع هذا كله ان قبول المسلم للعمل في الحكومة الانجليزية في الهند (ومثلها ما هو في معناها) وحكمه بقانونها هو رخصة تدخل في قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، ان لم يكن عزيمة يقصد بها تأييد الاسلام وحفظ مصلحة المسلمين . ذلك ان تعدّه من باب الضرورة التي نفذ بها حكم الإمام الذي فقد أكثر شروط الإمامة ، والقاضي الذي فقد أهم شروط القضاء ونحو ذلك . فجميع حكام المسلمين في أرض الاسلام اليوم حكام ضرورة . وعُلم مما تقدم ان من تقلد العمل الحربي لأجل ان يعيش براتبه فهو ليس من أهل الرخصة ، فضلاً عن ان يكون من أصحاب العزيمة ، والله أعلم »[1] .

وهذه الفتوى وردت بصدد تفسير قوله تعالى ، في الآية ٤٧ من سورة المائدة (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) .

---

(١) تفسير المنار : ٤٠٦/٦ - ٤٠٩

وهذه الفتوى للشيخ محمد عبده ، مع أن الذي خرج بها تلميذه محمد رشيد رضا الناطق الرسمي وترجمان آرائه وأفكاره ، فيها جـــرأة على دين الله في تفسير هذه الآية ، إذ أجاز لأهل الهند من المسلمين أخذ القوانين الانجليزيـة والخضوع لأحكام القضاة الانجليز ، بحيث لا يُعتبر تفسير الشيخ محمد عبده ولا يعدّ من كتب التفسير عند المسلمين . ونحن نعتقد أن محمد عبده في مثل هذه التأويلات والفتاوى يخدم أول ما يخـــدم الانجليز الكفّار في الهند ومصر وجميع بلاد المسلمين التي يحتلونها .

ونحن الآن نناقش هذه الفتوى ونثبت بطلانها وتهافتها ومخالفتها لما عرف عند الاسلام والمسلمين من أن الفتوى والاجتهاد لا يجوز في ما ورد فيه نص إطلاقاً .

فالثلاث الآيات التي وردت في سورة المـائدة : (ومن لم يحكم بمـا أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ، (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) ، (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) [١] وان كانت خطابـــاً خاصاً لأهل الكتاب ، بني إسرائيل والنصارى فان المراد بها جميعها العموم ، لأن الجملة (ومن لم يحكم بما أنزل الله) تفيد التعميم وإطلاق من أنزل عليهم حكم الله وشرعه . والمسلمون يندرجون تحت هذا الخطاب الذي يفيـــد التعميم . وليس هناك قرينة تدل على التخصيص . فلو أراد التخصيص لقال : ومن لم يحكم بما أنزل الله من أهل التوراة والإنجيل فأولئك هم الكافرون ، والظالمون ، والفاسقون . ونحن نعلم يقيناً أن القرآن نزل بأسلوب العرب وعلى منوالهم في التعبير . وهذا ما يفهمه العربي الصريح من هـــذه الآيات . ونحن نعـــلم أن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا إلا إذا ورد ما يدل على التعميم فينسحب ذلك علينا. هذه واحدة ، والثانية أن آيات عديدة تخاطب الرسول

---

(١) سورة المائدة ، الآيات ٤٤،٤٥،٤٧ .

ﷺ لأن يحكم المسلمين بما أنزل الله ، ومعلوم أن الخطاب في هذه الآيات وان كان للرسول عليه السلام فإنه ينسحب على المسلمين من بعده ، وغير الآيات الثلاث التي وردت في سورة المائدة قوله تعالى: (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ... الآية)[1] ، وقوله تعالى: (وان احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك فإن تولّوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون)[2] ، وقوله تعالى : (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)[3] . فأنت ترى أن هذه الآيات الثلاث التي تأخذ بعضها برقاب بعض ليس فيها خطاب لأهل الكتاب ألبتة ، والخطاب للرسول ﷺ في حياته وللمسلمين من بعده عليه السلام . وفيها كلها تشديد على الحكم بما أنزل الله على محمد عليه السلام وهو القرآن الكريم كتاب الاسلام . وهذه الآيات جاءت بعد تلك الآيات الثلاث التي الخطاب فيها لأهل الكتاب والمراد به التعميم . فهذه الآيات تؤكد ما ذهبنا إليه وتعضده . وقال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما)[4] .

ففي هذه الآيات وغيرها أمر صريح واضح بالحكم بما أنزل الله ، ونهي صريح واضح عن تحكيم غير ما أنزل الله . ويعضد هذا قول الرسول ﷺ: (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو ردّ) . والحكم بما أنزل الله لا يكون إلا بإقامة الدولة الاسلامية . ورسول الله عليه السلام يدرك إدراكاً واضحاً أنه كان يقوم بعمل رئيس الدولة من إقامة حدود الله وتسيير الجيوش وعقد

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٨ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٤٩ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٥٠ .

(٤) سورة النساء ، الآية ٦٥ .

المعاهدات ومخاطبة ملوك الأرض بالدخول في الاسلام .

ومما يعضد ذلك ويدعمه من الأحاديث قوله ﷺ (من مات ولم يكن في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) ، وقوله عليه السلام (اذا بويع لإمامين فاقتلوا الآخر منهما) .

ومما يعضد ذلك ويدعمه قول الصاحبين محمد بن الحسن الشيباني وأبي يوسف صاحبي أبي حنيفة النعمان رضي الله عنهم : (تصبح الديار ديار إسلام متى ظهرت أحكام الاسلام فيها ولو كان معظم أهلها غير مسلمين ، وتصبح الديار ديار كفر متى ظهرت أحكام الكفر فيها ولو كان معظم أهلها مسلمين) . فالعبرة اذن ليست بكثرة المسلمين أو قلّتهم وانما بإقامة حكم الله في الديار .

وقد أقام الرسول عليه السلام الدولة الاسلامية في المدينة منذ أن هاجر إليها ، وسار الصحابة الخلفاء الراشدون على هدي الرسول عليه السلام ، وتابعهم على ذلك الأمويون والعباسيون والفاطميون والأيوبيون والمماليك والعثمانيون حتى جاء الغادر الخائن لأمته مصطفى كمال الماسوني اليهودي الأصل وألغى الخلافة الاسلامية في إسلامبول سنة ١٩٢٤م ليصبح بعدها رئيس الجمهورية التركية الحديثة .

وقد ذكرنا سابقاً أن محمد عبده كان يحتال في تفسيره وفتاواه على بعض القواعد الفقهية الغير المجمع عليها والتي فيها نظر كما يقال ، كقاعدة الضرورة والمصلحة الراجحة ، والرخصة ، ودرء المفاسد مقدّم على جلب المصالح وغيرها .

فقد ذكر محمد عبده على لسان تلميذه رشيد رضا في الفتوى السابقة أن قبول المسلم العمل في الحكومة الانجليزية في الهند (ومثلها ما هو في معناها) وحكمه بقانونها هو رخصة تدخل في قاعدة ارتكاب أخفّ الضررين ، إن لم يكن عزيمة يقصد بها تأييد الاسلام وحفظ مصلحة المسلمين . والعزيمة هي ما

شرع من الأحكام تشريعاً عاماً وألزم العباد بالعمل به ، والرخصة ما شرع من الأحكام تخفيفاً للعزيمة لعذر مع بقاء حكم العزيمة ولم يلزم العباد العمل به. فمثلا الصوم عزيمة والفطر للمريض رخصة، وغسل العضو في الوضوء عزيمة، والمسح على العضو المجروح أو المكسور رخصة، والصلاة قائماً عزيمة، والقعود في الصلاة عند العجز رخصة ، وهكذا فالعزيمة ما كان تشريعه عاماً فلا تختصّ ببعض المكلفين دون بعض ، ولا يخيّر بين العمل بها والعمل بغيرها بل يلزم بالعمل بها وحدها ، والرّخصة ما كان تشريعه طارئاً لعذر فيكون تشريعه معتبراً ما وُجد العذر ، ولا يُعتبر اذا زال العذر ، وهو خاص بالمكلفين المتّصفين بهذا العذر وحده .

والرخصة حتى تعتبر رخصة شرعاً لا بد أن يدلّ عليها دليل شرعي ، وما لم يدلّ عليها دليل شرعي لا تعتبر رخصة ، فإنها حكم شرعه الله بعذر ، فالعذر سبب شرعية الحكم وهو جزء من شرعيته ، فلا بد أن يدلّ عليه دليل شرعي ، على أن الرخصة تعتبر من الأسباب الشرعية ، وهي نفسها حكم من أحكام الوضع ، وهي خطاب الشارع المتعلق بأفعال العباد بالوضع ، وما دامت هي نفسها خطاب الشارع فلا بد أن يكون دليل شرعي يدل عليها : فالعمى والعرَج والمرض أعذار في القعود عن الجهاد ، قال تعالى : (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) ، والسفر عذر في الإفطار في رمضان ، قال تعالى : (فمن كان مريضاً أو على سفر فعدّة من أيام أخر) . فهذه أعذار ورد الدليل الشرعي بها فتعتبر أعذاراً ، وهكذا كل ما وردت فيها أدلة أنها أعذار معينة لأحكام معينة تعتبر أعذاراً، وما لم يرد فيه دليل لا قيمة له ولا يعتبر عذراً شرعياً مطلقاً. وهذه الأعذار اعتبرت أعذاراً لذاتها لا لما فيها من علّة ، وذلك لأن الدليل الشرعي الذي دلّ على أنها أعذار لم يعلّل اعتبارها عذراً بل أطلق ذلك فلا تعلّل لأن الشرع لم يعلّلها ، وجعل كل عذر منها عذراً للحكم الذي جاء عذراً له لا لغيره ، فهو يعتبر عذراً خاصاً بالحكم الذي جاء له وليس عذراً عاماً لكل حكم ، ولذلك كان العمى عذراً لترك الجهاد ولم يكن عذراً

لترك الصلاة . ولهذا لا يُقال إن السفر علّة لأن فيه مشقة ، بل السفر علّة لأن الله اعتبره لا لأنه شاق .

فأنت ترى أن الله فرض على المسلمين الحكم بما أنزل . ووصفهم بالكفر والظلم والفسق اذا هم حادوا عن ذلك وتركوا الحكم بما أنزل وليس هناك دليل شرعي من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس يدلّ على أن ترك العمل والحكم بما أنزل الله رخصة . ومـــا العذر في ترك أحكام الاسلام والعمل بقوانين الانجليز ؟ وأين مصلحة المسلمين في قبول الحكم بقوانين الانجليز التي هي قوانين كفر تقوم على فصل الدين عن الحيـاة ؟ والذي يدرس أحكام الاسلام وأنظمته يرى أنها مترابطة يمسك بعضها برقاب بعض . واذا كان الاسلام نهى المسلم عن التشبه بالكفّار فهل يأذن الله أو يعـذر المسلمين على ترك العمل والحكم بما أنزل ؟!

واذا كان ذلك كذلك فما الدافع الذي دفع محمد عبده الى إصدار مثـل هذه الفتوى التي تعتمد على المغالطات والتلفيق ؟ إن المراقب لأحوال المسلمين في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين يدرك أن الكفّار من المستعمرين الانجليز والفرنسيين والهولنديين والروس قد احتلوا معظم بلاد المسلمين . ولم تبق أمامهم إلا البلاد التي تخضع للدولة الاسلامية العثمانية . وكانوا جميعـاً يحاولون بكل السبل القضاء عليها وإخضاعها وتقسيمها بينهم. فحركة الاتحاد والترقي أو تركيا الفتـاة التي يسيطر عليها اليهود المـاسون تتربص بالسلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله ، وألمانيا ترنو الى نيل مكاسب في بلاد الـــدولة العثمانية ، وأعضاء الاتحاد والترقي يتجمعون في باريس يستمدون أفكارهم من وحي الثورة الفرنسية التي دبّرها الماسون أمثال فولتير ، وبريطانـيا قضت على دولة المغول الاسلامية في الهنـد ، وجمال الدين الايراني المتأفغن الماسوني المشبوه يدعو الى جامعة اسلاميـــة لتكون في الحقيقة بديلاً عن الخلافة الاسلامية في إسلامبول ، وبريطانيا استولت على مصر بلد الأزهر العريـق ثم

احتلت السودان. والسيد أحمد خان وأمير علي يدعوان الى التفاهم مع بريطانيا في الهند وروّجا لفكرة أن التعليم والاصلاح الجزئي كفيلان بالرقي والتقدم واللحاق بالدول الأوروبية . ومحمد عبده في مصر يهادن اللورد كرومر ممثل الاحتلال البريطاني ويدعو الى التوفيق بين الأديان الثلاثة وينتسب الى الماسونية ويفتي بمثل هذه الفتوى الخطيرة التي تزيل الجفوة بين المسلمين وبين الانجليز ونظام حكمهم الكافر ، ليكون ذلك إرهاصاً وتمهيداً لإلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤ حتى يتقبّل المسلمون ذلك تقبّلاً هادئاً ذليلاً . وقد تمّ للكفار ذلك عند إلغائها على يد عميل الانجليز أتاتورك ، فلم يتحرك المسلمون في شتى أقطارهم تحركاً فعّالاً يستحق الذكر . وهكذا ساهم محمد عبده عميل الانجليز الفكري في مصر في تذليل المسلمين لحكم الكفار ومنهم بريطانيا عدوة الاسلام والمسلمين الأولى .

وإن من العجب العجاب أن يصف محمد عبده بريطانيا بالدولة التي تقيم العدل وأن الاسلام السليم هو أستاذ الانجليز وأنهم أهل التسامح . وهذا لا يقوله إلا غبيّ جاهل أو عميل مأجور . وهاتان الصفتان من ألصق الصفات بكل من هو ماسوني . وقد أثبتنا له ذلك . فبريطانيا هذه التي يصفها محمد عبده بالعدل والتسامح هي التي قضت على دولة المغول الاسلامية في الهند ، وهي التي أعطت وعد بلفور لليهود ، ثم ساعدت اليهود على إقامة مشروع دولة في فلسطين ، وهي التي قتلت المصريين في الحادثة المعروفة بحادثة دنشواي ، وهي التي اتخذت من أتاتورك عميلاً لها ليلغي الخلافة بعد أن احتلت بريطانيا وغيرها من دول الغرب مدينة إسلامبول سنوات . وغير هذه الأحداث التي لا نستطيع حصرها في مثل هذا المقام وتدلّ دلالة قاطعة على أن بريطانيا عدوة الاسلام الأولى قديماً وحديثاً ، فالقائد الانجليزي اللنبي قال عندما دخل بيت المقدس في الحرب العالمية الأولى : « الآن انتهت الحروب الصليبية » .

ونحن لا نجد واحداً من المسلمين يوافق محمد عبده على ما ذهب اليه في

فتـــاواه ، بينما نجد الباحثين الغربيين يمدحون اتجاهه الفكري في التفسير والفتاوى ، يقول عثمان أمين وهو من مدرسته : « على أن فتاوى الأستاذ الإمام كلها تمتـــاز – كما قال باحث غربي – بالميل الى التسامح ، واستقلال الرأي ، والبعد عن التقليد ، والملاءمة بين روح الاسلام ومطالب الحيـــاة العصرية »[1] . وإنني أؤكد أن محمد عبده جاوز – في مثل هذه الفتوى – محاولة التوفيق بين الاسلام وبين الأحكام والمعالجات الرأسمالية ، ووصل إلى حد السماح لأهل الهند بالعمل بقوانين الانجليز ، وتعطيل أحكام الاسلام .

وليست مصيبـــة المسلمين تنحصر في انحرافات محمد عبده في التفسير والإصلاح المزعوم والفتاوى ، بل تتسع هذه الدائرة لتشمل تلاميـذه الذين ساروا على طريقه المنحرفة ، ولا يزال قسم منهم يحتل أعلى المراكز في مصر وغيرها من بلاد المسلمين ، هذا فضلاً عن الجيل الصحفي العلماني الذي أرست قواعده مدرسة جمال الدين ومحمد عبده .

وعلى سبيل المثـــال نورد للقارىء موقف تلميذه محمد رشيد رضا من الأفغانيين حين سخطوا على أميرهم لأنه لبس زي الافرنج وعاشر الانجليز في الهند وواكلهم ، يقول محمد رشيد رضا في أثناء تفسير قوله تعالى: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ... الآية)[2] : « وقد جاءتنـا ونحن نكتب في هذه المسألة إحدى الصحف ، فرأينا في أخبارها البرقية أن الأفغانيين المتعصبين ساخطون على أميرهم أن عاشر الانجليز في الهند وواكلهم ولبس زي الافرنج ، وأنهم عقدوا اجتماعاً حكموا فيـــه بكفره ، ووجوب خلعه من الامارة ، فأرسلت الجنود لتفريق شملهم . فأمثال هؤلاء المتحمسين الجاهلين أضرُّ الخلق بالاسلام والمسلمين ، بل أبعـــد عن حقيقته من سائر العالمين، وماذا فهم أمثال أولئك الأفغانيين من القرآن، على عجمتهم وجهلهم

---

(١) رائد الفكر المصري . الإمام محمد عبده : ص ٥٢ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٢٨ .

بأساليبه وبعمل الصدر الأول به »[1] . فقول محمد رشيد رضا أول الثمر السيء الذي أنتجته شجرة الزقوم التي زرعها محمد عبده في التربة الاسلامية. يصف محمد رشيد رضا الأفغانيين بالتعصب والجهل بأساليب القرآن لأنهم سخطوا على أميرهم الذي تشبّه بالانجليز أعداء الاسلام وواكلهم وعاشرهم ! وكأنه يريدهم أن يكونوا محبين للانجليز ومتساهلين معهم لأنهم أقرب الناس الى العدل والتسامح على حدّ قول إمامه محمد عبده . ولماذا لا يعاشر أمير الأفغان الانجليز وقد عاشر محد عبده مفتي الديار المصرية ورائد الفكر المصري اللوردكرومر وواكله وسخّر الدين والفتاوى لخدمة الانجليز في الهند ومصر ! وكل من يقرأ آيات من القرآن يعلم أن هؤلاء الأفغانيين على عجمتهم يفهمون الاسلام وأصوله أكثر من محمد عبده وتلميذه محمد رشيد مع كونهما عربيين . وإن هؤلاء الأفغانيين مخلصون للاسلام ، بينما نجد محمد عبده ومدرسته يعبدون الله على حرف ومعظمهم من الماسون . ولولا طبيعة البحث وما تقتضيه من كبح جماح العاطفة لكان لي معهم شأن آخر . ولكني أترك للقارىء أن يضع هؤلاء في مواضعهم التي يستحقونها ويصفهم بالنعوت التي تناسب مواقفهم المتخاذلة .

وإنك ترى أيها القارىء المسلم تحطيم القيم واختلالها عند محمد عبده وتلاميذه . فالمسلم الحق في نظر محمد عبده وتلاميذه جاهل متعصّب ، وترك أحكام الاسلام من مثل إباحة ربا الفضل وإنكار تعدّد الزوجات ضرورة ومصلحة للمسلمين .

فالحق في نظرهم يكون باطلا ، والباطل يكون حقاً .

ومن أعجب العجب أن يظلّ أصدقاء محمد عبده وأنصار دعوته يكثرون بما يلقون من تشجيع الانجليز الذين كانوا يمكنون لهم في إدارات الحكومة

---

(١) تفسير المنار : ٣/٢٧٧ وما بعدها.

وفي مناصب الدولة الكبرى ، وبما يجدون من تأييد الثقافة الحديثة التي تشدُّ أزرها الصحف والمجلات والمدارس . وظل خصومه ومعارضو دعوته يقلّون ويضعفون بمناوأة الانجليز لهم ومحاربة أجهزة التعليم والثقافة لآرائهم، حتى أصبح اسم محمد عبده مقترناً في أكثر الأذهان بالإصلاح المستنير ، وأصبح اسم معارضيه مقترناً بالتزمّت وضيق الافق المفسد لسماحة الاسلام [١] .

والحق يقال إن حركة محمد عبده الإصلاحية المزعومة التي اتخذت تفسير القرآن ودروس التفسير أساساً لها كان لها دور خطير في إخضاع المسلمين نهائياً للغرب وأفكاره وأنظمته ، وأقامت جسراً من فوق الهوة السحيقة بين الاسلام والثقافة الغربية ، بحيث أزالت الخوف والشك من نفوس المسلمين من التعليم في جامعات الغرب التي يتخرج الطالب المسلم منها في الغالب الأعمّ ، منبتاً عن تراثه وحضارته الاصيلة . هذا فضلاً عن المدارس والجامعات في بلاد المسلمين التي تُكرّس الروح العلمانية وعدم الولاء للاسلام إلا من رحم ربك ، وبهذا الصدد يقول المستشرق جيب : « إن تلامذة محمد عبده هم من أولئك الذين تعلموا على الطريقة الاوروبية . وذلك من ناحيتين : أولاهما أن ما كتبه الشيخ كان بمثابة درع واقية للمصلحين الاجتماعيين والسياسيين ، فإن عظمة اسمه قد ساهمت في نشر أخبار لم تكن تنشر من قبل ، ثم إنه أقام جسراً من فوق الهوة السحيقة بين التعليم التقليدي والتعليم العقلي المستورد من أوروبا، الأمر الذي مهّد للطالب المسلم أن يدرس في الجامعات الأوروبية دون خشية من مخالفة معتقده . وهكذا انفرجت مصر المسلمة بعد كبت ، فقد ساهم الشيخ محمد عبده أكثر من أي شخص آخر في خلق اتجاه أدبي جديد في إطار الروح الاسلامية » [٢] .

فقاسم أمين الذي درس في باريس هو تلميذ من تلاميذ محمد عبده . وهذا

---

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : ٣٣٢/١ .
(٢) الاتجاهات الحديثة في الاسلام : ص ٧٠ .

الزجل كتب كتابيه : « تحرير المرأة » ، « والمرأة الجديدة » ليحطم الأسس والقواعد التي تقوم عليها نظرة الإسلام والمسلمين الى المرأة من حيث هي رَبَّةُ بيت وعِرْض يجب أن يُصان . وقد ساعدت مدرسة محمد عبده على تكريس اتجاه قاسم أمين وتثبيته في اذهان المسلمين .

وطه حسين هاجم الأزهر ورجاله وبحثَ عن عيوبه وسجّلها في كتابه « الايام » بفضل الأجواء الفكرية التي هيأت لها مدرسة محمد عبده ، وكذلك كتابه « في الشعر الجاهلي » و « مستقبل الثقافة في مصر » . واحمد لطفي السيد الذي دعا الى تمصير العربية كان ينهل من معين مدرسة محمد عبده . والشيخ علي عبد الرازق صاحب كتاب « الإسلام وأُصول الحكم » الذي نفى فيه وجود الخلافة كأساس من أسس الحكم الإسلامي كان من تلاميذ محمد عبده.

وعبد العزيز فهمي الذي دعا الى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية اقتداءً بما فعله أتاتورك في تركيا ، في اقتراح قدمه الى مجمع اللغة العربية بالقاهرة كان يدور في فلك مدرسة محمد عبده . وغير هؤلاء كثيرون في مصر وغيرها من بلاد المسلمين . وآراء محمد عبده في فتاواه وتفسيره قد تبدو في ظاهرها لكثير من المسلمين لابأس بها ولا غبار عليها ، بينما هي في حقيقة الأمر كما رأيناها تدعو الى مذهب التحرُّر « Liberalism » الذي يذهب في التسامح الديني إلى درجة تكاد تنمحي معها الحدود الفاصلة بين المذاهب والنِّحل [1] . وهذا كله بتأثير الماسونية التي تقبل أن يكون أعضاؤها من أهل الأديان كلها ظاهراً ، وفي الواقع هي تهدم الأديان لمصلحة اليهودية العالمية .

وقد استطاع محمد عبده أن يكوّن مدرسة تترسم خطاه في التفسير وتسير على طريقته ومنهجه . ومن أفراد هذه المدرسة الشيخ محمد رشيد رضا

---

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر : ١/٣٢٢ .

الطرابلسي (طرابلس الشام) الذي يُعَدُّ أكثر رجال مدرسة محمد عبده إنتاجاً في التفسير . وقد كتب تفسيره المسمى بتفسير القرآن الحكيم ، والمشهور بتفسير المنار . ابتدأه بأول القرآن وانتهى عند قوله تعالى في الآية (١٠١) من سورة يوسف : (رب قد آتيتني من المُلْك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطِرِ السموات والأرضِ أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) . ثم عاجلته المنيّةُ قبل أن يتم تفسير القرآن كله . هذا القدر من التفسير مطبوع في اثني عشر مجلداً ، ينتهي المجلد الثاني عشر عند قوله تعالى في الآية «٥٣» من سورة يوسف (وما أبرّىء نفسي ... الآية) .

وقد أكمل الأستاذ بهجة البيطار تفسير سورة يوسف ، وطُبع تفسير هذه السورة بتمامها في كتاب مستقل يحمل اسم الشيخ محمد رشيد رضا . وفسر محمد رشيد من القصار سورة الكوثر ، والكافرون ، والإخلاص ، والمعوذتين؛ وفي إنتاج محمد رشيد رضا التفسيري تتجلى طريقة محمد عبده ومنهجه في التفسير ، من إعطاء العقل حرية واسعة في فهم الآيات ، والتوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية ، ومن جرأة على دين الله في تأويل كثير من الآيات كالذي رأيناه في مهاجمته الأفغانيين الذين سخطوا على أميرهم بسبب معاشرته للإنجليز في الهند ومواكلتهم ولبس زي الإفرنج ، ومن مهاجمته التقليد الذي يحط من قيمة اجتهادات الأئمة الكبار وتفاسير القدامى رحمهم الله .

وقد لاحظ الأستاذ محمد حسين الذهبي أن محمد رشيد رضا كان يحيدُ عن منهج محمد عبده أحياناً ، وذلك بعد وفاة شيخه واستقلاله بالعمل [١] . وأنا أقول إن هذا الحيد والانحراف عن منهج شيخه في مواضع بعينها لا يخرجه عن هذه المدرسة ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تبعية محمد رشيد في

---

(١) انظر كتاب « التفسير والمفسرون » : ٢٤٢/٣ - ٢٤٥ .

معظم إنتاجه ومواقفه للشيخ محمد عبده تبعية كلها تقليد غير مستنير يقوم على الإعجاب الشخصي .

ومن رجال هـذه المدرسة الشيخ محمد مصطفى المراغي ، وهذا الشيخ لم يلازم محمدعبده ملازمة طويلة كما لازمه محمد رشيد رضا ، ولم يجلس إليه كثيراً مثلمـا جلس .

وقـد عقد الشيخ المراغي دروساً دينية في تفسير القرآن الكريم بمسجد البوصيري بالإسكندرية وبمسجد الحسين بالقاهرة في شهر رمضان .

ولم تكن هـذه الدروس على شيء من الكثرة ، وهي لم تتناول من آيات القرآن إلا مقداراً قليلاً . والشيخ المراغي ، رحمه الله ، وإن كان يدور في اتجاهه التفسيري في فلك اتجاه محمد عبده إلا أنه خرج عن هذا المدار خروجاً رائعاً يستحق عليه الثناء والتقـدير من المسلمين ، فقد كان يستند في تحضير دروسه إلى كتاب الله تعالى ، بجمع ما كان من الآيات في موضوع واحـد ، لعلّ ما أُجمل في موضع فُسّر في موضع آخر ، وما أُبهم في آية بُيّن في آية أخرى ، وكان يستند أيضاً إلى ما صح من بيان رسول الله ﷺ ، وبيان السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ثم على أساليب اللغـة وسنن الله في الكون ، ثم على ما كتبه قدماء المفسّرين ، ولكنه لم يُلغِ عقله في هذا كله ، بل كان يضع هذه المصادر كلها أمام نظره ، ويعرض ما فيها على قلبه وعقله ، فما أعجبه منها أقرّه ، وما لم يطمئن إليه نبَـذه وأعرض عنه . ولم نسمع عن الأستاذ المراغي — رحمه الله — أنه فسّر القرآن بدون أن ينظر أولاً فيما كتبه المفسّرون ، ولم يبلغنا عنه أنه ادّعى لنفسه أنه أتى بمـا لم يأتِ به الأوائل في التفسير ، كما نرى ذلك واضحاً عند محمد عبده مفتي الديار المصرية والمصلح الاجتماعي ورائد الفكر المصري ، بل على العكس من ذلك نجـده يعترف بالفضل للأقدمين ، ولم ينسَ ما كان لهم من مجهود طيب وأثر محمود ، وذلك حيث يقول عن تفسيره « ما هو إلا ثمرات من غرس أسلافنا الأقدمين ،

وزهرات من رياضهم » . لم يتحامل الشيخ المراغي - رحمه الله - على المفسّرين كما تحامل محمد عبده وتلميذه محمد رشيد ، ولم يرم في وجوههم بالعبارات القاذعة اللاذعة ، بل كان عفّاً في نقده ، نزيهاً في عبارته ، وهذا أدب ما أجمله بالعلماء ، وبخاصة مع أسلافهم ومتقدميهم [1] . ولكن أنّى لمحمد عبده أن يعرف الأدب مع العلماء السابقين رضي الله عنهم وقد انتسب إلى مدرسة قلة الأدب وتحطيم الأديان ما عدا اليهودية ، وهي الماسونية !

والشيخ المراغي كان يكره أن يسلك المفسّر للقرآن مسلك من يجرُّ الآية القرآنية إلى العلوم ، أو العلوم إلى الآية ، كي يفسرها تفسيراً علمياً يتفق مع نظريات العلم الحديث . وكأنه في هذا الموقف يكاد ينحو باللائمة على أستاذه محمد عبده الذي ضخّم هذا الاتجاه وجعل له مكاناً في تفسيره . ولكنه مع هذا كله كان يرى أن يكون مفسّر كتاب الله على شيء من العلم ببعض نظريات العلم الحديث ، ليستطيع أن يأخذ منها دليلاً على قدرة الله ، ويستلهم منها مكان العبرة والعظة [2] .

وهذا الموقف المتزن الراجح الدقيق يدلُّ على إخلاص ووفاء لكتاب الله الذي لا يجوز أن نعدّه كتاباً في العلوم الكونية .

وعبد العزيز جاويش تلميذ محمد عبده أخذ في تفسيره للقرآن يسير على منهج أستاذه في ربطه بالظروف القائمة متنقلاً في ذلك بين التاريخ والأدب والاجتماع والسياسة ، فمن ذلك بيانه أن حكمة الله قد اقتضت ألاّ يلي الارض إلا المصلحون . ومن ذلك إبرازه لما ينطوي عليه الإسلام من تسامح ، وذلك في تفسير قوله تعالى : (إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم

---

(١) انظر التفسير والمفسرون ، ٣/٢٦١

(٢) انظر المرجع السابق : ٣/٢٦٩

ولا هم يحزنون) . وكانت مجلة الهداية التي أنشأها عبد العزيز جاويش سنة ١٩١٠ م هي التي تحمل تفسيره للقرآن إلى القراء . ومن الواضح لكل ذي عينين أن أسلوبه هو أسلوب محمد عبده في تقريب الاسلام من قِيَم العصر وثقافته التي هي في حقيقة أمرها مستمدة من قيم الغرب وثقافته ، وقد أفسح من صفحات مجلته للمترجم من الثقافات الغربية الحديثة في التربية والاجتماع والدراسات النفسية والأدب شعره ونثره [١] .

أما ما كان ينشر في مجلة الهداية من مقالات إسلامية ، فبعضه يستهدف تقريب الإسلام من الثقافة الغربية الحديثة ، وبعضه يستهدف تقريبه من المدنية الغربية ليطابق أنماط الحياة السائدة . فما نشرته المجلة في تقريب الإسلام من الثقافة الغربية الحديثة مقال للشيخ طنطاوي جوهري ، صاحب « الجواهر في تفسير القرآن الكريم » ، في التوفيق بين الإسلام وبين مذهب داروين في التطوّر [٢] .

ومن الذين تأثروا باتجاه محمد عبده في التفسير الشيخ محمد أبو زيد ، إذ نشر طبعة من القرآن في سنة ١٩٣٠ م ضمنها ملاحظات ينتقد فيها الشروحات القديمة ويفسر اللجوء للخوارق بصورة طبيعية بحتة . وقد صادرت الشرطة الكتاب ، وصدر أمرٌ بمنع الكاتب من الوعظ أو إقامة الاجتماعات الدينية [٣] .

وكذلك الشيخ محمد جمال الدين القاسمي صاحب « محاسن التأويل » كان معجباً بالشيخ محمد عبده ، وفي مقدمة تفسيره يعقد فصلاً في ذكر ملخص وجوه التفسير ومراتبه ، وقد نقل هذا الفصل عن مقدمة التفسير التي

---

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ١/٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ .

(٢) انظر المرجع السابق ، ١/٣٣٦ .

(٣) انظر المستشرق جيب ، الاتجاهات الحديثة في الإسلام ، ص ٨٢ .

كتبها الشيخ محمد عبده . والقاسمي تأثر بالنزعة العلمية في تفسير القرآن ، وقد روج لها محمد عبده كما قلنا آنفاً ، فقد عقد فصلاً في بيان دقائق المسائل العلمية الفلكية الواردة في القرآن الكريم ، وقد صرح بأنه نقل ذلك عن بعض علماء الفلك . وكان كثيراً ما يورد أقوال محمد عبده إزاء تفسير جملة قرآنية ، وكان يلقبه الأستاذ الحكيم . وقد نقد أوضاع أهل عصره من فشو البدع والأوهام والأذكار المحدثة والسماعات المبتدعة . وقد ذكرنا أنه ردّ على بعض النصارى الذي ألف رسالة «المعتقد الصحيح في صلب السيد المسيح» وقد ذكرنا ان محمد عبده قام بدور الدفاع عن الإسلام قبل مرحلة التوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربيه .

ومن المعاصرين نجد عبد الكريم الخطيب صاحب «التفسير القرآني للقرآن» شديد التأثر باتجاه محمد عبده التفسيري . وأول ما يبدو لنا من تأثره بمحمد عبده اعتداده بنفسه في تفسير القرآن ، فهو لا يفسر القرآن بالمعنى المعروف للتفسير ، فهو يرتل آيات الله ترتيلا ... آية آية ، أو آيات آيات ، ثم يقف لحظات يلتقط فيها أنفاسه المبهورة ، تطالعه به الآية أو الآيات من عجب ودَهش وروعة ، ثم يمسك بالقلم ليمسك به على الورق بعض ما وقع في مشاعره من صور العجب والدهش والروعة . ومحمد عبده كان لا يلتزم في التفسير كتاباً كما ذكرنا .

وذكرنا أنه كان يتعاطف مع المرأة تعاطفاً على حساب الفهم الصحيح لكلام الله تعالى ، وهو متأثر في هذا الموقف بمحمد عبده وتلميذه قاسم أمين . وقد رأينا بعض محاولاته للتوفيق بين ما ورد في سور القرآن وبين ما ورد في الإنجيل . وكان يُعطي عقله حرية واسعة في فهم مراد الله فأنكر وجود النسخ في القرآن مخالفاً في ذلك ما أجمع عليه المفسرون المقانع وجمهرة المسلمين.

وتحامل الاستاذ الخطيب على الفقهاء والمفسرين ، وقد فتح الباب له ولأمثاله محمد عبده . وقد رأينا عنده ترويجاً للتسامح الذي يلغي الحدود

الفاصلة بين الإسلام وبين غيره من الأديان .

و الاستاذ محمد المبارك عبدالله شيخ علماء السودان تأثر باتجاه محمد عبده التفسيري تأثراً طفيفاً ، ففي تفسيره « جزء عمّ » يقول في مقدمة التفسير : « وفي العصر الحديث نشأت حركة علمية ، ونهضة إسلامية في العالم الإسلامي في الهند ومصر على الأخص ترمي إلى إثبات قدرة الإسلام على الحياة بين تيارات الحضارة الاوروبية الحديثة ، قادها في الهند أمير علي وأحمد خان بهادر وميرزا أبو الفضل وغيرهم ، وقام بأمرها في مصر السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا على اختلاف في الوسائل والأساليب ، واتجهت الى الاجتهاد في تفسير القرآن ، وفي الاستدلال بالسُّنة والإجماع ، وهي تصلح لعرض تأثير أحدث الحركات الإسلامية في التفسير ، وقد بيّن الشيخ محمد عبده خصائص تفسيره فقال بعد ما عرض لمذاهب المفسرين : وقد عرفت أن الإكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي ، ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي .. »[1] . وقد ذكرنا أن أحمد خان بهادر وأمير علي ومحمد عبده كانوا يبذلون كل جهد للتوفيق بين الإسلام وبين الأحكام والمعالجات الرأسمالية ، وفي ذلك تحطيم للنظام الإسلامي بأساليب خفية ناعمة ، ومحمد عبده وإن اجتهد في تفسير القرآن ، فإن اجتهاده في معظمه لا يرضى عنه المسلم المستنير ؛ وذكرنا أنه أنكر أكثر من حديث صحيح وحمل حملة شعواء على من يقلّد الأئمة الاربعة ؛ وكان لا يوقّر كل قديم عند المسلمين بسبب سيطرة النزعة العقلية العلمانية على منحاه .

وعندما يفسر محمد المبارك عبدالله قوله تعالى: (إنّ الابرار لفي نعيم)[2]

---

(١) تفسير جزء عم ، مقدمة التفسير ، ص ١٠ .

(٢) سورة الانفطار ، الآية ١٣

يورد قول محمد عبده أو تعليقه على بيان الابرار [١] .

ونرى محمد المبارك عبدالله يتابع محمد عبده في إنكاره الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره من أصحاب الصحاح المشتمل على كون لبيد ابن الاعصم اليهودي سحرَ النبي ﷺ ، على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (ومن شرّ النفّاثات في العُقَد) : « ولا ننكر أنه شرٌّ جدير بأن يُستعاذ بالله منه لانه قد يؤدي إلى جنون المسحور ؛ ولكننا لا نسلّم بحال من الاحوال أن لبيد بن الاعصم اليهودي سحر النبي ﷺ الذي وعَده الله بالعصمة من الناس ؛ فقال تعالى (والله يعصمك من الناس) ولانسلّم أن سحره أثّر في قواه العقلية حتى كان يُخيَّل إليه أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله ، وأنه يأتي بعض نسائه وهو لا يأتيهن ، ونعتقد أن ذلك من دسائس المنافقين التي أرادوا بها أن يضعفوا الثقة بالوحي والقرآن والاسلام ، كما كذب الذين من قبلهم وقالوا (إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) ، فرد عليهم مبطلاً مقالتهم قائلاً لنبيه (انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) . وقد فطن لهذه الدسيسة جهابذة العلماء من القرون الأولى ، حتى قال الجصّاص أنّ من يذهب الى هذا يكفر ؛ لمطابقة هذا لقول الكفار (إنْ تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) الذي كذبه الله . وقال العلامة الطبرسي : وهذا لا يجوز لانه من وصف بأنه مسحور فكأنه قد خبل عقله ، وقد ابى الله ذلك في قوله تعالى (وقال الظالمون ان تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ، انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا) وقد عاضدهما في ذلك كثير من المتأخرين منهم الشيخ محمد عبده ، ونحن نختار أنه يمكن الجمع بين الحديث وبين ما يجب للرسول من العصمة ، بأن ابن الاعصم حاول أن يسحر النبي وأجتهد في ذلك ولكن الله أبطل مكره وردّ كيده في نحره ، فلم يستطع أن ينال منه منالاً ، مصداقاً لقوله تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى) وقوله تعالى (إنه ليس له سلطان على

---

(٣) تفسير جزء عمّ ، ص ٦٨

الذين آمنو وعلى ربهم يتوكلون) [1] . وقد بينا آنفاً أنه ليس من وراء صحة هذا الحديث ما يخلُّ بمقام النبوة ، فإن السحر الذي أصيب بــه النبي عليه الصلاة والسلام كان من قبيل الامراض التي تعرض للبدن بدون أن تؤثر على شي من العقل ، وقد قالوا إن ما فعله لبيد بن الاعصم بالنبي ﷺ من السحر لا يعدو أن يكون نوعاً من أنواع العُقَد على النساء ، وهو الذي يسمونــه « رباطاً » ، فكان يخيَّلُ اليه ان عنده قدرة على إتيان إحدى نسائه ، فإذا همَّ بحاجته عجز عن ذلك . فهذا الحديث ليس ماساً بالعقل وليس مخلاً بمقـام النبوة . ولا يجوز إنكار الحديث لانه رواه البخاري ومسلم وغيرهما مــن اصحـــاب الصحاح .

امـــا قول الله تعالى (والله يعصمك من الناس) فقــد ذكر الواحدي النيسابوري في سبب نزولها حكاية عن عائشة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ سهر ذات ليلة فقالت: يا رسول الله ما شأنك ؟ قال : ألا رجل صالح يحرسنا الليلة ، فقالت : بينما نحن في ذلك سمعت صوت السلاح ، فقال : من هذا ؟ قال : سعد وحذيفة ، جئنـــا نحرسك ، فنامَ رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه ، ونزلت هذه الآية ، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبـــة أدم وقال: انصرفوا يا أيها الناس، فقــد عصمني الله[2] . فأنت ترى من خلال سبب نزول هــــذه الآية أن الله عَصَمَ رسوله عليه السلام من الخوف والقتل والإيذاء ، ولم يعصمه من المرض مثلاً . هـــذا هو اتجاه محمد عبده في تفسير القرآن عرضناه في هذه الصفحات .

وهؤلاء هم أشهر من تأثروا باتجاهه في التفسير . وهــذه النزعة التي تعتمد على دعامتين : تحكيم العقل تحكيماً مبالغـــاً فيه في فهم مراد الله تعالى ،

---

(١) تفسير جزء عم ، ص ٢١٨ وما بعدها .

(٢) أسباب النزول ، ص ١١٥ .

والتوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية أو روح العصر ومقاييسه ؛ كان لها تأثير كبير في غير ميدان التفسير . وأعني به ميـــدان الفكر والبحوث الادبية والإسلامية .

وإنني لا أرى بأساً في الإشارة الى بعض هـذه الكتب على سبيل المثال لا الحصر ؛ لان حصرها يتطلب بحثاً قائماً برأسه .

وأول هذه الكتب كتاب « في الشعر الجاهلي » لطه حسين الذي ظهر في سنة ١٩٢٦ م ، بعد أن ألقاه صاحبه على طلبة السنة الاولى في كلية الآداب خلال العـــام الدراسي المنصرم . والكتاب مقسم الى ثلاثة أقسام أو ثلاثة فصول ، الاول في توضيح منهجه في بحث الادب العربي – وهو أكثر الابواب إثارة ، ولذلك اضطر إلى إسقاط أكثره عندما أعاد طبع الكتاب باسم « في الادب الجاهلي » سنة ١٩٢٧ ، وأدخل ما أبقاه منه بعد تعديله مفرّقـاً على الفصلين اللذين أحلّها محل الفصل المحذوف .

ويقدم طه حسين بين يدي القارىء ما انتهى إليه من أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء ، وأنهـــا إنما وضعت في العصور الإسلامية المتأخرة . وذكر المؤلف أنه يصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشيـــاء في أول هذا العصر الحديث ، وذلك بأن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً .

ويستطرد المؤلف خلال الفقرة الرابعة من القسم الأول الى ذكر إبراهـيم وإسماعيل – عليهما السلام – دون أن تدعو الى ذلك حاجة ظاهرة ، أو ضرورة ملزمة ، فيتناولهما بكلام لا يوصف بأقل من انـــه كفر بكتب الله ورسله يؤذي إيمان المؤمنين ، ويفسد عقائد صغار الطلاب الذين ألقي عليهم . ويستخفُّ طه حسين بمـــا قرره القرآن من صلة إبراهيم عليه السلام بالعرب

وبنائه الكعبة ، مما لا يرتفع عنده الى أكبر من مرتبة الأساطير التي خلفها اليونان والرومان . ونحن هنا لسنا بصدد الرد على طه حسين ، فقد رد عليه كثيرون وفنّدوا مزاعمه وحطموا أحكامه التي تعتمد على القياس الشمولي . ولكنني أود أن أشير الى التأثر في هذه الآراء بمحمد عبده الذي كان يعظّم ويوقّر بحوث المستشرقين ، ويصطنع النزعة العلمانية العقلية في تفسير القرآن الكريم .

ومن المعروف أن طه حسين في كتابه هذا تابع المستشرق اليهودي مرجليوث . فهو من أوائل من أثار الشك في الشعر الجاهلي في مقالة كاملة . فقد نشر في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد يوليو سنة ١٩٢٥ بحثاً عنوانه « أصول الشعر العربي » رجّح فيه أن هذا الشعر الذي نقرأه على أنه شعر جاهلي إنما نظم في العصور الاسلامية ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيّفون لشعراء جاهليين .

فمحمد عبده في نظري ، هو الذي فتح هذه السبيل أمام طه حسين ومن هم على شاكلته . والرابطة التي تربط هؤلاء : جرأة على دين الله ، نزعة علمانية عقلية غلابة ، تعظيم لمفكري الغرب ومنهم المستشرقون ، تهجم على الأزهر ورجاله وتنقيب عن عيوبه وهفوات رجاله ، ورقّة في الدين تصل الى حد الكفر

ولا ننسى أن طه حسين في كتابه « الأيام » يصوّر الأزهر ورجاله تصويراً ينمّ عن الحقد الشديد . وقد سبقه أخوه محمد عبده وأستاذه وإمامه في حملة ظالمة على الأزهر ورجاله . وقد أيّد كلا الرجلين الاحتلال البريطاني في مصر ، ووصل كلاهما الى أرقى المناصب في ظل الاحتلال البريطاني ؛ فمحمد عبده صار مفتي الديار المصرية ، وطه حسين صار وزيراً للمعارف وعميداً للأدب العربي .

وثاني هذه الكتب كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » لطه حسين . وقد

ظهر سنة ١٩٣٨ حين كان الناس يكثرون من التحدث عن مستقبل مصر بعد المعاهدة التي عقدتها مع إنجلترا سنة ١٩٣٦ . فأراد المؤلف أن يرسم للناس سبيل النهضة التعليمية في عهد نهضتها واستقلالها كما يقول في مقدمة كتابه . وفي هذا الكتاب يندفع طه حسين ويتجاوز الاتجاه الذي اختطّه محمد عبده ليقرر أن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الابيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الابيض المتوسط . ويصوّر العرب الذين حملوا الاسلام الى أهل مصر غزاة دخلاء لا يطمئن إليهم المصريون في الوقت الذي يصوّرهم فيه مطمئنين الى الفتح اليوناني لا ينكرونه ولا يتمردون عليه .

ويقرر بعد ذلك كله أن سبيل الحضارة الغربية هو السبيل الذي لا بد للمصريين من سلوكه والمضي فيه ، لا لأن تاريخ مصر يؤيد هذا المذهب في زعمه ، ولا لأن مصلحة المصريين تقتضي ذلك على ما يدّعي ، ولكن لأن التزامات مصر الدولية في المعاهدة التي يسميها معاهدة الاستقلال تُجبر المصريين على ذلك .

ويدعو الى أن تكون الحكومة في مصر لا دينية ، ولكنه يدور حول هذا الهدف في اكثر من موضع من كتابه ، ويحاول أن يمهد له ، لأنه يُقدّر أن وقت الدعوة الصريحة إليه لم يحن بعد . أرأيت هذه الشجرة التي زرعها محمد عبده كيف أثمرت على يد طه حسين الذي يسمونه عميد الأدب العربي ؟! أرأيت تشويه الحقائق وتزوير التاريخ على يد خادم الغرب والمستشرقين ؟ ! أرأيت الدعوة الى القضاء على الإسلام في بلد الإسلام والجامع الأزهر أرض الكنانة ؟! وإذا أردت أن تعرف الرجل الذي جعل طه حسين يصور العرب بالغزاة المستعمرين فإنه جمال الدين الإيراني المتأفغن أستاذ محمد عبده وإمامه في الضلال ، يقول جمال الدين مخاطباً المصريين : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وربيتم في حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ

زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين . تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم – التي تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم – بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم صامتون. فلو كان في عروقكم دم فيه كُرَيَّاتٌ حيوية ، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة .... تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد والمماليك إلخ ؛ وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حسٌّ لكم ولا صوت . انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهي شاهدة بمنعة آبائكم ، وعزة أجدادكم » [1] .

من هذا النص نستطيع أن نقول إن جمال الدين الإيراني الشيعي يعتبر العرب غزاة مستعمرين ، شأنهم في ذلك شأن اليونان والرومان والفُرْس والهكسوس . وألحق بالعرب الأكراد والمماليك . وكل من عنده رمقٌ من فهم يدرك أن العرب حملوا الاسلام الى أهل مصر كما حملوه الى الأمصار الأخرى . وجمال الدين يدعو المصريين الى النعرة الفرعونية والانسلاخ عن الاسلام والمسلمين . ولو كان محمد عبده مخلصاً لدين الله ولجماعة المسلمين لما أنقاد إلى هذا الدجال . وولاء المسلم إنما يكون لله وحده ، ولا يكون لأهرامات مصر أو الآثار الفينيقية أو الرومانية أو غيرها .

وثالث هذه الكتب كتاب « الفن القصصي في القرآن الكريم » للدكتور محمد أحمد خلف الله . وفي هذا البحث ينحو الباحث نحواً عقلياً علمانياً في فهم قصص القرآن الكريم فيقرر أن في القرآن أساطير ، وذلك في أثناء

---

(١) انظر زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، ص ٧٢ وما بعدها .

مناقشته الفخر الرازي في تفسير قول الله تعالى : (وقالوا أساطيرُ الأولين أكتتبها فهي تُملى عليه بُكرةً وأصيلا . قُل أنزلهُ الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما) [1] : « والذي يحسن بنا أن نلتفت إليه هنا هو أن الرازي يسأل عن كيفية أن يكون قوله تعالى (قل أنزله الذي يعلم السر ... الآية) إجابة عن قولهم (وقالوا أساطيرُ الأولين ... الآية). ذلك لأن المتبادر أن الرد الذي كان يتوقعه الرازي إنما يكون بنفي وجود الأساطير في القرآن . ومن هنا حاول أن يجعل إجابة القرآن ملاقية للشبهة حين وجد أن الرد ليس نفياً لوجود الأساطير في القرآن بل نفي موجود آخر هو أنه ليس منزلاً من الذي يعلم السرّ في السموات والأرض . ولعلنا لا نوافق الرازي فيما وجه به الردّ ، بل نرى أن إجابة القرآن هي الاجابة الطبيعية ، وهي الإجابة التي لا محيد عنها في هذا الميدان ، ذلك لأن مدار الحوار بين القرآن والمشركين لم يكن عن ورود الأساطير في القرآن ، وإنما كان عن اتخاذهم ورود الأساطير دليلا على أن القرآن من عند محمد لم يجئه به الوحي ولم ينزل عليه من السماء . ومن هنا كانت الإجابة في محلها . وكان إثبات أن القرآن من عند الله (قُلْ أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض) ولم تكن الاجابة نفي ورود أساطير في القرآن » .

وهذا هو الذي ، يدلُّ عليه أيضاً ما ذكره القرآن من قيلهم (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربُّكم قالوا أساطير الأولين) ذلك لأنهم كانوا يتخيلون أستبعاد أن يصدر مثل هذا القصص الأسطوري عن الله ولذا وقفوا موقفهم هذا من النبي عليه السلام ومن القرآن واشتطّوا في ذلك وغَلَوْا وهم مخطئون .

وإذا كان إحساس القوم بورود الأساطير في القرآن قوياً عنيفاً وعقيدتهم

(١) سورة الفرقان ، الآيتان ٥ ، ٦ ،

في ذلك قوية وثابتة . وإذا كان القرآن لا ينفي ورود الأساطير فيه وإنما ينفي أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام وليس من عند الله .

إذا كان هذا ثابتاً فإنا لا نتحرّج من القول بأن في القرآن أساطير لأنّا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصاً من نصوص القرآن » [1] .

وفي هذا القول جرأة على كتاب الله من غير دليل يؤدي الى ما انتهى إليه بأن في القرآن أساطير . لأنه رأى أن القرآن لا ينفي وجود الأساطير في الآيتين السابقتين . والأساطير : الأباطيل أو أحاديث لا نظام لها أو تأليف ما لا أصل له . ولو كان الدكتور محمد أحمد خلف الله يتمثل أساليب القرآن في الرد على حكايات العرب المشركين الكفار لما انتهى الى هذه النتيجة. وكأن الدكتور يريد أن ينفي القرآن ورود الأساطير فيه نفياً قاطعاً صريحاً. وإذا كان القرآن لم ينفِ ورود الاساطير فيه فكيف سمح الدكتور لنفسه أن يقول بأن في القرآن أساطير ؟ ولكي نبيّن خطأ ما انتهى اليه الدكتور محمد أحمد خلف الله نورد جميع الآيات القرآنية التي وردت فيها عبارة « أساطير الأولين » :

يقول الله تعالى في الآية (٢٥) من سورة الأنعام : (.. وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إنْ هذا إلا أساطير الأولين) .

ويقول تعالى في الآية (٣١) من سورة الأنفال : (وإذا تُتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين) .

ويقول تعالى في الآية (٢٤) من سورة النحل : (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربّكم قالوا أساطير الأولين) .

---

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم ، ص ١٧٩ وما بعدها .

ويقول تعالى في الآية (٨٣) من سورة المؤمنون : (لقد وُعِـــدنا نحنُ وآباؤنا هذا من قبلُ إنْ هذا إلا أساطير الأولين) .

ويقول تعالى في الآيـــة (٦٨) من سورة النمل : (لقد وُعِدنا هذا نحن وآباؤنا من قبلُ إنْ هذا إلا أساطير الأولين) .

ويقول تعالى في الآية (١٧) من سورة الأحقاف : (والذى قـال لوالديه أفٍ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان اللهَ ويلكَ آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الاولين) .

ويقول تعالى في الآية (١٥) من سورة القلم : إذا تُتلى عليه آياتنا قـــال أساطير الأولين) .

ويقول تعالى في الآية (١٣) من سورة المطففين : (إذا تُتلى عليه آياتنـــا قال أساطير الأولين) .

في هذه الآيات حكايات عن مجموعة من العرب المشركين أو آحاد منهم في وصف الآيات التي تنزل على محمد ﷺ . ونـلاحظ فيها تكرر العبارة نفسها ممـــا يدل على التحير والتخبط والاصرار على الباطل. واني أريد أن أتساءل: هل من الحكمة أن تنفي تهمةً وجهت اليك من قبـل معاندٍ مكابر جاهل ؛ فإذا قـال لك مثلاً : أنت مجرم ، تجيبه لا أنا لستُ مجرمـــاً ؟ واذا ترفع القرآن عن جاهليتهم حين وصفوا آياته بأنها أساطير الأولين ، فلم ينفِ هذه التهمة أو الافتراء الصريح ، وأخبر بأن هذا القرآن أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض ، فهل يجوز لأحد أن يزعم بأن في القرآن أساطير ؟ وهل من الدقة العقلية أن يتوصل الانسان الى اثبات شيء على أساس عدم نفيه ، وبخاصة اذا كانت هـــذه القضية بين مشركين سفهاء أجلاف وبين خالق الكون والانسان والحياة ؟ وزيادة في ايضاح ما نذهب اليه وإبطال ما ذهب

إليه الدكتور محمد أحمد خلف الله نورد بعض مزاعم العرب المشركين وموقف القرآن وردوده عليها .

يقول الله تعالى في الآية (١٩) من سورة الزخرف : (وجعلوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون) .

زعم العرب المشركون أن الملائكة بنات الله ولم يكفهم أن جعلوا لله ولداً . وهذا الزعم يدل على جهلهم بالله وصفاته واستخفافهم بالملائكة حيث نسبوا إليهم الأنوثة . وكان ردُّ القرآن على هذا الزعم (أشهدوا خلقَهمْ) استفهامٌ فيه تهكم ، والمعنى إظهار فساد عقولهم وأن دعاويهم مجردة من الحجة ، وهذا نظير الآية الطاعنة على أهل التنجيم والطبائع (ما أشهدتُهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) ثم توعدهم الله وأخبر أن شهادتهم على الملائكة بأنوثتهم سَتُكتَبُ ويسألون . فأنت ترى أن أسلوب القرآن في الرد لم يجر على نفي مقولة المشركين الفاسدة ، وإنما جرى على الاستفهام الذي فيه تهكم ، وخاطب عقولهم : هل حضرتم خلقهم بَلْه خلق أنفسكم ، ثم توعدهم .

ويقول تعالى في الآية (٣٣) من سورة الرعد : (... وجعلوا لله شركاء قل سمُّوهم ... الآية) احتج عليهم في اشراكهم بالله وهو الذي يستحق العبادة وحده ، فكان رد القرآن على هذا النمط : قل لهم يا محمد جعلتم له شركاء ، فسموهم له منهم ونبئوه بأسمائهم بل أتنبئونه بشركاء لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السموات والأرض ، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم ، والمراد نفي أن يكون له شركاء . فأنت ترى أن القرآن لم يجر على النفي المباشر ، ولم يكن السياق كما يتوهمه الدكتور محمد أحمد خلف الله : وجعلوا لله شركاء ، قل ليس له شركاء ، بل كان : (قل سموهم) . هذان أنموذجان يحملان أسلوب القرآن في رده على مزاعم الخصوم من المشركين العرب . ولولا ضيق المقام لأوردت الكثير من الآيات القرآنية التي تبطل

مزاعم الدكتور محمدأحمدخلف الله وتظهر تهافت مقولته إن فيالقرآن أساطير أي أباطيل وأكاذيب . وقد دخل بزعمه هذا في دائرة الكفر باسم التحرر في البحث والعلمانية المقيتة .

وإذا كان القرآن الكريم لم ينفِ ورود الأساطير صراحة فيه ترفعاً عن ذلك وتسامياً فإنه ركز على أن الذي أنزل القرآن جملة هو عالم السر في السموات والأرض أي الكون . والذي يتلو الأحاديث التي لا نظام لها أو الاباطيل أو قصص رستم وإسفنديار «أي الاساطير» ، لا يعلم السر بالضرورة ، وإنما يحفظ هذه الاحاديث أو الاساطير . وإني أفهم من هذا السياق العقلي هذا المعنى : أيها العرب المشركون الكفار ، يا ضعاف العقول : إن هذه الآيات التي يتلوها محمد عليه السلام ليست من عنده ، لان عقله محدود وإدراكه كذلك ، وإذا حارت عقولكم ولاحظتم تشابها بين هذه الآيات وبين قصص الاولين مثل رستم وإسفنديار ، فالقرآن ليس كذلك ، لان محمداً عليه السلام بشر مثلكم قاصرالعقل ، وإن عرفمثلهذه الاساطير فهو لا يعرف السر لانه بشر . وهذا القرآن من عند الله عالم الاسرار ومبدع الكون الذي لايفعل الاباطيل والاكاذيب . وهذا السياق العقلي يقود بالضرورة الى نفي ورود الاساطير في القرآن بطريق غير مباشر . وقد أخبر الله تعالى أن القصص الذي ورد في القرآن هو الذي لا مرية فيه ، ليس فيه أساطير ولا أباطيل ولا أكاذيب ؛ ويقول تعالى في الآية (١٣) من سورة الكهف : (نحن نقصُّ عليكَ نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) وغير هذه الآية .

وهكذا يبدو لكل ذي فهم تعسف الدكتور محمد أحمد خلف الله وتهافت مقولته ومحاولته إثبات الخطأ وجعله حقيقة مقررة .

ورابع هذه الكتب كتاب « إشتراكية الإسلام » للدكتور مصطفى السباعي .

وفي مقدمة الطبعة الاولى يقول المؤلف : « وكما هي سنة الحياة من

افتتان الضعفاء بالاقوياء في كل ما يأتي عنهم من خير أو شر ، فقد ساد الفكر الثقافي في عالمنا العربي والإسلامي جو من الإعجاب بالحركات الفكرية السائدة في عالم الحضارة ، يصحبه جو من الشك فيما بين أيدينا من تراث عقائدي وحضاري من حيث صلاحه للحياة الحديثة ، وإمكانه مجاراة التطور العالمي في كل شئون الحياة وخاصة في الميادين الاقتصادية والمعاشية ، بل تسرب الى بعض العقول التي تدّعي الثقافة والتحرر والتفكير العلمي فكرة خبيثة ما يزال يبثّها المستعمر الغربي في أوساطنا الثقافية منذ قرن او اكثر وهي أن سر تأخر الشرق - وخاصة العربي والإسلامي - هو أديانه التي كانت - على ما يزعمون- من أكبر عوامل تأخره وانحطاطه ، بل أخذ بعضهم يجهر بأن هذه الاديان مخدرة للشعوب خادمة للرأسمالية والإقطاع مثبتة لدعائم الاستعمار . ونحمد الله على أن هذا الصوت المنكر الذي يدل على جهل علمي وتاريخي فاضح ، قد أخذ يخفت شيئاً فشيئاً منذ ابتدأت الثقافة ، في بلادنا تتحرر من نفوذ الاستعمار وتوجيهه وسيطرته على مناهج التعليم في بلادنا المتحررة ، وبدأنا نبحث في عقائدنا وتراثنا بحث العقل النير الذي يثق بقدرته على البحث والتمحيص ... وقد أسهم كثيرون من أفاضل العلماء والمصلحين منذ عصر المصلح الاسلامي السيد جمال الدين الافغاني وتلميذه وزميله الإمام محمد عبده رحمهما الله ، حتى وقتنا هذا ، في جلاء تلك الحقيقة التي جهلها دعاة المذاهب المستوردة الدخيلة على شرقنا ، العربي والاسلامي الى ان استوى تحررها العلمي على قدميه واستطاع ان يرد الباطل ويكشف الزيف ويجلو جمال الحق للبصائر والابصار (١).

ويذكر الدكتور مصطفى السباعي أنه سمى القوانين والاحكام التي جاءت في الاسلام لتنظيم التملك وتحقيق التكافل الاجتماعي« باشتراكية الاسلام » .

---

(١) اشتراكية الإسلام : ص ٥

وهو يعلم ان بعض الغيورين على الاسلام يكرهون هـــذه التسمية ، لان الاشتراكية في رأيهم هي « موضة » هذا العصر ، فلا تصح المبادرة الى القول بالاشتراكية الاسلامية ، تمشياً مع هذه « الموضة » ولانه قد يأتي زمن تبطل فيه هذه الموضة ويسود القول بمذهب اقتصـــادي آخر ، فيضطر حينئذ الى العدول عن القول باشتراكية الاسلام .

والدكتور السباعي اختار القول باشتراكية الاسلام مع العلم بكل ما يقول هؤلاء لانه لايعتقد ان الاشتراكية « موضة » ستزول ، بل هي نزعة إنسانية تتجلى في تعاليم الانبياء ومحاولات المصلحين منذ أقدم العصور ، وتسعى شعوب العالم الحاضر – وخاصة الشعوب المتخلفة – الى تحقيقها لتتخلص من فواجع الظلم الاجتماعي والتفاوت الطبقي الفاحش المزري بكرامة الانسان ، وليست حقيقة الاشتراكية هي «التأميم» ولا « انتزاع رأس المال » ولا « تحديـد الملكية » ولا « الضرائب التصاعدية » بل هذه كلها وسائل يراها دُعـــاتها الطريق الصحيح لتحقيق هدف الاشتراكية .

ويذكر الدكتور السباعي ان ما يعرضه في هذا البحث هو « التشريـــع الاسلامي » الذي جاء لتحقيق ذلك الهدف ، لا تزويق ولا تحريف ، وهو تطبيق ذلك التشريع نظرياً في أحكام الفقه ، وعمليـــاً في تاريـخ الدولة الاسلامية في مختلف عصورها . ويقول : فليسمه غيرنا بما يشاء ، ليسمه باسم « العدالة الاجتماعية » او « التكافل الاجتماعي» أو «محاربة الفقر » او ما شابه ذلك ، اما نحن فنسميه بالاسم الذي يحبه الناس ويرونه أملهم الوحيـــد في الخلاص من شقائهم واضطراب أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية وبذلك نكون قد امتثلنا أمر الله تعالى (أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظـة الحسنة) وما هي الحكمة إن لم تكن دعوة الناس الى الحق والخير بأسلوب يصغون اليه ويأنسون به ؟ [1] .

---

(١) انظر المرجع السابق – ص ٦ وما بعدها

والواقع أن الدكتور مصطفى السباعي مصرٌ على تسمية الأحكام الشرعية التي جاءت في الإسلام لتنظيم التملّك وتحقيق التكافل الاجتماعي « باشتراكية الإسلام » . وما الداعي الى هذا الإصرار ؟ ألأن الناس يحبُّون هذا الاسم ويرونه أملهم الوحيد في الخلاص من شقائهم واضطراب أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية . فالمسألة عنده هي مسألة إرضاء الناس وليست إرضاء الله ورسوله وجماعة المسلمين !

وكل من يدقّق في كلام الدكتور السباعي يلاحظ أنه يوفّق بين الاسلام وبين الفكر الماركسي أو الاشتراكية . والنزعة التوفيقية التي قام بها محمد عبده في تفسيره أثمرت على يد الدكتور السباعي . فمحمد عبده كان يوفّق بين الاسلام والحضارة الغربية ، والدكتور السباعي يسمي الأحكام الشرعية التي تنظّم التملّك وتحقق التكافل الاجتماعي باشتراكية الاسلام . وهذه النزعة عند الدكتور السباعي ومن هم على شاكلته إن دلت على شيء فإنما تدل على الانهزامية الروحية والفكرية . وكأن الاسلام عند هؤلاء متهم في قفص الاتهام . ولقد أخطأ الدكتور السباعي حين قال إن الناس يحبُّون هذا الاسم « أي الاشتراكية » ويرونه أملهم الوحيد في الخلاص من شقائهم واضطراب أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية . فالناس يحبون الخلاص من الشقاء والفقر والظلم واضطراب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، ولكنهم لا يحبُّون الاشتراكية لأنهم مسلمون . ولكن الذي أحب اسم « الاشتراكية » بعض الحكام لتكون ستاراً واقياً لعمالتهم للغرب . وإذا كان هناك بعض المسلمين الذين صاروا كفاراً شيوعيين يحبون الاشتراكية ومنها الشيوعية فهم قلّة حقيرة ليس لها وزن ، وتتسرب الى المسلمين السذّج برفع شعارات منافية للشيوعية أصلاً كالقومية والوطنية .

وإني أذهب مع الدكتور محمد البهي الذي يعالج هذه القضية ، يقول : « تدفع في بلادنا العربية بعض الصحف ، والدوريات ، والرسائل ، والكتب ،

ومحطات الإرسال المسموعة والمرئية ، باستمرار في غير انقطاع في غير ملل مما تكتب أو ترسل – وإن كان مكرّراً وممجوجاً – بالفكر الماركسي البلشفي باسم الثورة العربية المعاصرة ، ولا تخجل بنسبته الى العرب أو المسلمين على أنه أصيل لبعض منهم ، وهو منقول وغريب في نشأته وتطوّره وتطبيقه عن البيئة العربية والاسلامية ، وهو في الوقت نفسه مغلول ومفلس ومتهافت في بيئته الأصلية . ولكن تروّجه قراصنة الحكم في القرن العشرين ، وعصابات العضلات وعُبّاد الوثن المادي ، والحاقدون على قوة المسلمين في دينهم ، وتكامل اقتصادهم ومركز بلادهم في عالم الإنسان على هذه الارض ، وحضارتهم التي يتميزون فيها بالطابع الإنساني والروحي وبالسبق والاستمرار فيها » (١) .

وقد تصدى لبدعة الدكتور مصطفى السباعي في كتابه « اشتراكية الاسلام » علماء أفاضل في بلده منهم الشيخ محمد حمدي الجويجاني في كتابه « الاصابة في الرد على السباعي » وكذا الأستاذ الشيخ وهبي سليمان الألباني . وأما الفقيه الجليل عالم حماة الشيخ محمد الحامد فقد ردّه وقمع بدْعَته بكتابه القيم العظيم « نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام صادرة عن الكتاب والسنة ومذاهب الأئمة » (٢) .

وهناك اختلاف عقائدي ونظامي بين الاسلام والاشتراكية . فالعقيدة الأساسية للنظام الاشتراكي ، هي العقيدة المادية ، التي تقول أن المادة هي أصل الأشياء ولا شيء غير المادة . وهذا يعني إنكار وجود الخالق العظيم سبحانه وتعالى ، وبالتالي إنكار كل دين سماوي ، واعتبارها الإيمان بذلك أفيوناً يخدّر الشعوب ، كما يعتقد بذلك الماركسيون والتيتويون وأمثالهما ،

---

(١) تهافت الفكر المادي والتاريخي بين النظر والتطبيق – مقدمة ص ه وما بعدها .

(٢) انظر حكم الإسلام في الاشتراكية : ص ٩٩ .

وعلى أساس هذه العقيدة الإلحادية ، قام النظام الاشتراكي ، منظماً العلاقات الاقتصادية وجميع المعاملات المادية ، وسائر أنظمة الحياة وقوانين المجتمع . وهذه العقيدة – كما لا يخفى – تتناقض مع العقيدة الاسلامية ، التي تقوم على أساس الايمان بوجود الله الخالق لكل شيء في هذا الوجود وتختلف معها كلّ الاختلاف ، ولا يصحُّ أن يؤمن بها إنسان ، لأنها مناقضة للفطرة البشرية ، ولغريزة التدين المخلوقة مع كل إنسان [1] .

والذي دفع الدكتور مصطفى السباعي ومن هم على شاكلته لهـذا القول ، وجود الشبه بين بعض قواعد الاشتراكية ، مع ما أقره الاسلام من أحكام ، ووجود الموافقـة بينهما في بعض الجزئيـات ، كوجود فكرة المساواة – كفكرة – ، أو وجود الشركة بين الناس في الماءِ والكلأ والنار ، أو يجعل كل مـا هو من ضرورات الحياة ملكاً للدولة ، أو بوجود لفظـة المشاركة والشركة والشركاء في الفقه الاسلامي .

يقولون ذلك من باب تقريب الاسلام الى الأذهان ، بعد أن طغى عليها سماع اسم الاشتراكية ، لذا فهم يصطلحون على إسلامهم فيسموه بالاشتراكية الاسلامية ، أو اشتراكية الاسلام ، أو أن النظام الاسلامي في الاقتصاد هو نظام اشتراكي . إن هذا القول باطل ، ويحمل في طياته خطراً على الاسلام حيث يحكم بتبعيته للنظم المعاصرة والوضعية الكافرة ، ولن يكون الاسلام تابعاً ، لأنه من عنـد الله خالق الأرض والسماء ، كما في هذا القول تسليم بهزيمة الاسلام أمام تلك النظم ، وأنّى للإسلام العظيم أن يهزم وقد هزمت أمامه جميع نظم الأرض واكتسحها وفرض وجوده عليها فكان في الذروة العليا ، وكانت في الحضيض .

وليس هنـاك اشتراكية عربية ، لأن العرب لم يعرفوا الاشتراكية لا في

---

(١) انظر المرجع السابق ، ص ١٠٩ وما بعدها .

الجاهلية ولا في الاسلام ، فكانت نسبة الاشتراكية إليهم قولا باطلا مغايراً للواقع .

وليس هناك اشتراكية إسلامية لأن الاسلام نظام يقوم على قاعدة فكرية أو عقيدة كلية شاملة عن الكون والانسان والحياة مخالفة تماماً للقاعدة الفكرية الماركسية اللينينية التي تعتبر الكون مادياً محضاً ومن ثم تنكر وجود الخالق الواجب الوجود .

والاسلام نظام قائم بذاته متكامل لا يلتبس بشيوعية ولا رأسمالية . وبذلك يظهر للقارىء تهافت النزعة التوفيقية الهزيلة التي قام بها الدكتور مصطفى السباعي في كتابه « اشتراكية الاسلام »[1] .

وخامس هذه الكتب كتاب « الديموقراطية في الاسلام » لعباس محمود العقاد . ومن عنوان الكتاب يلاحظ المسلم المستنير أن المؤلف سيقوم بدور توفيقي بين الاسلام وبين الفكر الرأسمالي . ويجب أن نذكر أن عباس محمود العقاد من تلاميذ محمد عبده المعجبين به أشد الاعجاب ، وقد شاهدت تمثالاً نصفياً للشيخ محمد عبده على طاولة في بيت العقاد . ويذكر المؤلف في مقدمة كتابه أن الذي دعاه الى هذا البحث أن الأمم الاسلامية في عصرنا تنهض وتتقدم ، وانها أحوج ما تكون في هذه المرحلة خاصة إلى الحرية والايمان متفقين ، لأن الحرية بغير إيمان حركة آلية حيوانية أقرب الى الفوضى والهياج منها الى الجهد الصالح والعمل المسدد الى غايته ، فمن الخير أن تذكر الأمم الاسلامية على الدوام أن الحرية عندها إيمان صادق ، وليست غاية الأمر فيها أنها مصلحة ونظام مستعار . ولمن شاء أن يقرأ هذه الصفحات من الوجهة الدينية ، فسيراها مطابقة للعقيدة الدينية الحسنى في غير شطط ولا جمود . ولمن شاء أن يقرأها من الوجهة العلمية ، فسيرى أن الموضوع كله صالح للعرض

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٧ ، وما بعدها .

على مقاييس العلم وموازينه ، ولكن على شريطة أن يفهم أولاً ما هي المسألة التي تعرض على العلم حين نتكلم عن الديموقراطية في الاسلام[١] .

ووجد المؤلف أن هذا البحث يدعوه الى تعريف الديموقراطية التي نشأت قبل الدعوة الاسلامية ، كي نتبين مـا جاء به الاسلام من هذا النظام غير مسبوق إليه ، ونتبين بالمقابلة بين النظام القديم والنظام الجديد مـا فيهما من مواضع الاتفاق ومواضع الاختلاف[٢] .

والديموقراطية لفظة عنت اصطلاحاً خاصاً ، أطلقها واضعوها على نظام للحكم ، يقوم على أساس أن الشعب مصدر السلطات ، ومنهـا إعطاؤه حق تشريع الأنظمة والقوانين ، كما يشاء ويريد ، دون مراعاة شيء سوى الهوى والتقليد . كما يقول على أن الشعب له السيادة في كل شيء ، ومنه إعطاؤه الحق فيمن ينوب عنه في الحكم ، بشرط الرضى عنه ، سواءٌ أكان رجلاً أم امرأة ، مسلماً أم غير مسلم ، وكـذلك إعطاءُ الحريات له ، وهي حرية العقيـدة ، وحرية الرأي ، وحرية التملك، والحرية الشخصية . تلك معاني لفظـة الديموقراطية ، التي جمعها بعضهم بقوله « حكم الشعب نفسه بنفسه » ، فحين تطلق هذه اللفظة « الديموقراطية » تعني اصطلاحاً ذاك معناه .

وهذه المعاني مخالفة لأحكام الاسلام ، ومناقضة له ، بل ليس لها أي واقع حق عند الديموقراطيين أنفسهم. فمن حيث السلطة التشريعية ، وحق تشريع الأنظمة ، فـإن الاسلام جعلها حصراً ، بيد الله ورسوله ، ومصدر ذلك الكتاب الكريم والسُّنة المطهرة ومـا أستند عليها وأرشد إليها ، وليس للشعب وبعبارة أدق للأمـة أن تخرج على نص من نصوص الاسلام ، ولو اجتمعت كلها على ذلك ، قال تعالى : (وأن احكم بينهم بمـا أنزل الله ولا

---

(١) الديموقراطية في الاسلام ، المقدمة . ص ٧ .

(٢) انظر المرجع السابق . ص ١٢

تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) ، وقال : (وإن تُطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) .

وعلى الامة ، وبعبارة أصح على رئيس الدولة ، وهو من ينوب عن الامة في الحكم والسلطان ، إنابة حصل عليها من طريق الرضى والبيعة ،:ان يأخذ أنظمة الحياة كلها ، من تلك المصادر الكريمة ، إما باجتهاد منه ان كان قادراً عليه ، أو باتباع مجتهد من المجتهدين ، تنفيذاً لقول الله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً) وقوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . وبهذه كانت السلطة التشريعية بيد الله ورسوله ، لا بيد الشعب ، وكان مصدرها الشرع لا الشعب ، وكان تبنّي أحكام الانظمة والقوانين ، بيد رئيس الدولة لا بيد الشعب ، وانما لنواب الامة ، وهم أعضاء مجلس الشورى ، ان يعترضوا على ما تبنى رئيس الدولة ، اذا كان ما تبناه يُخالف أحكام الشرع [1] .

والذي يدقق في معاني اصطلاح الديموقراطية يتبين له أنها تخالف احكام الاسلام . فلا يجوز استعمال هذه اللفظة – الديموقراطية – سواء ذكرت كما هي أم أردفت بوصف الاسلامية ، كأن يُقال : الديموقراطية الاسلامية ، أو ديموقراطية الاسلام ، أو الديموقراطية في الاسلام ، لأن وصفها بالاسلامية لا يخرج معانيها المقرّرة من الذهن ، وإنما يثبت تلك المعاني فيه ويُسدل عليها الثوب الشرعي ، وهذا لا يرضاه من آمن بالاسلام عقيدة ونظاماً .

ومن الشبهات التي جعلت العقّاد ومن هم على شاكلته يقولون بالديموقراطية في الاسلام : أن الاسلام قرّر الشورى ، ونص على أن الحاكم ينتخب من قبَل الأمة ، وأن الاسلام أعطى لكل فرد حق مناقشة رئيس الدولة ومحاسبته .

---

(١) انظر حكم الاسلام في الاشتراكية : ص ١٣٦ – ١٣٩

ولكن الاسلام نظام كامل للحياة ، متميز عن غيره ، ولن يلحق به نظام وضعي ، ولم يسبقه قانون بشري ، في حسن معالجاته لمشكلات الحياة . وتنظيم علاقات المجتمع ، بل عجزت وتعجز المبادىء الوضعية ، والنظم البشرية عن اللحوق به ، وتقف أمامه حائرة مبهورة ، الى جانب شموخه وعلوه ، كما تقف الاقزام ناظرة الى قمم الجبال وشوامخها . لذلك يجب على كل مسلم ، اعتنق عقيدة الاسلام وآمن بنظامه ، أن يدعو الى الاسلام وحده ، وهو الكفيل بسعادة الأمة ورقيها ، ويسمي أنظمته باسمها ، وليحذر من التقليد أو التأويل ، لأنه من أفظع الأساليب ، وأخبث الطرق التي تخرج المسلم عن دينه ، من غير أن يشعر أو يريد ، وليجعل إسلامه متبوعاً لا تابعاً، وليَدُرْ مع الاسلام حيث دار [1] .

وبهذا يتبين للقارىء خطأ هذه التسمية التي جعلها العقاد موجودة في الاسلام . فليس في الاسلام اشتراكية ولا ديموقراطية ولا حرية بالمعنى الذي يريده المنحرفون الضالون عبَدَة كل ما هو غربي أو ماركسي ؛ ولن يُعلي هؤلاء من شأن الاسلام إذا جعلوا فيه اشتراكية أو ديموقراطية ، والعكس هو الصحيح ؛ فإن إلصاق هذه التسميات والمصطلحات الكافرة الوضعية به خطر شديد عليه وعلى معتنقيه .

وسادس هذه الكتب كتاب « تجديد الفكر العربي » للدكتور زكي نجيب محمود .

وفي تقديم هذا الكتاب يذكر المؤلف أنه لم تكن قد اتيحت له في معظم أحواله الماضية فرصة طويلة الأمد ، تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربي على مهل ، فهو واحد من آلاف المثقفين العرب ، الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبي – قديم أو جديد – حتى سبقت الى خواطرهم ظنون بأن

(١) أنظر المرجع السابق ، ص ١٤٥ وما بعدها .

ذلك هو الفكر الانساني الذي لا فكر سواه ، لأن عيونهم لم تُفتح على غيره لتراه؛ ولبثت هذه الحال معه أعواماً بعد أعوام : الفكر الاوروبي في دراسته وهو طالب ، والفكر الاروبي في تدريسه وهو أستاذ ، والفكر الاوروبي في مَسْلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ ؛ وكانت أسماء الاعلام والمذاهب في التراث العربي لا تجيئه الا أصداء مفككة متناثرة ، كالاشبـــاح الغامضة يلمحها وهي طافية على أسطر الكاتبين .

ثم أخذتــه في أعوامه الأخيرة صحوة قلقة ؛ فلقد فوجىء وهو في أنضج سنيّه ، بأن مشكلة المشكلات في حياتنــا الثقافية الراهنة ، ليست هي : كم أخذنا من ثقافات الغرب وكم ينبغي لنـــا أن نزيد ، إذ لو كان الامر كذلك لهان ، فما علينا عندئذ إلا أنْ نُضاعف من سرعة المطابع ، ونزيد من عدد المترجمين ، فإذا الثقافات الغربية قـــد رُصّتْ على رفوفنا بالالوف بعد أن كانت تُرصُّ بالمئين ؛ لكن لا ، ليست هذه هي المشكلة ، وإنمــا المشكلة على الحقيقة هي : كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذي بغيره يفلت منـــا عصرنا أو نفلت منه ، وبين تراثنا الذي بغيره تفلت منــا عروبتنا أو نفلت منها ؟ إنـــه لمحالٌ أن يكون الطريق الى هذه المواءمة هو أن نضع المنقول والاصيل في تجاور ، بحيث نشير بأصابعنا الى رفوفنا فنقول : هـــذا هو شيكسبير قائم الى جوار أبي العلاء ؛ فكيف اذن يكون الطريق ؟ .

استيقظ صاحب الكتاب بعد أن فات أوانه أو أوشك ، فإذا هو يحسُّ الحيرة تؤرِّقُه ، فطفق في بضعة الاعوام الاخيرة، التي قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية ، يزدرد تراث آبائه ازدراد العجلان . كأنه سائح مرَّ بمدينة باريس، وليس بين يديه الا يومان ، ولا بد له خلالهما أن يريح ضميره بزيارة اللوفر ، فراح يعدو من غرفة الى غرفة ، يلقي بالنظرات العجلى هنا وهناك ، ليكتمل له شيء من الزاد قبل الرحيل ؛ هكذا أخــذ صاحبنا — وما يزال — يعبُّ صحائف التراث عبّاً سريعاً ، والسؤال مـــلء سمعه وبصره : كيف السبيل

الى ثقافة موحدة متسقة يعيشها مثقف حيٌّ في عصرنا هذا ، بحيث ينـدمج فيها المنقول والاصيل في نظرة واحدة [1] ؟ .

ويقول المؤلف : « هكـذا تماورني أمل ويأس ، وذلك لانني لم أقع على المفتاح الذي أفتح به الابواب المغلقة ، بل كثيراً ما شككت بأن يكون السؤال المطروح نفسه سؤالاً غير مشروع ، وأن علة الحيرة كلها والاضطراب كله ، هي أننا نسأل سؤالاً هو بطبيعته لا يحتمل الجواب ؟ .... وفجأة وجدت المفتاح الذي أهتدي بـه ، ولقـد وجدته في عبارة قرأتها نقلاً عن هربرت ريـد ، إذ وجـدته يقول : « إنني لعلى عـلم بأن هناك شيئاً اسمـه « التراث » ، ولكن قيمته عندي هي في كونه مجموعـة من وسائل تقنيّة يمكن أن نأخـذها عن السلف لنستخدمها اليوم ونحن آمنون بالنسبة الى ما استحدثناه من طرائق جديدة ؟ ... أقول إنني وجدت في هذه العبـارة مفتاحاً للموقف كله ؟ فماذا عسانا أن نأخذ من تراث الاقدمين ؟ الجواب هو : نأخذ من تراث الاقدمين ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقاً عملياً ، فيضاف الى الطرائق الجديدة المستحدثة ؛ فكل طريقة للعمل اصطنعها الاقدمون وجاءت طريقة جديدة أنجح منها ، كان لا بد من اطـّراح الطريقة القديمة ووضعها على رف الماضي الذي لا يُعنى به إلا المؤرخون ؛ بعبارة أخرى ؛ إن الثقافة – ثقافة الأقدمين أو المعاصرين – طرائق عيش ، فإذا كان عند أسلافنا طريقة تفيدنا في معاشنا الراهن ، أخذناها وكان ذلك هو الجـانب الذي نحييه من التراث ، وأما ما لا ينفع نفعـاً عملياً تطبيقياً فهو الذي نتركه غير آسفين ، وكذلك نقف الوقفة نفسها بالنسبة الى ثقافة معاصرينـا من أبناء أوروبا وأمريـكا » [2] .

---

(١) تجديد الفكر العربي ، تقديم ، ص ه وما بعدها .

(٢) تجديد الفكر العربي - ص ١٦ - ١٨

والواقع أن الذي حكاه الدكتور زكي نجيب محمود مأساة يعيشها جمهرة المثقفين العرب المسلمين. وواقع هذه المأساة تتمثلُ في ان الغرب الصليبي الكافر قد فرض على الأمة الإسلامية ومنها الشعب العربي– أفكاره الرأسمالية ومقاييسه في الحياة وأنظمته وثقافته منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا. وكان يستعين على تثبيت أفكاره وأنظمته وثقافته بجيوش المبشرين والمستشرقين أولاً، وبجيوشه وقوات احتلاله ثانياً. والكل يعلم أن الجيش البريطاني احتل مصر ١٨٨٢ م ولم يخرج منها إلا سنة ١٩٥٤ م. وقِسْ على مصر سائر بلاد المسلمين. وقد وصل المسلمون منذ القرن التاسع عشر الى درجة عظيمة من الجهل بالإسلام حتى الغى مصطفى كال أتاتورك الخلافة الإسلامية في استانبول في سنة ١٩٢٤ م ولم يتحرك المسلمون تحركاً يستحق الذكر نظراً لجهلهم بالإسلام وانحطاطهم الفكري. وبعد ان اطمأن الكافر المستعمر الى حكام من المسلمين يحرسون أفكاره وأنظمته ومقاييسه في الحياة وثقافته خرج بجيوشه قبل سنوات معدودات.

وقد فتح المسلمون عيونهم منذ أكثر من نصف قرن على النظام الرأسمالي في بلادهم تحميه حراب الكفار، ونظراً لجهلهم بالإسلام الذي حسبوه شعائر وعبادات تؤدى وحسب صار كثير منهم وبخاصة المثقفين– مضبوعين بالثقافة الغربية. وظنوا أن هذه الثقافة والفكر الذي ترتبط به هذه الثقافة هي الثقافة الصحيحة الراقية وهو الفكر القويم ولذلك نرى الآلاف من أبناء المسلمين ومنهم الدكتور زكي نجيب محمود لا يُتاح لهم في معظم الاحوال التعرف على الافكار الإسلامية والثقافة الاسلامية المرتبطة بهذه الأفكار. والمسلم المثقف يعيش منذ سنوات أزمة حادة بدون شك. فهو لا يعرف شيئاً عن الاسلام يستحق الذكر. وكيف يكون ذلك والمدارس والجامعات في بلاد الاسلام ومنها البلاد العربية تسير حسب مخططات وضعها المبشرون والمستشرقون الكفار.

المثقف المسلم لا يعرف عـــن الاسلام في المدارس والجامعات إلا شعائر وعبادات ، ولا يعرف عن تاريخ المسلمين الا قدراً باهتاً يُنفره من هذا التاريخ أحياناً . فحرب صفين بين علي ومعاوية تقدم له بصورة مشوهة ، فيستقر في ذهنه أن تاريخ المسلمين صراع بين القادة وذبحٌ وقتل .

وهرون الرشيد لا يتصوره الا من خلال قصص ألف ليلة وليلة . والسلطان عبد الحميد صُوّر له أنه زِيرُ نساء في قصر يلدز . وهكذا شُوه تاريخنا تشويهاً فيه حقد شديد على الاسلام والمسلمين . ومن يرد تعرُّف الحقيقة من مصادرها الصحيحة يجد أن أمير المؤمنين هرون الرشيد كان يحج عاماً ويغزو عامـــاً ويُصلي في الليلة مائة ركعة . هكذا يقول الطبري . والسلطان عبـد الحميد كان مخلصاً للإسلام والمسلمين ، ولكن الماسونية التي تخدم اليهودية العالمية هي التي عزلته عن الخلافة وشوهت تاريخـه . ويكفي أن يعلم القارىء أن الذي قرأ قرار العزل على السلطان عبد الحميد هو عما نويل قراصوه اليهودي الماسوني نائب سلانيـــك .

أما المثقف الغربي فإنه يعيش حياة فكرية وثقافية هي من صنع آبائـــه وأجداده . ومع ذلك فإنه الآن يكتوي بنارها ، فتجد الأنتحار والآلاف من اللقطاء والهيبيين . أي أن هذا الفكر وهذه الثقافة كانت وبالاً عليه .

أمـــا الماركسي المثقف فإنه يعيش حياة فكرية وثقافية مفروضة عليه بالحديد والنار من قبـــل حزب يُسمى الحزب الشيوعي ، فإذا صاح أو تمرد فيكون مصيره مصير بلاد المجر وتشيكوسلوفاكيا .

وهناك فرق بين العلم والفكر .فالعلم عام وواحد في كل بلاد العالم . فدرجة غليان الماء في موسكو مثلاً هي درجة غليان الماء في نيويورك . ولكن الفكر والنظام والثقافة في موسكو هي غير الفكر والنظام والثقافة في نيويورك .

والمثقف الغربي أول ما يتثقف بثقافته الغربية التي هي عبارة عن معارف

وفنون ترتبط بأفكاره الرأسمالية التي تقوم على فصل الدين عن الحياة .

والمثقف الشيوعي أول ما يتثقف بثقافته الشيوعية التي هي عبارة عن معارف وفنون ترتبط بأفكاره الشيوعية « الماركسية اللينينية » التي تقوم على مادية الكون وحسب . أي أن هذا الكون ليس له خالق ، وبالتالي فإن المادة هي التي تفرض الفكر . ولا تسمح الدولة هناك بتسرب أية أفكار أو ثقافات إلى البلاد التي يهيمن عليها النظام الشيوعي .

أما المثقف المسلم ومنه العربي فإنه أول ما يتثقف بثقافة غربية وبثقافة إسلامية باهتة وضعها له المستعمرون ولا يزال يعمل بها نُوابه وحُراسه على أفكاره وثقافته من أبناء المسلمين . أليس عجيباً أن يُقضّي الدكتور زكي نجيب محمود ، ومثله الآلاف المؤلفة من أبناء المسلمين ، معظم سني حياته منشغلاً بدراسة الفكر الغربي والمنطق الوضعي والثقافة الغربية ، ويأتي في أواخر حياته ليفتح عينيه على صفحات من تراثنا وفكرنا ؟! أليس هذا عقوقاً وإهمالاً لتراثنا وفكرنا ؟! أليس حراماً أن يقضّي معظم عمره بعيداً عن تراث أمته ، ثم يأتي في أواخر حياته ليزدرد تراث آبائه أزدراد العجلان كأنه سائح مرّ بمدينة باريس ، وليس بين يديه إلا يومان ، ولا بُدّ له خلالها أن يريح ضميره بزيارة اللوفر ، فراح يعدو من غرفة الى غرفة ، يلقي بالنظرات العجلى هنا وهناك ، ليكتمل له شيء من الزاد قبل الرحيل ؟ ! وأحسُّ أن الدكتور زكي نجيب محمود تحول عنده التراث الاسلامي الى شيء كالي مثل زيارة متحف اللوفر في باريس . يا للفجيعة !

ومن الطبيعي أن ينظر الدكتور زكي نجيب محمود الى تراث أمته بعقلية غربية وبذوق غربي لأنه أسس على ذلك . وعندما يجد المفتاح الذي يفتح به الأبواب المغلقة لا يجده إلا في عبارة قرأها نقلا عن هربرت ريد ، ورأى الدكتور ان ثقافة الأقدمين او المعاصرين طرائق عيش ، فإذا كان عند اسلافنا طريقة تفيدنا في معاشنا الراهن أخذناها وكان ذلك هو الجانب الذي

نحييه من التراث ، وأما ما لا ينفع نفعاً عملياً تطبيقياً فهو الذي نتركه غير آسفين، وكذلك نقف الوقفة نفسها بالنسبة الى ثقافة معاصرينا من أبنـاء أوروبا وأمريـكا .

والواقع ان المفتاح الذي وجده الدكتور زكي نجيب محمود مفتاح غير مناسب وغير دقيق . لأنه يلتبس عنده العلم بالفكر والثقافة . والمسلمون خلـّفوا لنا أفكاراً وثقافة . فالفكر الاسلامي يتمثل في الفقه وعلم الكلام . والثقافـة الاسلامية تتمثل في جميع المعارف التي تدور حول الاسلام وتشتمل على اللغة العربية بكل علومها والدراسات القرآنية والحديثية وتاريخ المسلمين ومباحث علم الكلام وغير ذلك . وخلف لنا الأقدمون حضارة ترتبط بالاسلام. وهذه كلها لا يجوز لأي مسلم أن يترك شيئـاً منها لأنها جميعها ترتبط بالاسلام . أما أخطاء المعتزلة في منهجهم عندمـا انتفعوا بالثقافة اليونانية فلا بأس بالتخلي عنها لأنها تحمل عروقاً وثنية كقولهم : يجب على الله ألا يفعل إلا الأصلح . وما عدا ذلك فهي ثقافة إسلامية يجب على كل مسلم التمسك بهـا لأنها أساس في شخصيته . ويجب على كل مسلم ان يبدأ بها فيتثقف بها أولاً ، ثم يدرس الثقافات الأجنبية لينتفع بها إنتفاعاً خاضعاً لأفكاره وثقافته .

أما العلم الذي يعتمد على الملاحظة والتجربة والاستنتـاج فإن الاسلام يبيح أخذه عن جميع الشعوب إلا إذا كان مخالفـاً للاسلام مثل فن النحت والـتماثيل .

ونحن لا نقول بأن يتمسك المسلم بالمحراث ويترك التراكتور، ولا نقول بأن يتمسك المسلم بالجمل والحصان ويترك الطائرة والدبابة ، لأن هـذه كلها نتجت عن علم ، ويجوز للأمة الاسلامية ان تأخذها عن أي شعب أو أية أمة ولا أثر لها على عقيدتها وثقافتها . فالمسلم يبقى مسلماً عندما يركب الطائرة ، والشيوعي يبقى شيوعياً عندما يركب الطائرة أو غيرها . إن لينين عندما نقل الفكر الماركسي كتبه باللغة الروسية القيصرية مع أنه قام بتحطيم الأوضاع

الاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي كانت في العهد القيصري .

وأنا لا أفهم ماذا يعنيه الدكتور زكي نجيب محمود بعنوان كتابه « تجديد الفكر العربي» . أيُّ فكر عربي ؟ هل هو تقاليد الجاهليين وعاداتهم؟ أم أنه الفكر الاسلامي. وإذا كان القرآن نزل بلغة الضاد فلا يعني أنه صار فكراً عربياً وإذا كانت الثقافة الإسلامية كتبت بالعربية فلأن هذه اللغة هي لغة القرآن، والعرب هم سورُ الإسلام وسياجه ، وهم الذين نشروه إلى أهل الأرض . وإذا كان يعني بالفكر العربي الاشتراكيه العربية أو الإسلامية ، فإننا بينا أن العرب لم يعرفوا الاشتراكية في جاهليتهم ، وبَيَّنّا أن الإسلام نظام متكامل قائم برأسه ليس فيه اشتراكية ولا ديموقراطية .

وهكذا يتبين لك أيها القارىء الاضطراب وغموض الرؤية التي وقع فيها الدكتور زكي نجيب محمود . وإذا كان الشيخ محمد عبده هو الرائد في التوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية في إنتاجه في تفسير القرآن الكريم ، فإن الدكتور زكي نجيب محمود حذا حذوه في ميدان الفكر في التوفيق بين تراث المسلمين وبين ثقافة الغرب الرأسمالي .

هذه هي الكتب التي قدمتها للقارىء ، على سبيل المثال لا الحصر ، سلك فيها أصحابها مسلك محمد عبده في نزعته التي تقوم على تحكيم العقل والعلمانية في فهم القرآن وعلى التوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية . وفي هذه الكتب نجد مؤلفيها يتخذون محمد عبده إماماً لهم في فهم القرآن والفكر الإسلامي وأنظمته وثقافته . ونجد أن محمد عبده هو الذي فتح الباب على مصراعيه لهؤلاء وغيرهم، وإن كنا نعلم أن بعضهم كان مخلصاً حَسَنَ النية.

ويعلم الله أنا لم نرد التشهير أو الطعن الشخصي في أحد منهم . ولكن هذا الاسلام وثقافته وأفكاره ليست ملكاً لأحد منهم يقول فيها ما يشاء . وأنا أعلم أن منهم من هو في ذمة الله ، ومنهم من ينتظر أجله . وأنا أعرف

الحديث الذي يقول (اذكروا محاسن موتاكم) . فمحمد عبده وجمال الدين الايراني المتأفغن مثلا قد ذكرت كل أعمالهما وأقوالهما على أنها محاسن. وأنا الآن أقوم بتنفيذ ما يريده الحديث (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان). صدق رسول الله . وأنا أعلم أن كثيراً من الجهلة من المسلمين يربطون الاسلام بالعلماء . فالاسلام يمثله القرآن والرسول محمد ﷺ فقط وليس جمال الدين ولا محمد عبده ممثلين للإسلام ولا غيرهما . والاسلام بخير ، ما دام الانسان يحب الحق ويرفض الباطل ويلفظه . وإذا سيطر الباطل لا سمح الله ، فإن الله غنيٌّ عن العالمين .

الفصل الثالث

اتجاه علمي

كان الغرض الأول من تفسير القرآن عند قدماء المفسرين تبيين مُراد الله تعالى في العقيدة والأحكام الشرعية المنبثقة عنها . وعندما نشأت الفِرَق الإسلامية أمسى الغرض الأول من تفسير القرآن عند أصحاب الفِرَق التماس مسوّغات لمذاهبهم ودعمها وتثبيتها .

ولو أراد باحثٌ أن يتتبّع بدايات نزعة التفسير العلمي ومسيرتها عبر القرون التي فسرّ المسلمون فيها كتاب الله تعالى لوجدَ أن هذه النزعة تمتدُّ من العصر العباسي الذهبي إلى أيامنا ومن الطبيعي أن تكون بداية هذه النزعة العلمية على شكل محاولات للتوفيق بين الإسلام وبين ما ترجم من ثقافات أجنبية وما استحدث من علوم في البيئة الإسلامية ، حتى صارت هذه النزعة قوية ومعلنةً في القرن الخامس الهجري وما تلاه ، إلى أن صارت هذه النزعة ضخمة غلاّبة في أواخر القرن التاسع عشر وإلى أيامنا بفعل تخلُّف المسلمين في الناحية العلمية والصناعية ، وتقدّم الغرب وتفوُّقه .

وقد رشّح لبروز هذه النزعة وانبجاسها أكثر من عامل ؛ فالمسلمون عندما نظروا في كتاب الله وجدوا أن هذا القرآن تكفّل لهم السعادة في

الدارين ؛ الدنيا والآخرة . وعندما وصف الله تعالى الأمة الإسلامية بأنها خير أمة أُخرجت للناس فلا بدّ أن تكون هذه الخيْرية منسحبة على كلّ شيء . فهذا محمد بن حبّان البُستي من كبار رجال الحديث في القرن الرابع الهجري يعدّد الأمصار والأصقاع التي تشملها عمارة الإسلام ، ويذكر المحدّثين في كل مصر وصقع يقرّر أن ما وراء هذه الأصقاع من المدن يسكنها غير أولي الأحلام [١] .

وكل من ينظر في القرآن الكريم ويطّلع عليه يجد مئات الآيات التي تشير إلى الكون والإنسان والحياة ، ويجد الآيات الكثيرة التي تحضّ الإنسان على التدبُّر والتفكُّر .

يقول الله تعالى : (... ما فرّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يُحشَرون) [٢] .

ويقول تعالى : (كتابٌ أنزلناهُ إليك مباركٌ ليدّبّروا آياتهِ وليتذكّر أولوا الألباب) [٣] .

وآيات القرآن الكريم تقرّر أن علم الإنسان بدأ بما علّمه له الله سبحانه وتعالى ، إذْ علّم آدم أول البشر الأسماء كلها بنصّ الآيات الشريفة (وعلّم آدم الأسماء كلّها ثم عرضهُم على الملائكة ... الآية) [٤] .

وكذلك ما وصلت إليه الحيوانات والطيور والحشرات من علم فإنما ذلك وحي الله سبحانه وتعالى ، وذلك بنصّ الآيات الشريفة : (وأوحى ربُّكَ إلى النّحل أن اتّخذِي من الجبالِ بُيوتاً ومن الشّجر ومما يعرُشُون) [٥] .

---

(١) كتاب مشاهير علماء الأمصار – المقدمة : ص ١ .
(٢) سورة الأنعام ، الآية ٣٨ .
(٣) سورة ص ، الآية ٢٩ .
(٤) سورة البقرة ، الآيات ٣١ – ٣٣ .
(٥) سورة النحل ، الآية ، ٦٨ .

والتفسير العلمي : هو التفسير الذي يتوخّى أصحابه إخضاع عبارات القرآن للنظريات والاصطلاحات العلمية وبذل أقصى الجهد في استخراج مختلف مسائل العلوم والآراء الفلسفية منها .

وفي الصفحات التالية نقوم بدراسة هذه النزعة أو هذا الاتجاه من نشأته البسيطة إلى واقعه الذي يُلحّ إلحاحاً في العصر الحديث ، ثم موقف بعض العلماء السابقين منه وموقف بعض العلماء المحدثين منه ، ثم موقفنا نحن منه .

جذور قديمة للاتجاه العلمي في التفسير

يظهر للباحث أن الإمام الغزّالي أكثر من عمل على ترويج التفسير العلمي في الأوساط العلمية الإسلامية ، على رغم ما قُرّر فيها من قواعد فهم عبارات القرآن وشرحها . والإمام أبو حامد الغزّالي المتوفّى سنة « ٥٠٥ هـ » من سادات الصوفية الذين يرون أن لكل كلمة في القرآن ظاهر وباطن وحدٌ ومطلع كما جاء في الحديث .

وإذا ما تصفّح المرء كتاب الإحياء للغزّالي يجده يعقد الباب الرابع من أبواب آداب تلاوة القرآن في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل، يقول: وقد قال ﷺ : (مَنْ فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار) . وعلى هذا شنّع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوّف من المفسّرين المنسوبين الى التصوّف في تأويل كلمات في القرآن على خلاف ما نُقل عن ابن عبّاس وسائر المفسّرين ، وذهبوا الى أنه كفر ... بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفَهم . وقال أبو الدّرداء : لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً . وقد قال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر. وقال آخرون: القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم ، إذ كلّ كلمة علم ، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحدّ ومطلع ...

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: مَنْ أراد عِلمَ الأولين والآخرين فليتدبّر القرآن، وذلك لا يحصل بمجرّد تفسيره الظاهر. وبالجملة، فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عزّ وجلّ وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة الى مجامعها، والمقامات في التعمّق في تفصيله راجعٌ الى فهم القرآن، ومجرّد ظاهر التفسير لا يشير الى ذلك، بل كلُّ ما أشكل فهمه على النظّار، واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات، ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختصُّ أهل الفهم بدَرْكها. وقال عليٌّ كرم الله وجهه: مَنْ فهم القرآن فسّر به مُجمل العلم، أشار به الى أن القرآن يُشير الى مجامع العلوم كلها [1].

ويبيّن الإمام الغزّالي في كتابه «جواهر القرآن» الذي ألّفه بعد إحياء علوم الدين، يبيّن ويفصّل ما قرّره في كتاب الإحياء، فيعقد الفصل الرابع منه لكيفية انشعاب العلوم الدينية كلها وما يتصل بها من القرآن عن تقسيمات وتفصيلات تولاها. وقد قسم علوم القرآن الى قسمين:

الأول: علم القشر والصدف، وينشعب من ألفاظه: علم اللغة، وعلم النحو، وعلم القراءات، وعلم مخارج الحروف، وعلم التفسير الظاهر.

والثاني: علوم اللُّباب، وتشتمل على: معرفة قصص القرآن وما يتعلق بالأنبياء، وعلم الكلام، وعلم الفقه، وعلم أُصول الفقه، والعلم بالله واليوم الآخر، والعلم بالصراط المستقيم وطريق السلوك. فهذه هي مجامع العلم التي تتشعّبُ من القرآن ومراتبها [2].

ثم يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن، فيذكر علم الطب والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان، وتشريح

---

(١) إحياء علوم الدين: ١/٢٦٠ وما بعدها.

(٢) جواهر القرآن ص ٢١ — ٢٦.

أعضائه ، وعلم السحر ، وعلم الطّلسمات وغير ذلك ثم يقول : « فاعلم أنا إنما أشرنا الى العلوم الدينية التي لا ُبدّ مِن وجود أصلها في العالم ، حتى يتيسّر سلوك طريق الله تعالى والسّفر إليه . أمّا هذه العلوم التي أشرتُ إليها فهي علوم، ولكن لا يتوقف على معرفتها صلاح المعاش والمعاد، فلذلك لم نذكرها. ووراء ما عددته علوم أخرى ُيعلم تراجمها ولا يخلو العالم عمّن يعرفها ، ولا حاجة الى ذكرها ، بل أقول : ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتمارى فيها أن في الإمكان والقوة أصنافاً من العلوم بعدُ لم تخرج من الوجود ، وإن كان في قوة الآدميّ الوصول إليها ، وعلومٌ كانت قد خرجت الى الوجود واندرست الآن ، فلن يوجد في هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها ، وعلوم أخر ليس من قوة البشر أصلاً إدراكها والإحاطة بها ، ويحظى بها بعض الملائكة المقرّبين ، فإن الإمكان في حقّ الآدمي محدود ، والإمكان في حقّ الملَك محدود ، الى غاية في الكمال بالإضافة ، كما أنه في حقّ البهيمة محدودٌ الى غاية من النقصان ، وإنما الله سبحانه هو الذي لا يتناهى العلم في حقه ، ويُفارق علمُنا علم الحقّ في شيئين : أحدهما : انتفاء النهاية عنه ، والآخر : أن العلوم ليست في حقه بالقوة والإمكان الذي ُينتظر خروجه بالوجود ، بل هو بالوجود والحضور ، فكلُّ ممكن في حقّه من الكمال فهو حاضر وموجود » (١) .

ثم يقول أبو حامد الغزّالي : « ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعدّها ، ليست أوائلها خارجة عن القرآن ، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى ، وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له ، وأن البحر لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد ، فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال مثلاً — الشفاء والمرض ، كما قال تعالى حكايةً عن إبراهيم : (وإذا

(١) المرجع السابق : ص ٢٨ وما بعدها .

مرضتُ فهو يشفينِ) . وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطبّ بكماله ، إذ لا معنى للطبّ إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته ، ومعرفة الشفاء وأسبابه . ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان ، وقد قال الله تعالى : (الشمسُ والقمرِ بحُسبان) ، وقال (وقدّرة منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) وقال (... وخَسِفَ القمر ، وجُمِع الشمسُ والقمر) وقال (يُولجُ الليلُ في النهار ويُولجُ النهارُ في الليل) وقال (والشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقديرُ العزيز العليم) ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحُسبان وخسوفهما وولوج الليل في النهار ، وكيفية تكوُّر أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض ، وهو علم قائم برأسه . ولا يعرف كال معنى قوله (يأيها الإنسانُ ما غرّك بربّك الكريم ، الذي خلقك فسوّاك فعدلكَ ، في أيّ صورةٍ ما شاء ركّبَك) إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً وعددها وأنواعها وحكمها ومنافعها . وقد أشار في القرآن في مواضع إليها ، وهي من علوم الأوّلين والآخرين ، وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين. وكذلك لا يعرف كال معنى قوله (سوّيتُه ونفختُ فيه من روحي) ما لم يعلم التسوية ، والنفْخ ، والروح . ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخَلق ، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالِم بها . ولو ذهبت أُفصّلُ ما تدلّ عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ، ولا تمكن الإشارة إلا الى مجامعها. وقد أشرنا إليه حيث ذكرنا أن من جملة معرفة الله تعالى أفعاله ، فتلك الجملة تشتمل على هذه التفاصيل ، وكذلك كل قسمٍ أجملناه لو شُعب لانشعب الى تفاصيل كثيرة . فتفكّر في القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين وجملة أوائله . وإنما التفكّر فيه للتوصل من جملته الى تفصيله وهو البحر الذي لا شاطىء له »(١)

---

(١) جواهر القرآن : ص ٢٩ وما بعدها .

وإذا كان الغزّالي قد روّج للتفسير العلمي في الأوســـاط العلمية وكيف انشعبت بعض العلوم من القرآن . وبمعنى آخر إذا كان الغزّالي وضع الأسس النظرية للتفسير العلمي للقرآن الكريم ، فإن الفخر الرازي صاحب مفاتيــح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير المتوفى سنة (٦٠٦ هـ) قد طبّق كل مـــا استحدثته البيئة الإسلامية من ثقافة علمية وفكرية على آيات القرآن الكريم ، حتى قال بعض العلماء فيه : « لقد قال الفخر الرازي كل شيء في تفسيره إلا التفسير »(١) .

ومن الأمثلة على ذلك قول الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى : (وأوحى ربُّك الى النحل أن اتّخذي من الجبال بيوتاً ومِنَ الشجر ومما يعرُشُون ، ثم كُلي مِنْ كل الثمرات فاسلكي سُبُل ربّك ذُللا يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيــه شفاءٌ للناس إن في ذلك لآيةً لقومٍ يتفكّرون)(٢) : « إعلم أنه تعالى لما بيّن أن إخراج الألبان من النّعم وإخراج السّكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب دلائل قاهرة وبيناتٌ باهرة على أن لهذا العالم إلهاً قادراً مختاراً حكيماً فكذلك إخراج العسل من النحل دليلٌ قاطعٌ وبرهانٌ ساطعٌ على إثبات هذا المقصود، وفي الآية مسائل: (المسألة الأولى) قوله (وأوحى ربُّك الى النّحل) يُقال وحى وأوحى ، وهو الإلهام ، والمراد من الإلهام أنه تعالى قرّر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي تعجز عنهـــا العقلاء من البشر وبيانه من وجوه : (الأول) أنها تبني البيوت المسدّسة من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرّد طباعها ، والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت إلا بآلاتٍ وأدوات مثل المسطر والفرجار . (والثاني) أنه ثبت في الهندسه أن تلك البيوت لو كانت مشكّلة بأشكالٍ

---

(١) البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي : ٣٤١/١ .

(٢) سورة النحل ، الآيتان ٦٨ ، ٦٩ .

سوى المسدّسات فإنه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فُرجٌ خالية ضائعة ، أما إذا كانت تلك البيوت مسدّسة فإنه لا يبقى فيما بينها فُرجٌ ضائعة ، فإهداء ذلك الحيوان الضعيف الى هذه الحكمة الخفيّة والدقيقة اللطيفة من الأعاجيب .

(والثالث) أن النّحل يحصل فيما بينها واحدٌ يكون كالرئيس للبقيّة ، وذلك الواحد يكون أعظم جُثّةً من الباقي ، ويكون نافذ الحكم على تلك البقيّة ، وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران ، وذلك أيضاً من الأعاجيب

(والرابع) أنها إذا نفرت من وكرها ذهبت مع الجمعية الى موضع آخر فإذا أرادوا عودها الى وكرها ضربوا الطنبور والملاهي وآلات الموسيقى ، وبواسطة تلك الألحان يقدرون على ردّها الى وكرها ، وهذا أيضاً حالة عجيبة . فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالّة على مزيد الذكاء والكياسة ، وكان حصول هذه الأنواع من الكياسة ليس إلا على سبيل الإلهام ، وهي حالة شبيهة بالوحي لا جرم قال تعالى في حقّها (وأوحى ربُّك الى النّحل) . واعلم أن الوحي قد ورد في حق الأنبياء لقوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وحْياً) وفي حق الأولياء أيضاً ، قال تعالى (وإذْ أوحيْتُ الى الحواريين) وبمعنى الإلهام في حق البشر ، قال تعالى (وأوحيْنا الى أمّ موسى) وفي حقّ سائر الحيوانات كما في قوله (وأوحى ربُّك الى النّحل) . ولكل واحدٍ من هذه الأقسام معنىً خاص والله أعلم » [1] .

البيضاوي والتفسير العلمي

سرت الى البيضاوي قاضي القضاة المتوفى سنة (٦٩١ هـ) صاحب

---

(١) مفاتيح الغيب : ٥/٤٨٥ وما بعدها .

التفسير المعروف بـ « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » سرت إليه أو تساقطت إليه نزعة علمية في تفسير القرآن الكريم [1] . وذلك لأنه استمد تفسيره من التفسير الكبير المسمّى بمفاتيح الغيب للفخر الرازي . واختصر تفسيره من الكشّاف للزمخشري ولكنه ترك ما فيه من اعتزالات . وضمّ لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم .

نظام الدين القُمّي النيسابوري والتفسير العلمي

إذا مرّ النيسابوري المعروف بالنظّام الأعرج صاحب التفسير المعروف بـ « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » المتوفى سنة (٧٢٨ هـ) إذا مرّ على آية من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الكون فإنه يخوض في أسرار الكون وكلام الطبيعيين والفلاسفة . وتساقطت اليه هذه النزعة العلمية بسبب عاملين: الأول : التفسير الكبير للفخر الرازي ، الذي اختصر تفسيره منه ، والثاني: قُدرته على تأويل الآيات بلسان أهل الحقيقة ومتفلسفة الصوفية الذين يرون أن لكل لفظة في القرآن ظهراً واحداً مطلقاً .

ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (واتّبعَوا ما تتلوا الشياطينُ على مُلك سليمان وما كَفَرَ سليمان ولكنّ الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر وما أنزل على الملكيْن ببابلَ هاروت وماروت .... الآية)[2] « ثم السحر على أقسام : منها سحر الكلدانيين الذين كانوا في قديم الدهر، وهم قومٌ يعبدون الكواكب ويزعمون أنها هي المدبِّرة لهذا العالم ، ومنها تصدُر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة ، ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية ، وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام مُبطلاً لمقالتهم وراداً عليهم مذاهبهم. ومنها سحر أصحاب الأوهام والنفوس

---

(١) انظر مثلا أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ص ٥٨٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٠٢ .

القوية ، بدليل أن الجذع الذي يتمكن الإنسان من المشي عليه لو كان موضوعاً على الأرض لا يمكنه المشي عليه لو كان كالجسر ، وما ذاك إلا لأن تخيُّل السقوط متى قوي أوجبه . وقد اجتمعت الأطباء على نهي المرعوف عن النظر الى الأشياء الحُمر ، والمصروع عن النظر الى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران ، وما ذاك إلا لأن النفوس خُلقت مطيعةً للأوهام . وحكي في الشفاء عن أرسطو أن الدجاجة إذا تشبَّهت كثيراً بالديكة في الصوت وفي الحراب مع الديكة نبت على ساقها مثل الشيء النابت على ساقِ الديك. وهذا يدلُّ على أن الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية . واجتمعت الأمم على أن الدعاء مظنّة الإجابة ، وأن الدعاء باللسان من غير طلبٍ نفسانيّ قليل الأثر .

ويُحكى أن بعض الملوك عَرَضَ له فالجٌ ، فدخل عليه بعض الحُذّاق من الأطباء على حين غفلة منه ، وشافهه بالشَّتْم والقدح في العرض ، فاشتدَّ غضب الملك ، وقفز من مرقده قفزة اضطرارية ، وزالت تلك العلّة المزمنة .... »[1] .

الزركشي والتفسير العلمي

إن الذي يتصفّح كتاب « البرهان في علوم القرآن » يجد صاحبه الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة (٧٩٤ هـ) يجده في الجزء الثاني من الكتاب يعقد فصلاً في حاجة المفسّر الى الفهم والتبحُّر في العلوم . وفي هذا الفصل تراه يقول بالتفسير العلمي ، فينقل أقوال بعض الصحابة رضي الله عنهم ، وكذلك ينقل أقوال الإمام الغزّالي التي ذكرها في إحياء علوم الدين ، يقول الزركشي : « كتاب الله بحره عميق ، وفهمه دقيق ، لا يصل الى فهمه إلا من تبحّر في العلوم ، وعامل الله بتقواه في السرّ

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان : ٣٨٧/١ وما بعدها .

والعلانية ، وأجلَّه عند مواقف الشبهات . واللطائف والحقائق لا يفهمها إلا من ألقى السمع وهو شهيد ، فالعبارات للعموم وهي للسمع ، والإشارات للخصوص وهي للعقل ، واللطائف للأولياء وهي المشاهد ، والحقائق للأنبياء وهي الاستسلام . وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه : لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً . وقال ابن مسعود : من أراد علم الأولين والآخرين فليثوِّر القرآن ، أي لِيُنَقِّر عنه ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءاته . وقال ابن سبع (أبو الربيع سليمان بن سبع السَّبْتي) في شفاء الصدور : « هذا الذي قاله أبو الدرداء وابن مسعود لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر » . وقد قال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم، وما بقي من فهمها أكثر. وقال آخر : القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم ، إذ لكل كلمة علم ، ثم يتضاعف ذلك أربعة ، إذ لكل كلمة ظاهرٌ وباطنٌ وحدٌّ ومطلع . وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله تعالى وصفاته ، وفي القرآن شرح ذاته وصفاته وأفعاله ، فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ، ومتسعاً بالغاً، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس ينتهي الإدراك فيه بالنقل، والسماع لا بدَّ منه في ظاهر التفسير ، ليتَّقي به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتَّسع الفهم والاستنباط ، والغرائب التي لا تُفهم إلا باستماع فنون كثيرة . ولا بدَّ من الإشارة الى جُملٍ منها ليُستدل بها على أمثالها ، ويُعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولاً ، ولا مطمع في الوصول الى الباطن قبل إحكام الظاهر »[1] .

الجلال السيوطي والتفسير العلمي

كذلك نجد جلال الدين السيوطي يُتابع من سبقه من دُعاة التفسير العلمي للقرآن الكريم . ونجد هذه الدعوة واضحة موسعة في كتابه الإتقان ، وفي

(١) البرهان في علوم القرآن : ٢/١٥٣ – ١٥٥ .

كتابه « الإكليل في استنباط التنزيل » وفي كتابه « معترك الأقران في إعجاز القرآن » . ونرى السيوطي يُورد الآيات والأحاديث والآثار وأقوال المفسرين والعلماء ليستشهد بها على أن القرآن مشتمل على كل العلوم . وفي النوع الخامس والستين من « الإتقان » وعنوانه « في العلوم المستنبطة من القرآن » يقول : « قال تعالى : (ما فرّطنا في الكتاب من شيء) وقال : (ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) . وقال ﷺ : (ستكون فتن ، قيل : وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم) أخرجه الترمذي وغيره . وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود قال : من أراد العلم فعليه بالقرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين . قال البيهقي : يعني أصول العلم . وأخرج البيهقي عن الحسن قال : أنزل الله مائة وأربعة كتب وأودع علومها أربعة منها التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان . وحكى ابن سراقة في كتاب الإعجاز عن أبي بكر بن مجاهد أنه قال يوماً : ما من شيء في العالم إلا وهو في كتاب الله ، فقيل له : فأين ذكر الخيانات فيه ؟ فقال: في قوله : (ليس عليكم جُناحٌ أن تدخلو بيوتاً غير مسكونه فيها متاعٌ لكم) فهي الخيانات . وقال غيره : ما من شيء إلا يمكن استخراجه من القرآن لمن فهّمه الله ، حتى أن بعضهم استنبط عمر النبي ﷺ ثلاثاً وستين سنة من قوله في سورة المنافقين (ولن يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها) فإنها رأس ثلاث وستين سورة ، وأعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده »[1] .

أبو الفضل المرسي والتفسير العلمي

وأورد صاحب الإتقان أقوال ابن أبي الفضل المرسي في تفسيره ، يقول : « وقال ابن أبي الفضل المرسي في تفسيره : « جمع القرآن علوم الأولين

---

(١) الإتقان في علوم القرآن . ١٢٥/٢ وما بعدها .

والآخرين بحيث لم يُحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم بها ، ثم رسول الله ﷺ ، خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس حتى قال : لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم ، وفترت العزائم ، وتضاءل أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه ، فنوعوا علومه ، وقامت كل طائفة بفنٍّ من فنونه ، فاعتنى قوم بضبط لغاته ، وتحرير كلماته ، ومعرفة مخارج حروفه ، وعددها ، وعدد كلماته ، وآياته ، وسوره ، وأحزابه ، وأنصافه ، وأرباعه ، وعدد سجداته ، والتعليم عند كل عشر آيات ... إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة ، والآيات المتماثلة ، من غير تعرض لمعانيه ، ولا تدبّر لما أُودع فيه ، فسمُّوا القرّاء . واعتنى النحاةُ بالمُعرب منه ، والمبنيّ من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها ، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها ، وضروب الأفعال ، واللازم ، والمتعدّي ، ورسوم خط الكلمات ، وجميع ما يتعلق به ، حتى أن بعضهم أعرب مشكلهُ ، وبعضهم أعربه كلمةً كلمة . واعتنى المفسرون بألفاظه ، فوجدوا منه لفظاً يدل على معنىً واحد ، ولفظاً يدل على معنيين ، ولفظاً يدل على أكثر ، فأجروا الأول على حكمه ، وأوضحوا معنى الخفيّ منه ، وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني ، وأعمل كلٌّ منهم فكره ، وقال بما اقتضاه نظره ... ونظر قومٌ إلى ما فيه من الآيات الدالاّت على الحكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر ومنازله والنجوم والبروج وغير ذلك ، فاستخرجوا منه علم المواقيت . ونظر الكُتّاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم وحُسن السياق والمبادي والمقاطع والمخالص والتلوين في الخطاب والإطناب والإيجاز وغير ذلك ، واستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع . ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة ، فلاحَ لهم من ألفاظه معانٍ ودقائق جعلوا لها أعلاماً اصطلحوا عليها مثل الفناء والبقاء والحضور والخوف

والهيبة والأُنس والوحشة والقبض والبسط وما أشبه ذلك . هذه الفنون التي أخذتها المِلّة الإسلامية منه . وقد احتوى على علوم أُخرى من علوم الأوائل مثل الطبّ والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك .

أما الطبُّ فمدارُه على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة ، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادّة ، وقد جمع ذلك في آية واحدة ، وهي قوله تعالى : (وكان بين ذلك قواما) . وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالى : (شراب مختلفٌ ألوانه فيه شفاءٌ للناس) ... وأما الهيئة ففي تضاعيف سورة من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض ، وما بثّ في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات . وأما الهندسة ففي قوله تعالى (انطلقوا إلى ظلٍّ ذي ثلاث شُعَبٍ) .

وأما الجدلُ فقد حوتْ آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقول بالموجب والمعارضة وغير ذلك شيئاً كثيراً ، ومناظرة إبراهيم عليه السلام نمرود ومحاجّته قومه أصلٌ في ذلك عظيم .

وأما الجبر والمقابلة فقدقيل إن أوائل السُّور فيها ذكرُ مُدَدٍ وأعوام وأيام لتواريخ أممٍ سالفة ، وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة ، وتاريخ مدة أيام الدنيا، وما مضىوما بقي مضروبٌ بعضها في بعض.. وفيه من أسماءِ الآلات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله تعالى (ما فرّطنا في الكتاب من شيء) »[1].

ثم يورد قول ابن سُراقة في إعجاز القرآن ، يقول: « وقال ابن سُراقة : « من بعض وجوه إعجاز القرآن ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع

---

(١) الإتقان في علوم القرآن : ٢/١٢٦ – ١٢٨ .

والقسمة والضرب والموافقة والتأليف والمناسبة والتصنيف والمضاعفة ليعلم بذلك أهل العلم بالحساب أنه ﷺ صادقٌ في قوله ، وأن القرآن ليس من عنده، إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة ولا تلقى الحساب وأهل الهندسة »[١].

ويورد قول الراغب الأصفهاني ، يقول : وقال الراغب: « إن الله تعالى كما جعل نُبوّة النبيّين بنُبوّة محمد ﷺ مختتمة وشرائعهم من وجه منتسخة ومن وجه مكمّلة متمّمة ، جعل كتابه المنزّل عليه متضمناً لثمرة كتبه التي أولاها أولئك كما نبّه عليه بقوله (... يتلو صحفاً مطهّرة ، فيها كتبٌ قيّمة) ، وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمّنٌ للمعنى الجمّ بحيث تقصر الألباب البشرية عن إحصائه ، والآلات الدنيوية عن استيفائه ، كما نبّه عليه بقوله (ولو أنما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحر يمُدُّه من بعدهِ سبعة أبحرٍ ما نفدت كلماتُ الله إن الله عزيزٌ حكيم) »[٢] .

ويذكر عن القاضي أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه « قانون التأويل » : « علوم القرآن خمسون علماً ، وأربعمائة علم ، وسبعة آلاف علم ، وسبعون ألف علم ، على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة ؛ إذ لكلّ كلمة ظهر وبطن وحدٌ ومطلع . وهذا مطلق دون اعتبار التركيب ، وما بينها من روابط ، وهذا ما لا يُحصى ، وما لا يعلمه إلا الله »[٣] .

ويعقّب الجلال السيوطي على هذه الأقوال وغيرها ، فيقول : « وأنا أقول : قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء. أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدلُّ عليها، وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السموات والأرض ، وما في الأفق الأعلى وما تحت الثرى ... إلى

---

(١) المرجع السابق : ١٢٨/٢ .

(٢) المرجع السابق ١٢٨/٢ .

(٣) المرجع السابق : ١٢٨/٢ .

غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات »[1] .

من كل ما تقدّم نستطيع أن نقول إن الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم كانت له جذور قديمة وجدناها عند الغزّالي والفخر الرازي والبيضاوي ونظام الدين القُمّي النيسابوري والزركشي والجلال السيوطي وأبي الفضل المرسي وابن سُراقة والراغب الأصفهاني وأبي بكر بن العربي. ولاحظنا كيف ظهرت آثار الثقافة العلمية للمسلمين وتُساقطت إلى تفسير القرآن الكريم ، وكيف حاول هؤلاء وغيرهم أن يجعلوا القرآن منبع العلوم كلها، ما استحدث منها في البيئة الإسلامية وما سوف يُستحدث إلى يوم القيامة .

التفسير العلمي في العصر الحديث

ذكرنا في التمهيد أن العالم الإسلامي عاش في عزلة سياسية واقتصادية وفكرية حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي. فلم يصله عنصرٌ واحد من العناصر المكوّنة للحضارة الغربية والمدنية الغربية التي كانت تسير بخطى سريعة في طريق التقدم فيما بين القرن السادس عشر وأواخر القرن الثامن عشر . وقلنا إن المسلمين في أوائل القرن التاسع عشر بدأوا يشعرون بالحاجة الى الاتصال بالغرب والنقل عنه فيما يتصل بالجانب المادي الآلي لا الفكري .

ولم يكن يستهدف أصحاب هذا الشعور إلا وصل المسلمين بأسباب القوة لكي يكونوا أنداداً لأعدائهم . وذكرنا أن بعض المبعوثين الذين أرسلوا الى فرنسا منذ ١٨٢٦ م « رفاعة الطهطاوي » رجعوا إلى بلادهم وهم يحملون بذوراً غربية فكرية وألقوها في التربة الإسلامية . وهنا تكمن بداية الخطر الذي يتمثل في عدم التفريق بين العلم في الغرب وبين الفكر والثقافة الغربية . وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازداد وضع المسلمين العلمي سوءاً.

---

(١) المرجع السابق : ١٢٩/٢ وما بعدها . قارن ذلك بما جاء في معترك الأقران في اعجاز القرآن للجلال السيوطي : ١٤/١ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ .

فالغرب يتقدم علمياً وصناعياً والمسلمون على حالهم لا يتقدّمون شيئاً يُذكر في ميدان العلم والصناعة . وبدأت جيوش المبشرين والمستشرقين في الزحف على العالم الإسلامي لتمهّد للجيوش المسلحة لاستعمار بلاد الإسلام فكرياً وعسكرياً واقتصادياً وسياسياً . واحتلّ الأوروبيون بعض بلاد الإسلام ، وعزموا على الإطاحة بدولة الخلافة في إستانبول مهما كلفهم ذلك . في هذه الفترة بالذات بدأ المخلصون ينظرون في كتاب الله تعالى ، فحسبوا أن فيه إشارات الى أصول العلوم . ولسان حالهم يقول : إذا كنتم أيها الغربيون تفوّقتم علينا في العلم والصناعة ، فإن كتابنا « القرآن » ليس سبب تأخرنا وتخلفنا ، بل إنه يحوي أصول العلوم. وقد كان بعض المبشرين والمستشرقين يروّج لفكرة مؤدّاها أن تخلّف المسلمين يرجع إلى تمسكهم بالقرآن .

ومن هنا تجد الجذور القديمة للتفسير العلمي للقرآن الظروف الملائمة للامتداد والحياة الخصبة . وتشتدّ هذه النزعة في بداية القرن العشرين ، إذ روّج لها محمد عبده وغيره ترويجاً قويا ، حتى وصل الأمر إلى تأليف تفسير في كثير من صفحاته رسوم وصور للحيوانات والنباتات .

وقد استشرى أمر هذا الاتجاه من التفسير في العصر الحديث وراج لدى بعض المثقفين المسلمين الذين يُعنون بالعلوم وبالقرآن الكريم معاً، وكان من أثر هذه النزعة التفسيرية التي تسلطت على قلوب أصحابها ، كما يقول الأستاذ محمد حسين الذهبي ، أن أخرج لنا المشغوفون بها كثيراً من الكتب ، يحاول أصحابها فيها أن يحمّلوا القرآن كل علوم الأرض والسماء ، وأن يجعلوه دالاً عليها بطريق التصريح أو التلميح اعتقاداً منهم — كما قلنا — أن هذا بيانٌ لناحية من أهم نواحي صدقه ، وإعجازه ، وصلاحيته للبقاء [1] .

وإذا نحن تصفحنا « روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني » لمحمود

---

(١) انظر كتاب التفسير والمفسرون : ٣/١٦٣ .

الآلوسي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ = ١٨٥٠ م ، وهو من كتب التفسير بالمأثور، نراه يستطرد في تفسيره إلى الكلام في الأمور الكونية ، ويذكر كلام أهل الهيئة وأهل الحكمة ، ويقرّر ما يرتضيه ويفنّد ما لا يرتضيه . وعندي أن الآلوسي في نزعته العلمية يُعدُّ استمراراً للجذور القديمة وامتداداً لها . فلم يتساقط إلى تفسيره شيء من تأثيرات العلم الحديث ومخترعاته ونظرياته وقوانينه . وهو في نزعته العلمية متأثر بما استحدث من علوم وما ترجم من ثقافات في البيئة الإسلامية . والذي بعثه على السير في هذا الاتجاه عاملان : الأول : كان ينقل من جملة ما ينقل عن تفسير الفخر الرازي المعروف بنزعته العلمية ، والثاني : كان ينحو في تفسيره منحى أهل كتب التفسير الإشاري .

ويوضّح ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (والشمس تجري لمستقرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيز العليم) [1] : « وقد سألت كثيراً من جِلّة المعاصرين عن التوفيق بين ما سمعتُ من الأخبار الصحيحة وبين ما يقتضي خلافها من العيان والبرهان ، فلم أُوفق لأن أفوز منهم بما يروي الغليل ويُشفي العليل. والذي يخطر بالبال في حلّ ذلك الإشكال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال أن الشمس وكذا سائر الكواكب مدركة عاقلة كما ينبيء عن ذلك قوله تعالى الآتي (وكلٌّ في فلكٍ يسبحون) حيث جيء بالفعل مسنداً إلى ضمير جميع العقلاء، وقوله تعالى (إني رأيتُ أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتُهم لي ساجدين) لنحو ما ذكر ، ويدلُّ عليه ظاهر ما روي عن أبي ذرٍّ من أنها تسجدُ وتستأذن ، فإن المتبادر من الاستئذان ما يكون بلسان القال دون لسان الحال، وخلق الله تعالى الإدراك والتمييز فيها حال السجود والاستئذان، ثم سلبه عنها مما لا حاجة إلى التزامه ، بل هو بعيدٌ غاية البعد ، والشواهد من الكتاب والسنّة وكلام العِترة على كونها ذات إدراك وتمييز مما لا تكاد تحصى كثرة ، وبعضها يدل على ثبوت ذلك لها بالخصوص ، وبعضها يدل على

(١) سورة يس ، الآية ٣٨ .

ثبوته لها باعتبار دخولها في العموم أو بالمقايسة ، إذ لا قائل بالفرق ، ومتى كانت كذلك فلا يبعد أن يكون لها نفسٌ ناطقة كنفس الانسان ، بل صرّح بعض الصوفية بكونها ذات نفس ناطقة كاملة جداً ، والحكماء أثبتوا النفس للفلك ، وصرّح بعضهم بإثباتها للكواكب أيضاً ، وقالوا : كل ما في العالم العلوي من الكواكب والأفلاك الكليّة والجزئية والتداوير حيٌّ ناطق ، والأنفس الناطقة الانسانية إذا كانت قدسية قد تنسلخ عن الأبدان ، وتذهب متمثلة ظاهرة بصور أبدانها أو بصور أخرى كما يتمثل جبريل عليه السلام ويظهر بصورة دِحية أو بصورة بعض الأعراب كما جاء في صحيح الأخبار»[1].

ومن أشهر الكتب التي ظهرت فيها نزعة التفسير العلمي للآيات القرآنية كتاب «كشف الأسرار النّورانية القرآنية» فيما يتعلّق بالأجرام السماوية والأرضية ، والحيوانات ، والنباتات ، والجواهر المعدنيــة » للطبيب محمد بن أحمد الاسكندراني من علماء القرن الثالث عشر الهجري ، وهو كتاب يقع في ثلاثة أجزاء يضمها مجلد واحد . ومطبوع بالمطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٧ هـ . ولهذا الطبيب أيضاً كتاب « تبيان الأسرار الربّانيــة في النبات والمعادن والخواصّ الحيوانية » . وقد طُبع هذا الكتاب في سوريا سنة ١٣٠٠ هـ[2].

ورسالة عبد الله فكري في مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية ، وقد طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٥ هـ .

ورسالة في تطبيق الهيئة الجديدة الآثار على بعض الآيات الشريفة وبعض الأخبار لإبراهيم فصيح الشهير بحيدري زاده البغدادي الذي صار عضواً من أعضاء مجلس المعارف في الآستانة [3] .

---

(١) روح المعاني : جـ ٢٣ ص ١٢ وما بعدها .

(٢) انظر التفسير والمفسرون : ٣/١٦٣ وما بعدها ، وانظر التفسير ، معالم حياتــه ـ منهجه اليوم : ص ٢١ .

(٣) انظر تاريخ التفسير : ص ٨٥ .

ورياض المختار للعالم الرياضي ، الذي كان صدراً أعظم من صدور الدولة العثمانية ، أحمد مختار باشا الغازي . وقد تناول فيه موضوع بحث الآيات الكونية في القرآن . وبحثه على جلالة قدره كان محدوداً وقاصراً على ناحية من نواحي العلم الحديث [١] .

ومن المؤلفات العلمية التي عُني أصحابها عنايةً خاصة بهذا الجانب وتوخّوا هذا التطبيق : محاضرات الأستاذ محمد توفيق صدقي في سُنن الكائنات [٢] .

وبين أيدينا كتاب « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » لعبد الرحمن الكواكبي الحلبي ، وهو عبارة عن مقالات نشرها في بعض الصحف عندما زار مصر سنة ١٣١٨هـ وَرَمَزَ لإسم المؤلف بالرحالة . ك. وهذا الكتاب في نقد الحكومات الاسلامية وبخاصة دولة الخلافة في إستانبول. وقد اقتبس في هذا الكتاب من أقوال ألفيري الكاتب الايطالي . وفي هذا الكتاب يلوم المؤلف أولئك الذين جعلوا إعجاز القرآن ممثلاً في فصاحته وبلاغته وما ذكره من مغيّبات ، وأهملوا الناحية العلمية في ألوف من آيات القرآن التي تدل على إعجازه المتجدّد ، على شاكلة قوله: « وإني أمثّل للمطالعين ما فعله الاستبداد في العلم والاسلام بما حَجَر على العلماء الحكماء من أن يُفسّروا قسمي الآلاء والأخلاق من القرآن تفسيراً مدققاً ، لأنهم كانوا يخافون مخالفة رأي السلف القاصرين في العلم فيكفّرون فيقتلون . وهذه مسألة إعجاز القرآن ، وهي أهم مسألة في الدين لم يقدروا أن يوفوها حقها من البحث ، واقتصروا على ما قاله بعض السلف أنها هي فصاحته وبلاغته وأخباره عن أن الروم من بعد غَلَبهم سيُغلبون. مع أنه لو أُطلق للعلماء عنان التدقيق وحرية الرأي والتأليف كما أُطلق لأهل التأويل والخرافات لرأوا في ألوف من آيات القرآن ألوف آيات من الإعجاز ، لرأوا فيه كل يوم آية تتجدّد مع الزمان والحدثان تُبرهن إعجازه بصدق قوله (ولا

(١) انظر التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن : ص ٣ .
(٢) انظر التفسير ، معالم حياته - منهجه اليوم : ص ٢٢

رطبٍ ولا يابس إلا في كتاب مبين) برهان عيان لا مجرّد تسليم وإيمان . ومثال ذلك أن العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا. والمدقّق في القرآن يجد أكثرها وَرَدَ التصريح أو التلميح به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً ، وما بقيت مستورة تحت غشاءٍ من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنه كلام ربٍّ لا يعلم الغيب سواه ، وذلك أنهم قد كشفوا أن مادة الكون هي الأثير ، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال (واستوى إلى السماء وهي دخانٌ) . وكشفوا أن الكائنات في حركة دائمة دائبة ، والقرآن يقول (وآية لهم الأرض الميتةُ أحييناها) إلى أن يقول (وكلٌّ في فلكٍ يسبحون) . وحققوا أن الأرض مُنفتقةٌ في النظام الشمسي ، والقرآن يقول (إن السموات والأرض كانتا رتْقاً ففتقناهما) . وحققوا أن القمر منشقٌّ من الأرض ، والقرآن يقول (أفلا يرون أنّا نأتي الأرض نَنقصها من أطرافها) ، ويقول (اقتربت الساعة وانشقّ القمر) . وحققوا أن طبقات الأرض سبع ، والقرآن يقول (خَلَقَ سبع سموات طباقاً ومن الأرض مثلهنّ) ... وكشفوا وجود الميكروب وتأثير الجُدريّ وغيره من الأمراض ، والقرآن يقول (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) أي متتابعة مجتمعة (ترميهم بحجارةٍ من سجّيل) أي من طين المستنقعات اليابس . إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية . وبالقياس على ما تقدّم ذكره يقتضي أن كثيراً من آياته سينكشف سرُّها في المستقبل في وقتها المرهون تجديداً لإعجازه ما دام الزمان وما كرّ الجديدان »[1] .

الشيخ محمد عبده والتفسير العلمي

لقد ذكرنا آنفاً أن محمد عبده يرى وفاقاً لنزعته العقلية المتحرّرة في

---

(١) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد : ص ٢٤ – ٢٧ .

التفسير أن إعجاز القرآن يعجز الزمان عن إبطال شيء منه ، وأنه موافق لما تجدّد من العلم الحق والتشريع للعدل أو غير مخالف له . فلا شك أن هـــذه مزية خارقـــة للمعتاد في البشر ، وقد ثبت هذا للقرآن وحده ، فهو كتاب مشتمل على كثير من أمور العالم الكونية والاجتماعية . مرّت العصور وتقلبت أحوال البشر في العلوم والأعمال ولم يظهر خطأ قطعي في شيء منها ، لهذا صحّ أن تجعل سلامته من هذا الخطأ ضرباً من ضروب إعجازه للبشر ، وإن لم يكن هذا مما تحدّى به الرسول ﷺ من عجز من البشر عن مثله ، لأنــه لم يكن ليظهر إلا من بعده ، فأدُّخر ليكون حجةً على أهله . وهو يرى أن القرآن مشتمل على تحقيق كثير من المسائـــل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله ، ثم عُرفت بعد ذلك بمـا انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسُنن الله في الخلق .

وهذه مرتبةٌ فوق ما ذُكر في الوجه السادس من عدم نقض تقدم العلوم لشيء ممـــا فيه . فهذا النوع من المعارف التي جاءت في سياق بيان آيات الله وحكمه كانت مجهولة للعرب أو لجميع البشر في الغالب ، حتى أن المسلمين أنفسهم كانوا يتأولونها ويُخرجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم في كل عصر من ظواهر وتقاليد أو من نظريات العلوم والفنون الباطلة. فإظهار ترقّي العلم لحقيقتها المبيّنة فيه مما يدل على أنها موحىً بها من الله تعالى . وكان محمد عبده يُباهي بمعرفة علم الكون ، وهو لم يلتزم الوقوف عند النص القطعي لا يتعدّاه ، بل نجده يخالف منهجه غير مرةٍ فيخوض في مبهمات القرآن مستعيناً بما عُرف من مستحدثات العلوم على شرحهـــا وتوضيحها على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى (وفُتِحت السماءُ فكانت أبوابا) . ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى (وإذا البحارُ سُجّرت) . ومن مثل ذلك عندما عرض لتفسير سورة الفيل عندما جوّز أن تكون الطير هي ما يُسمّى اليوم

بالميكروبات ، كما جوّز أن تكون الحجارة هي جراثيم بعض الأمراض [1] .
وغير ذلك من المواقف التي تدل دلالة واضحة على سيره في الاتجاه العلمي لتفسير آيات الكتاب المبين . ولا نعدو الحقيقة في شيء إذا قلنا إن الشيخ محمد عبده قد روّج لهذه النزعة العلمية في العصر الحديث ترويجاً يصل إلى أن يكون رائداً فيها . ذلك لأن طريقته في التفسير تقوم على تحكيم العقل في كثير من آي القرآن الكريم ، وعلى التوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية .

محمد جمال الدين القاسمي والتفسير العلمي

كان القاسميُّ صاحب التفسير المسمّى « محاسن التأويل » معجباً بالشيخ محمد عبده. ولذلك لا يجد الباحثُ جُنوح القاسمي إلى النزعة العلمية في تفسيره أمراً غريباً . والذي يتصفّح الجزء الأول من محاسن التأويل ، وهو المقدّمة المشتملة على قواعد التفسير يجد القاسمي قد عقد فصلاً في بيان دقائق المسائل العلمية الفلكية الواردة في القرآن الكريم . ونراه في هذا الفصل ينقل أقوال بعض العلماء على شاكلة قوله : « قال بعض علماء الفلك ما مثاله : إن القرآن الكريم قد أتى في هذا الباب بمسائل علمية دقيقة لم تكن معروفة في زمن النبي ﷺ . وهذه المسائل تُعتبر من معجزات القرآن العلمية الخالدة ، وهاكها ملخّصة : المسألة الأولى : كوكب من الكواكب السيّارة (الله خلقَ سبع سموات ٍ ومن الأرض مثلهنّ) وهما من مادة واحدة (كانتا رتْقاً ففتقناهما). وهي تدور حول الشمس (وترى الجبال تحسبها جامدةً وهي تمرُّ مرَّ السحاب صُنعَ الله الذي أتقنَ كلَّ شيء) ... فهذه كلها آياتٌ بيِّناتٌ ، ومعجزاتٌ باهرات ، دالّةٌ على صدق النبي ﷺ ، وصحة القرآن .

ومن عجيب أمر هذا القرآن أن يذكر أمثال هذه الدقائق العلمية العالية ،

---

(١) انظر تفسير المنار : ١/٢٠٨ – ٢١٢، وانظر تفسير جزء عم : ص ٥، ٢٦، ١٥٨.

التي كانت جميع الأمم تجهلها ، بطريقةٍ لا تقف عثرةً في سبيل إيمان أحدٍ به ، في أي زمن كان ، مهما كانت معلوماته . فالناس قديماً فهموا أمثال هذه الآية بما يُوافق علومهم ، حتى إذا كشف العلم الصحيح عن حقائق الأشياء ، علمنا أنهم كانوا واهمين، وفهمنا معناها الصحيح . فكأن هذه الآيات جُعلت في القرآن معجزاتٍ للمتأخرين ، تظهر لهم كلما تقدّمت علومهم ... ! وأما المعاصرون للنبي ﷺ فمعجزته لهم : إتيانه بأخبار الأولين ، وبالشرائع التي أتى بها ، وبالمغيّبات التي تحققت في زمنه .. وغير ذلك ، مع علمهم بصدقه وحاله، وبعده عن العلم ، والتعلمُ بالمشاهدة والعيان. فآيات القرآن — بالنسبة لهم — بعضها معناه صريح لا يقبل التأويل، وفيها بيان كل شيء مما يحتاجون إليه ، والبعض الآخر يقبل التأويل ، وتتشابه عليهم معانيه لنقص علومهم . وهذا القسم لا يهمهم كثيراً ، فإنه خاصٌ بعلوم لم يكونوا وصلوا إليها ، وهو معجزاتٌ للمتأخرين يُشاهدونها ، وتتجلى لهم كلما تقدموا في العلم الصحيح . قال تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكماتٌ هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات) أي : لها معانٍ كثيرة يُشبه بعضها بعضاً ، وتتشابه عليهم في ذلك الزمن ، فلا يمكنهم الجزم بالصحيح منها (فأمّا الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) بتشكيك الناس في دينهم بسببه (وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله) في زمنهم لنقص علمهم (وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا) ، (والراسخون في العلم يقولون ... الآية) فإذا جُعل قوله تعالى (والراسخون) معطوفاً على لفظ الجلالة كان المعنى : أن تأويله لا يعلمه أحد في جميع الأزمنة إلا الله والراسخون في العلم يعلمونه . وإذا كان لفظ (والراسخون) مُستأنفاً كان المعنى : أن الراسخين في العلم في زمنهم لا يعلمون تأويله — كما قلنا — وإنما يؤمنون به لظهور الدلائل الأخرى لهم على صدق النبي عليه السلام ، ويفوّضون علم هذه الأشياء إلى المستقبل من الزمان ، كما نفوّض الآن نحن مسألة رجم

الشياطين بالشهب للمستقبل ، ونؤمن بالقرآن لثبوت صدقه بالدلائل الأخرى القطعية »[1] .

محمود شكري الآلوسي والتفسير العلمي

محمود شكري الآلوسي هو حفيد محمود الآلوسي صاحب التفسير المسمى « روح المعاني » قد ذكرنا آنفاً أن محموداً الآلوسي كان يستطرد في تفسيره الى الكلام في الأمور الكونية ، ويذكر كلام أهل الهيئة وأهل الحكمة ، ويقرّر ما يرتضيه ويفنّد ما لا يرتضيه . وها هوذا حفيده محمود شكري الآلوسي المتوفى سنة ١٩٢٢ م يؤلف كتاباً تحت عنوان « ما دلّ عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القوية البرهان » . ومن عنوان هذا الكتاب يستطيع الباحث أن يُدرك ان مجهود المؤلف مُنصبٌ على التوفيق بين القرآن والأخبار الصحيحة وبين ما استحدثة علماء الفلك من نظريات وترجيحات وقواعد علمية .

وفي مُقدمة الكتاب يقرر أن الشريعة الغراء لم ترد باستيعاب قواعد العلوم الرياضية ، إنما وردت بما يستوجب سعادة المكلفين في العاجل والآجل ، وبيان ما يتوصلون به الى الفوز بالنعيم المقيم ، وربما أشارت – لهذه الأغراض – الى ما يُستَنبط منه بعض القواعد الرياضية . وذكر المؤلف أنه قد ورد القرآن الكريم في بيان ذلك – بما خاطب به العرب ، مما يعلمونه من علوم تلقوها خلفاً عن سلف.. فصحّحت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه ، وأبطلت ما هو باطل قبيح ، وبينت ما ينفع من ذلك ومضارّ ما يضر منه . فكان من علومها « علم النجوم » وما يختص بها من الاهتداء في البر والبحر واختلاف الأزمان باختلاف سيرها ، وتعرف منازل سير النيّرين

---

(١) محاسن التأويل ، ٣٣٢/١ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨

وما يتعلق بهذا المعنى . وهو معنى مُقرَّر في أثناء القرآن في مواضع كثيرة [1] .

ويصرح بمقصوده وخطته في هذا الكتاب ، فيقول : « وقد أحببت أن أجمع ما ورد في هـذا الباب من الآيات المنتشرة في سور القرآن على ترتيب سورها ، وأخص منهـا المشتملة على الأجرام والأجرام السفلية ، وأذكر في تفسيرها ما ذكره جَهابذة المفسرين ، ملتزماً في ذلك طريق الاختصار وأصحّ الأقوال وأصوبَ الأفكار » [2] .

ويقف عند سورة البقرة أمام قوله تعالى (يسألونك عن الأهلّة ِ قُل هي مواقيت للناس والحج ... الآية) [3] فيقول : « ذكر أهل التفسير أن معاذ ابن جبل وثعلبة بن غُنْم قالا : يا رسول الله ؟ مـا بالُ الهلالِ يبدو ويطلع دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان ، لا يكون على حـال واحدة ؟ فنزلت . والسؤال يحتمل أن يكون عن الغاية والحكمة ، وأن يكون عن السبب والعلة ، ولا نص في الآية والخبر على أحدهما .

أما الملفوظ من الآية فظاهرٌ . وأما المحذوف فيحتمل أن يقدَّر : مـا سبب اختلافها ؟ وأن يقدَّر : ما حكمته؟ وهي وإن كانت في الظاهر سؤالاً عن التعدد إلا أنها في الحقيقة متضمنة للسؤال عن اختلاف التشكُّلات النُّورية ، لأن التعدُّد يتبع اختلافها ، إذ لو كان الهلال ، لا يحصل التعدد كما لا يخفى ... فعلى الأول يكون الجواب بقوله (قـل هي مواقيت للناس والحج) مطابقاً

(١) أنظر كتاب ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان ـ المقدمة ـ: ص ١١ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٨٩ .

مبيّناً للحكمة الظاهرة اللائقة بشأن التبليغ العام ، المذكرة لنعمة الله تعالى ومزيد رأفتـه . وهي أن تكون معالم للناس يوقّتون بها أمورهم الدينية ، ويعلمون أوقات زروعهم ومتاجرهم ، ومعالم للعبادات يُعرف بها أوقاتها كالصيام والإفطار وخصوصاً الحج ، فإن الوقت مُراعىً فيه أداءً وقضاءً .
وعلى الثاني يكون من الأسلوب الحكيم ، ويُسمى : القول بالموجب ، وهو تلقي السائل بغير ما يتطلب ، بتنزيل سؤاله منزلة غيره ، تنبيهاً على أنه الأولى بحاله، وأختاره السّكاكي وجماعة . . وبعض علماء الهيئة اليونانية قال: ليسوا ممن يطلع على دقائق علم الهيئة الموقوفة على الارصاد والأدلة السفليه . وهـذا وهمٌ ، لأن ذلك على فرض تسليمه في حق أولئك المشائين في ركاب النبوة والمرتاضين في رواق الفتوّة ، والفـائزين بإشراق الأنوار، والمطّلعين بأرصاد قلوبهم على دقائق الأسرار ، وإن لم يكن نقصاً من قدرهم ، إلا أنه يدل على أن سبب الاختلاف مـا بُيّن في علم الهيئة من بُعد القمر عن الشمس وقربه إليها . وهو باطلٌ عند أهل الشريعة ، فإنـه مبنيٌ على أمور لم يثبت جزماً شيءٌ منها. غايةُ الأمر أن الفلاسفة الأول تخيلوها موافقةً . فما أبدعه الحكيم المطلق كما يشير إليه كلام الشيخ محي الدين بن عَرَبي ـ رحمه الله ـ في « فتوحاته » ، مما يُنادي على أن ما ذهبوا إليه مجرد تخيل ، لا تأباه الحكمة وليس مطابقاً لمـا في نفس الأمر أن المتأخرين ممن أنتظم في سلك الفلاسفة كهِرْشل الحكيم وأتباعه أصحاب الرصد والزيج الجديد ، تخيلوا خلاف مـا ذهب إليه الأولون في أمر الهيئة وقالوا : بأن الشمس مركز، والأرض وكذا النجوم دائرة حولهـا ، وبنوا حكم الكسوف والخسوف ونحوه على ذلك ، وبرهنوا عليه ، وردوا مخالفيه ، ولم يتخلف شيء من أحكامهم في هذا الباب، بـل تقع بحسب ما يقع ما يقوله الأولون مبنياً على زعمهم . فحيث أتفقت الأحكام مع أختلاف المبنيين وتضاد المنشأين ورد أحد الزعمين بالآخر ، ارتفع الوثوق بكلا المذهبين ، ووجب الرجوع إلى العلم المقتبس من مشكاة الرسالة ، والمنقدح من أنوار شمس السيادة والبسالة ، والاعتماد على مـا قاله الشارع

الأعظم ﷺ ، بعد إمعان النظر فيه ، وحمله على أحسن معانيه !

وإذا أمكن الجمع بين ما يقوله الفلاسفة كيف كانوا مما يقبله العقل وبين ما يقوله سيد الحكماء ونور أهل الأرض والسماء فلا بأس به ، بل هو الأليق الأحرى في دفع الشكوك التي كثيراً ما تعرض لضعفاء المؤمنين . وإذا لم يكن ذلك،فعليك بما دارت عليه أفلاك الشرع،وتنزلت به أملاك الحق» [1].

الشيخ طنطاوي جوهري والتفسير العلمي

ألّف الشيخ طنطاوي جوهري تفسيراً للقرآن الكريم سمّاه « الجواهر في تفسير القرآن الكريم » . وهذا التفسير يقع في خمسة وعشرين جزءاً . ولهذا التفسير ملحق ألحقه به ، يقول: « أما بعد ، فإنّا قد كتبنا في مواضع من كتاب « الجواهر في تفسير القرآن » أنّا سنُتبعه بملحق يوضح بعض ما أغفلناه في ذلك التفسير ... وسنذكر إن شاء الله ما سنراه موسعاً للمعارف في أمم الاسلام ، ونبتدىء بسورة الفاتحة ، وفي أولها البسملة ، وهكذا سورة بعد سورة ... » [2] . وفي مقدمة تفسيره يتحدث عن البواعث التي دفعته إلى تأليف هذا التفسير ، يقول : « أما بعد ، فإني خُلقت مغرماً بالعجائب الكونية ، معجباً بالبدائع الطبيعية ، مشوقاً إلى ما في السماء من جمال ، وما في الأرض من بهاء وكمال ، آيات بيّنات ، وغرائب باهرات ... ثم إني لما تأملتُ الأمة الاسلامية وتعاليمها الدينية ألفيت أكثر العقلاء وبعض جِلّة العلماء عن تلك المعاني معرضين ، وعن التفرّج عليها ساهين لاهين ، فقليل منهم من فكر في خلق العوالم ، وما أودع فيها من الغرائب . فأخذتُ أؤلّف كتباً لذلك شتى ، كنظام العالم والأمم ، وجواهر العلوم ، والتاج المرصّع ، وجمال العالم ، والنظام والاسلام ، ونهضة الأمة وحياتها ، وغير

---

(١) ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان . ص ٢٧ - ٣٠ .

(٢) أنظر ملحق الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، ١/٢

ذلك من الرسائل والكتب . ومزجت فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية ، وجعلت آيات الوحي مطابقة لعجائب الصنع ، وحكم الخلق »[1] .

ويتحدث المؤلف عن زمان شروعه في هذا التفسير وعن غرضه وهدفه من تأليفه ، ويصرح بأن هذا التفسير نفحة ربانية ، وإشارة قدسية ، وبشارة رمزية ، أُمر به بطريق الإلهام على شاكلة قوله : « وكان ابتداء التفسير إذ كنت مدرّساً بمدرسة دار العلوم ، فكنت ألقي بعض آيات على طلبتها ، وبعضها كان يُكتب في مجلة الملاجىء العباسية ؛ وها أنذا اليوم أوالي التفسير مستعيناً باللطيف الخبير ، مؤملاً بما وقرّ في النفس ، أن يشرح الله به قلوباً ، ويهدي به أمماً ، وتنقشع به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين ، فيفهموا العلوم الكونية ... وليكوننّ هذا الكتاب داعياً حثيثاً إلى درس العوالم العلوية والسفلية ، وليقومنّ من هذه الأمة من يفوقون الفرنجة في الزراعة ، والطب ، والمعادن ، والحساب ، والهندسة ، والفلك وغيرها من العلوم والصناعات . كيف لا ، وفي القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية ، فأما علم الفقه فلا تزيد آياته الصريحة عن مائة وخمسين آية . ولقد وضعتُ في هذا التفسير ما يحتاجه المسلم من الأحكام والأخلاق وعجائب الكون ، وأثبتُّ فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق ، مما يشوّق المسلمين والمسلمات إلى الوقوف على حقائق معاني الآيات البيّنات في الحيوان والنبات والأرض والسماوات . ولتعلمُنّ أيها الفطِن أن هذا التفسير نفحة ربانية ، وإشارة قدسية ، وبشارة رمزية ، أمرت به بطريق الإلهام ، وأيقنت أن له شأناً سيعرفه الخلق ، وسيكون من أهم أسباب رقيّ المستضعفين في الأرض »[2] .

وسمّى طنطاوي جوهري تفسيره « الجواهر في تفسير القرآن الكريم »

---

(١) الجواهر في تفسير القرآن الكريم : المقدمة ، ١/٢

(٢) الجواهر في تفسير القرآن الكريم ـ المقدمة ـ : ١/٣

لأنه جعل الجوهرة بدل الباب أو الفصل . والجوهرة يتفرع عنها الماسة الأولى والماسة الثانية وهكذا .

وطريقته في تفسير القرآن أن يبدأ بالتفسير اللفظي للآيات التي يعرض لها، ثم يتلوه بالشروح والإيضاح والكشف ، أي أنه يشرع متوسعاً في الفنون العصرية المتنوعة .

ونرى طنطاوي جوهري ينقل عن التوراة وعن الانجيل كثيراً ، وبخاصة إنجيل « برنابا » الذي يعدّه موافقاً للقرآن ، ويردّ على بعض النصارى والمستشرقين [1] .

ونجده متأثراً بنزعة الشيخ محمد عبده في إصلاح المجتمع ومحاربة البدع والأوهام والتقليد [2] .

وكثيراً ما يضع في تفسيره صور النباتات والحيوانات ومناظر الطبيعة والتجارب العلمية والجداول العلمية الاحصائية بقصد أن يوضح للقارىء ما يقول توضيحاً يجعل الحقيقة أمامه كالأمر المشاهد المحسوس مما جعل بعض علماء المسلمين يخرج تفسيره عن كتب التفسير المعروفة المقبولة عند المسلمين [3] .

وطنطاوي جوهري يرى أن دراسة القرآن في العصور الخالية كانت تكلّفية وقراءة سطحية وعلوماً لفظية ويناشد علماء المسلمين بأن يُربّوا الألباب، ويخاطبوا الوجدان والعقل ، وليضموا إلى تربية الاجسام ترقية العقول، وإن لم يفعلوا ذلك لم تعش الأمة الاسلامية قرناً واحداً ، بل تُفنيها الأمم الأجنبية على شاكلة قوله: « إن دراسة القرآن في العصور الخالية كانت تكلّفية،

---

(١) أنظر المرجع السابق : ١٢٢/٢

(٢) أنظر المرجع السابق ، ٧/١ ، ٢/ ٩٠-٩٧

(٣) أنظر المرجع السابق ٢٤١/١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٨/٢ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٣٤

وقراءة سطحية ، وعلوماً لفظية ، فعكف الناس على الألفاظ ، وكثر الحفاظ وقل المفكرون ، فجمدت القرائح وماتت العلوم ، لاسيا لما تولى أمر هذه الأمة الأعاجم الذين يجهلون العربية في القرون المتأخرة ، فطمست الحقائق ، ونامت البصائر ، وماتت النفوس ، وفرّ العلم الى الغرب ، وخلّى الشرق قاعاً صفصفاً وصعيداً جرزاً . فلنجعل اليوم حداً بين الماضي والمستقبل ، وليفطن العلماء بعدنا الى ما ذكرناه ، وليدرسوا القرآن بنحو الأسلوب الذي بيناه ، وليفتحوا للمعاني بصائرهم ، وليضموا الى تربية الأجسام ترقية العقول ، وإن لم يفعلوا ذلك لم تعش الأمم الإسلامية قرناً واحداً ، بل تفنيها الأمم الأجنبية . أيقظوا العقول أيها العلماء . هأنذا أقول : نحن أمة عربية ، فلندرس القرآن الذي ورثناه درساً يناسب الجيل المقبل ، ولنأخذ بأيدي أبنائنا الى مقام الكمال »[1] .

ونراه يلوم المسلمين لأنهم أهتموا واعتنوا بالفقه واختلاف الفقهاء ، وآيات الأحكام قليلة جداً ، ولم يهتموا بالعلوم ، والآيات الدالة عليها كثيرة جداً في القرآن على شاكلة قوله : « أيها الذكي : تأمل فيما ذكرته لك من علم الفلك. إن عادة الناس غالباً أن يقرءوا في الآيات القرآنية الخاصة بالأحكام ، وهي قليلة جداً ، اختلاف الأئمة رضي الله عنهم في المسائل ، ثم إذا ذكروها يقولون : وتفصيل هذه المسائل في كتب الفقه ، فيحيلون قارىء التفسير على كتب الفقه . ولقد أحسنوا لأن التفسير للإجمال لا لدرس الفروع . ومن العجب ألا تكون العناية موجهة بهمة أشد إلا الى علم الفقه . وهذا هو الخطأ العظيم والداهية القاصمة التي حلت بالامة الإسلامية ، فمن أين جاء هذا الخطب للإسلام ! .

اللهم إن كل العلوم مطلوبة ، فهي جميعها فرض كفاية ، وإن العلوم التي

---

(١) الجواهر في تفسير القرآن الكريم - ٢/٢٠٣ وما بعدها .

يظهر بها آثار جمال الله وحكمه لا غنى للناس عنها بل تركها أضر بأمة الإسلام. فلماذا لا يذكر الإجمال لجميع العلوم في التفسير، ويُحالُ القارىء على كتب تلك العلوم، فيقال في قوله تعالى (إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب) انظر ما هنا وارجع الى التفصيل في علم الفلك الذي هو من فروض الكفاية في علوم الدين ؟! وإنه يجب ان تقوم حكومات الإسلام بتخصيص طائفة لهذا العلم، وإحضار جميع الآلات والمراصد لهم حتى يرجع المجد القديم، وحتى نقوم بواجبنا في هذا العلم، كما نفعل ذلك في سائر العلوم لا في الفقه وحده، فإن القرآن قد شوق الى علوم الفلك والطبيعة تشويقاً كثيراً بآيات كثيرة » [1].

ويسوّغ طنطاوي جوهري لاتجاهه العلمي في تفسير القرآن الكريم في صورة جواب عن اعتراض يقول : ليس الايمان بالله يلزمنا الخوض في كل هذا، يقول طنطاوي جوهري : « سيقول قائل ممن يقرأ هذا القول : إننا لسنا ملزمين بهذا كله، فإذا آمنا بالله وليس الايمان بالله يلزمه هذا كله . لقدنظرنا وآمنا ؟ فجوابه أن نقول : لماذا ألف علماء الاسلام عشرات الالوف من الكتب الاسلامية في علم الفقه، وعلم الفقه ليس له في القرآن إلا آيات قلائل لا تصلُ مائة وخمسين آية .

فلماذا كثر التأليف في علم الفقه وقل جداً في علوم الكائنات التي لا تخلو منها سورة، بل هي تبلغ (٧٥٠) آية صريحة ؟ وهناك آيات أُخرى دلالتها تقرب من الصراحة . فهل يجوز في عقل أو شرع أن يبرع المسلمون في علم آياته قليلة ويجهلون علماً آياته كثيرة جداً ؟ » [2] .

والحق يقال – إن الشيخ طنطاوي جوهري – مع مخالفتنا إياه في منحاه

(١) المرجع السابق – ٢/٢٠٧

(٢) الجواهر في تفسير القرآن الكريم : ٢٥/٥٥ وما بعدها .

ونزعته ، يبدو حسن النية فيما ذهب إليه . فقد وجد أن السبيل التي سلكها تبعث الأمة الإسلامية بعثاً جديداً في ميدان التقدم العلمي . وكثيراً ما نجده يخاطب الأمة الإسلامية وعلماءَها خطاباً يدل على الاشفاق والغيرة والاخلاص. وإننا نجده منزعجاً من حظر تفسيره في المملكة العربية السعودية . وقد بعث برسالة إلى الملك عبد العزيز بن سعود ملك نجد والحجاز يتوجع فيها من ذلك المنع والحظر والمصادرة على شاكلة قوله : « ثم أقول : أيها المراقبون ، بأي كتاب أم بأية سُنّة يدخل تفسيري للقرآن جميع أقطار الاسلام شرقاً وغرباً وأكثرهم في قبضة المستعمرين من غير ديننا ، وتُوصد الأبواب دونه في الحرمين الشريفين وسائر بلاد الحجاز ونجد ، وتصدون عن قراءته عموم المملكة السعودية وحجاج بيت الله الحرام من سائر الأقطار ، مع أنهم يقرءُونه في بلادهم ؟! أليس أهل نجد والحجاز أمسّ بنا رحماً وأقرب نسباً؟ أفليس هذا الصدُّ إذا لم يكن بدليل يكون تقطيعاً للأرحام ؟ »[1] .

والحق يقال : إن المانعين لهذا التفسير لاحظوا جنوح صاحبه ، بل ولوعه الشديد بإخضاع الآيات القرآنية وقهرها لكي تحمل الكثير من مسائل العلوم الكونية . وهذا تعسفٌ ظاهر وميلٌ بالقرآن عن مقصده الأسمى ، ألا وهو هداية البشر لما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة .

وإن دل هذا المنع على شيء فإنما يدلُّ على الورع وصيانة القرآن عن أن ينحرف أحدٌ بتفسيره .

عبد الحميد بن باديس والتفسير العلمي

لقد جُمعت دروس التفسير التي كان يُلقيها على مريديه أُستاذ المجاهدين الجزائريين عبد الحميد بن باديس الجزائري في كتاب بعنوان : « تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير » . وفي الخطبة التي افتتح بها

(١) المرجع السابق : ٢٥/ ٢٤٥

ابن باديس دروسه في التفسير يصرح بأن تفسير الفخر الرازي أحد المراجع التي يرجع إليها من كتب أئمة التفسير . ولهذا لا بد أن يتساقط إلى دروسه في التفسير ألوان من نزعة الفخر الرازي العلمية في تفسير القرآن الكريم . أضف إلى ذلك أنه كان متأثراً بنزعة الشيخ محمد عبده العلمية في تفسير بعض آيات الذكر الحكيم . ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قول الله تعالى : (وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة، لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصّلناه تفصيلا)[1] : « والآية هي العلامة الدالّة. وكان الليل والنهار آيتين بتعاقبهما مقدرين بأوقات متفاوتة بالزيادة والنقص في الطول والقصر ، على نظام محكم وترتيب بديع ، بحسب الفصول الشتوية والصيفية ، وبحسب الأمكنة ومناطق الأرض : المناطق الاستوائية ، والقطبية الشمالية ، والجنوبية ، وما بينهما . حتى يكونا في القطبين ليلة ويوماً في السنة ، ليلة فيها ستة أشهر هي شتاء القطبين ، ويوم فيه ستة أشهر هو صيفهم. . فهذا الترتيب والتقدير والتيسير دليلٌ قاطعٌ على وجود خالق حكيم قدير لطيف خبير . . . .» (فمحونا) : المحو هو الازالة : إزالة الكتابة من اللوح ، وإزالة الآثار من الديار . فمحو (آية الليل) إزالة الضوء منها ، وهذا يقتضي أنه كان فيها ضوء ثم أزيل ؛ فتفيد الآية ان القمر كان مضيئاً ، ثم أُزيل ضوءُه فصار مظلماً . وقد تقرر في علم الهيئة أن القمر جرمٌ يأتيه نوره من الشمس . وقد اتفق علماء الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أن جرْم القمر – كالأرض – كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحمو والحرارة ثم برد ، فكانت إضاءته في أزمان حموه وزالت لما برَد .

لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية : ذلك الكتاب الذي جعله الله حجة لنبيه ﷺ ، وبرهاناً لدينه على البشر مهما ترقوا في

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٢

العلم وتقدموا في العرفان !! فإن ظلام جرم القمر لم يكن معروفاً أيام نزول الآية عند الأمم إلا أفراداً قليلين من علماء الفلك . وإن حمو جرْمه أولاً ، وزواله بالبرودة ثانياً ، ما عُرِفَ إلا في هذا العهد الأخير . والذي تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ أربعة عشر قرناً نبيٌ أميٌ من أمةٍ أمية ، كانت في ذلك العهد أبعد الأمم عن العلم ، فلم يكن ليعلم هذا إلا بوحي من الله الذي خلق الخلائق وعلم حقائقها !!

كفاك بالعلم في الأُمّي معجزةً   في الجاهلية والتأديب في اليُتمِ[1].

وابن باديس يرى أن القرآن يشوق إلى علوم الأكوان والتعمق في أسرار هذه الصور التي يعرضها علينا في بيان بديع جذاب ، على شاكلة قوله في في تفسير قول الله تعالى (ألاّ يسجدوا لله الذي يُخرجُ الخَبْءَ في السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون)[2] : من أساليب الهداية القرآنية إلى العلوم الكونية ، أن يعرض علينا القرآن صوراً من العالم العلوي والسفلي، في بيان بديع جذاب ، يشوقنا إلى التأمل فيها ، والتعمق في أسرارها .وهنا يذكر لنا ما خبأه في السموات والأرض لنشتاق إليه ، وننبعث في البحث عنه ، واستجلاء حقائقه ومنافعه ، بدافع غريزة حُب الاستطلاع ، ومعرفة المجهول . وبمثل هذا أنبعث أسلافنا في خدمة العلم ، واستثمار ما في الكون إلى أقصى ما أستطاعوا ، ومهدوا بذلك السبيل لمن جاء بعدهم . ولن نعز عزهم إلا إذا فهمنا الدين فهمهم وخدمنا العلم خِدْمَتَهُم »[3] .

مصطفى صادق الرافعي والتفسير العلمي

عندما يطالع القارىء كتاب « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية » لمصطفى

---

(١) تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير : ص ٥٨ – ٦١ .
(٢) سورة النمل ، الآية ٢٥ .
(٣) تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ٤٦٠ .

صادق الرافعي يُلاحظ أنه كان من أنصار النزعة العلمية لتفسير القرآن الكريم . وفي هذا الكتاب نجد المؤلف يعقد مبحثاً خاصاً على موضوع « القرآن والعلوم » . وفي هذا المبحث يقرر أن للقرآن وجهاً اجتماعياً من حيث تأثيره في العقل الانساني هو معجزة التاريخ العربي خاصة ، ثم هو بآثاره النامية معجزة أصلية في تاريخ العلم كله على بسيط هذه الارض من لدن ظهر الاسلام الى ما شاءالله ، لاينهب بحقها اليوم أنها لم تكن من قبل إلا سبباً ، فإن في الحق ما يسع الاشياء وأسبابها جميعاً . وليس يرتاب عاقل ممن يتدبرون تاريخ العلم الحديث ويستقصون في أسباب نشأته ويتثبتون عند الخاطر من ذلك إذا أقدموا عليه وعند الرأي إذا قطعوا به — أنه لو لم يكن القرآن الكريم لكان العالم اليوم غير ما هو في كل ما يستطيل به وفي تقدمه وأنبساط ظل العقل فيه وقيامه على أرجائه وفي نموه واستبحار عمرانه ، فاذا كان القرآن أصل النهضة الاسلامية ، وهذه كانت على التحقيق هي الوسيلة في استبقاء علوم الاولين وتهذيبها وتصفيتها وإطلاق العقل فيماشاء أن يرتع منها وأخذه على ذلك بالبحث والنظر والاستدلال والاستنباط وتوفير مادة الروية عليه بما كان سبباً في طلب العلم للعمل ومزوالة هذا لذاك الى صفات أخرى ليس هذا موضع بسطها [1] .

ويذكر الرافعي أن بعض العلماء استخرج من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية وبسطوا كل ذلك بسطاً ليس هو من غرضه فيستقصي فيه ، على أن هذا ومثله إنما يكون فيه إشارة ولمحة ، ولعل متحققاً بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن وأحكم النظر فيه ، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم ولا يلتوي عليه أمر من أمره لاستخرج منه إشارات كثيرة تومىء الى حقائق العلوم وإن لم تبسط من أنبائها وتدل عليها وإن لم تسمها بأسمائها [2] .

---

(١) انظر اعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ص ١١٥/١١٧

(٢) أنظر المرجع السابق - ١٣١ وما بعدها

ويقرّر الرافعي أن القرآن الكريم أشار الى نشأة هذه العلوم والى تمحيصها وغايتها ، وأن من أدلة إعجازه أن يخطىء الناس في بعض تفسيره على أختلاف العصور لضعف وسائلهم العلمية على شاكلة قوله : « وقد أشار القرآن الى نشأة هذه العلوم والى تمحيصها وغايتها على ما وصفناه آنفاً ، وذلك قوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) . ولو جمعت أنواع العلوم الانسانية كلها ما خرجت في معانيها مِن قوله تعالى: (في الآفاق وفي أنفسهم) هذه آفاق، وهذه آفاق أخرى ، فإن لم يكن هذا التعبير مِن الاعجاز الظاهر بداهة فليس يصح في الافهام شيء. ذلك وأن من أدلة إعجاز هذا الكتاب الكريم أن يخطيء الناس في بعض تفسيره على أختلاف العصور لضعف وسائلهم العلمية ولقصر حبالهم أن تعلّق بأطراف السموات أو تحيط بالارض ، ثم تصيب الطبيعة نفسها في كشف معانيه ، فكلما تقدم النظر وجمّت العلوم ونازعت إلى الاكتشاف واستكملت أدوات البحث ظهرت حقائقه الطبيعية ناصعة كأنه غاية لا يزال عقل الانسان يقطع اليها ، وحتى كأن الآلات حينما توجّه لآيات السماء والأرض توجّه لآيات القرآن أيضاً (والله غالب على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون) . ذلك هو الأمر في العلوم الأولى ثم الله ينشيء النشأة الآخرة »[1] .

التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن

كان هذا عنوان بحث ألّفه حنفي أحمد في الطبعة الثانية . وكان عنوان هذا البحث في الطبعة الأولى : « معجزة القرآن في وصف الكائنات » .

وفي كلمة الافتتاح للطبعة الأولى يقول المؤلف: « فقد وضعنا هذا الكتاب بفضل من الله وعون منه تعالى ، إذ كانت الحاجة إليه ماسّة في هذا الزمان

(١) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ١٣٣ وما بعدها .

الذي التبس فيه الحق بالباطل وسمّيناه « معجزة القرآن في وصف الكائنات ».
وموضوع هذا الكتاب كما ينمُّ عنه اسمه ذو أهمية بالغة ، لأنه يبحث في تصوير القرآن للكائنات تصويراً يكشف عن دقيق معانيه ، ويبيّن ما فيه من آيات الإعجاز الدالة على صدق وحيه وسموّ رسالته . لقد جاء الحديث في القرآن عن الكائنات كما جاء غيره من الأحاديث والأنباء مناسباً لجميع الناس على اختلاف درجات عقولهم وأفهامهم، فكان ولا يزال لهم جميعاً من ظاهره معانٍ واضحة سهلة تصوّر لهم صنعة الخالق كما يشاهدونها وتُبين لهم ما فيها من آيات القدرة العظيمة ودلائل العلم الواسع مع التوجيه الحكيم إلى غايات محدودة ، ورحمات مقصودة ، لكي يتعرّفوا منها بالتعقل والتبصر في غير عناء على خالق الخلق جل وعلا ، وعلى كمال صفاته وأفعاله ، إذ الصنعة دليل لا شك فيه على قدرة الصانع وصفاته ، ولكي يؤمنوا بعد التعرف عليه بصدق وعده ووعيده . كان هذا ولا يزال هو الغرض العام المقصود من ورود الحديث عن الكائنات في القرآن . ولكن المتأملين في هذا الحديث من أهل العلم والخبرة بالكائنات يرون في ألفاظه وعباراته فوق معانيها الظاهرة معاني أخرى دقيقة تنطوي على أصول وجوامع من العلم الواسع الدقيق عن الكائنات الذي لم يكن معروفاً للناس من قبل ، ولم يتعرفوا عليه إلا تدريجاً بعد انتشار العلم الحديث بينهم في القرنين الأخيرين . وتنكشف هذه المعاني الدقيقة لهؤلاء المتأملين من أصحاب العقول الراجحة على ضوء علمهم الخاص ، إما من صريح النص حيناً وإما من إشارات ورموز فيه حيناً آخر . لقد كانت دعوة القرآن دعوة علمية قائمة على تحرير العقول من الأوهام ، وإطلاق عقال الفكر وحثّه على النظر في صحف الكون ، لذلك نرى الكثير من آيات القرآن تنتهي بمثل قوله تعالى: (قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون) وبقوله: (لقوم يفقهون) وبقوله : (لقوم يتفكرون)... »[1] .

---

(١) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ، كلمة الافتتاح للطبعة الأولى . ص ١ ، ٢ .

ويرى المؤلف أنه من الغريب، مع ذيوع العلم الحديث وتقدمه العظيم في النصف الأول من القرن الحالي، فإنه لم يُعرف إلى الآن من دقائق معاني حديث القرآن عن الكائنات سوى نَزْر قليل وقَبَس ضئيل، ويرجع السبب في ذلك الى عوامل شتى أهمها في رأيه وراثة العقيدة التي كانت ولا تزال سائدة في الاذهان بأن القرآن رسالة هداية وإرشاد لا شأن لها بأصول العلوم الكونية، وأن حديثه عن الكائنات لا يحتاج في فهمه إلا لمجرد التعقل والخبرة العادية، وأنه بذلك لا يحوي دقائق أو تفاصيل عن طبائع الكائنات تتطلب علماً خاصاً لإبانتها ودركها ... لقد أستبعد أهل العلم والفكر وجود علم مفصل عن الكائنات في القرآن فغاب عنهم بسبب ذلك مفتاح طريق البحث فيه ألا وهو جمع آياته المفرقة وتبويبها على حسب موضوعاتها ثم بحثها بحثاً كاملاً [١] .

ويرى المؤلف أنه من الواجب الاعتراف بالجهود الطيبة التي بذلها بعض أفاضل علماء الأمة المعاصرين في كشف مكنون معاني الآيات الكونية أمثال محمد أحمد الغمراوي أستاذ الكيمياء بكلية الصيدلة سابقاً، والمرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل؛ إذ بحث الأول في كتابه في « سنن الله الكونية » كثيراً من الآيات التي تشير الى الظواهر الجوية بحثاً مُستفيضاً وشائقاً، كما فسر الثاني في كتابه « الإسلام والطب الحديث» بعض الآيات الكونية تفسيراً علمياً أظهر به وجه الإعجاز فيها . وأستاذه الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره الواسع للقرآن الذي أفاض وأسهب فيه وبين كثيراً من العلوم المختلفة التي تشير إليها الآيات الكونية لولا أنه، رحمه الله، قد زاد في هذا البيان حتى جاوز حدود معاني الآيات ولم يحاول الجمع بينها، فخفي بذلك كثير من حقيقة ومقدار العلم المنزّل فيها . وذلك العالم الرياضي الذي كان صدراً أعظم من صدور الدولة العثمانية، وهو المرحوم أحمد مختار باشا الغازي، فقد ألّف كتاباً سماهُ « رياض المختار » تناول فيه موضوع بحث الآيات الكونية في

---

(١) انظر التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ، ص ٢ وما بعدها .

القرآن ، وبحثه على جلالة قدره كان محدوداً وقاصراً على ناحية من نواحي العلم الحديث [1] .

ويذكر المؤلف المسوّغات التي أدّتـه إلى تأليف كتابه وأن الغرض الإصلاحي كان أعظم باعثٍ على وضع هـذا الكتاب ، على شاكلة قوله : « كان طبيعياً للأسباب التي قدمناها ألا يفكر المتخصصون في العلم الحديث من المسلمين في النظر والبحث في القرآن وألا يظهر لهم بحوث فيه ، وكان طبيعياً أيضاً أن تتسرب إلى أذهان المثقفين عامة بالعلم الحديث من المسلمين عقيدة الإفرنج بأن الكتب المنزلة جميعاً لا تحوي علماً دقيقاً بالكائنات ، وأن تتطور هـذه العقيدة بعد ذلك في أذهانهم كما تطورت في أذهان الإفرنج بأن العلم والدين ضِدان لا يجتمعان . وزاد في انصرافهم هذا ما رأوه للأسف من عدم الإهتمام بأمر التثقيف والتهذيب الديني بجانب التثقيف بالعلم الحديث في معاهد التعليم العام والعالي تثقيفاً يربّي العقيدة الصحيحة ويخلق الشخصية القوية ، ومما شاهدوا من مخالفة كثير من القوانين ونُظم الاجتماع في البلدان الإسلامية مخالفة صريحة لتشريعات الدين باسم السير مع عجلة الزمان وعدم التخلف عن ركب المدنية باعتدال أو بغير اعتدال . ولما كانت الدعوة إلى الإصلاح أكبر خدمة تُسدى إلى المجتمع وأعظم واجبٍ على كل قادرٍ عليها ، لذلك وضعتُ هـذا الكتاب وفاءً للعهد والأمانة وإسهاماً مني في الإصلاح المنشود ، ليعرف منه من لا يعرف حقيقة رسالة القرآن ، وأنـه كتاب لا تخلُقُ جِدّتُـهُ على مر الزمان ، وأن رسالتَه رسالةُ هدى تقوم على العقل والعلم الذي ينفع الناس ويدين به علماؤهم ، وأنـه احتوى هذا العلم ليكون له آية في نشر دعوته ، كلما انتشر العلم بين الناس وحُجةٌ قائمة على أهل العلم بصدق دعوته كلما اخترق العلم أستار الطبيعة ، وسار إلى الأمام كاشفاً ومبيناً حقائق الموجودات » [2] .

(١) انظر المرجع السابق ، ص ٣ .
(٢) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ، ص ٣ - ٥ .

وبعد ذلك نراه يعرض طريقة أو منهج البحث في هذا الكتاب ، ويذكر أن طريقته هي الطريقة المتبعة في البحوث العلمية :

وفي كلمة الأفتتاح للطبعة الثانية يقول الأستاذ حنفي أحمد : « والطبعة الثانية لهذا الكتاب هي نفس طبعته الأولى في موضوعها وأهدافها ، وفي نظام البحث وتنسيقه . بَيْد أن رغبةً في أستيفاء بعض بحوثه ، في الاستجابة إلى آراء مخلصة أبديت قصد تبسيط وتيسير متابعة البحث وفهمه على القرّاء ، قد تناولنا الكتاب في هذه الطبعة بالتنقيح والتهذيب والمراجعة الدقيقة ، فخلّصناه قدر الطاقة من الأخطاء المطبعية ، ومن كثير من التعقيد في الشرح والإيضاح ، ومن التكرار الذي يدعو إلى الملل . وأهمُّ ما أضيف سدّاً للنقص قد حصل في الفصل الثاني من الباب الأول الخاص بآيات النيرات والشهب العارضة في جو الأرض ، حيث أضيفت إليه الآيات الخاصة بالحاصب أو الحجارة من سجيل المرسلة من السماء على أهل الكفر والطغيان من قوم لوط وأصحاب الفيل ، وأكثر التبسيط والتيسير في البحث بالحذف والابدال قد أدخل في الفصول الثلاثة الاخيرة من الباب الاول ، وهي الخاصة بنشوء وتعميد السموات وحركة الأجرام فيها ، وكذلك في الفصل الاول من الباب الثاني الخاص بخلق الارض والقمر »[1] .

عبد الرزاق نوفل والتفسير العلمي

ألف عبد الرزاق نوفل كتاب « الله والعلم الحديث » ، وقد عالج فيه ربط بعض الآيات العلمية بالعلوم الحديثة في باب الاعجاز العلمي للقرآن ، ورأى المؤلف أن يتبع كتابه السابق الذكر بهذا الكتاب « الاسلام والعلم الحديث » لفائدة المسلمين وغيرهم ممن يودون أن يعرفوا حقائق هذا الدين . ثم ألف عبد الرزاق نوفل كتاب « القرآن والعلم الحديث » عالج فيه بعض

---

(١) انظر المرجع السابق : ص ٩ .

الآيات الشريفة وربط بينها وبين ما أوضحه التقدم العلمي من حقائق أصبحت ثابتة بحيث لا تقبل الجدل أو الشك .

ثم ألـّف كتاب « بين الدين والعلم » يثبت فيه أنه لا تعارض ولا جفوة بين الدين والعلم إطلاقاً . وفي كتاب « الإسلام والعلم الحديث » يعقد عبدالرزاق نوفل مبحثاً بعنوان « الإسلام دين علم وعمل » ، فيقول : « ليست مصادفة أن تكون أول كلمات القرآن الكريم أمراً بالدعوة إلى القراءة ... وان تدعو أول آياته إلى العـلم ... فإن أول ما نزل من الآيات الشريفة هي : (اقرأ باسم ربّك الذي خلـَق * خلقَ الإنسان من علـَق * اقرأ وربُّك الأكرم * الذي علـّمَ بالقلم * علـّم الانسان ما لم يعـلم) . وهي دعوة صريحة لتعلـُّم القراءة الكتابة.. بل وجـّهت نظر الانسان إلى أدقّ العلوم.. علم الحياة وخلق الانسان . وليست مصادفة أن نقرأ في سورة « المؤمنون » قول الله سبحانه وتعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سُلالة من طِين * ثم جعلناه نُطفة في قرار مكين* ثم خلـَقنا النطفة علـَقة فخلقنا العلقـَة مُضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقـاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . ثم بعد مئات السنين يقرّر العلم الحديث بعـد الاستعانة بالمجاهير وأجهزة التصوير والأشعـّة ، أن الترتيب المنصوص عليه في هذه السورة هو ترتيب خلـْق الجنين ؛ والأكثر من هذا أنه حق لم يمكن الاستعاضة عن ألفاظ القرآن بغيرها ؛ فهي الألفاظ التي تدل على المعنى بغـير لَبْس أو غموض أو زيادة أو نقصان ... » [1] .

وفي كتاب « القرآن والعلم الحديث » ينطلق عبد الرزاق نوفل من فكرة أساسية عند معظم الجانحين إلى النزعة العلمية في تفسير القرآن الكريم ، وهي صلاحية القرآن لكل زمان ومكان لأن فيه إشارات إلى كل تقـدُّم في ميادين

---

(١) الإسلام والعلم الحديث ، ص ٧٥ وما بعدها .

العلم ، على شاكلة قوله : « وفي الآونة الأخيرة ... وقد وصل العلم إلى ما لم يكن أحد يتصوّر أن يصل إليه في هذا الزمن الوجيز ... وفي عهد غزو الفضاء والسفر إلى الكواكب ... نرى أن كل تقدُّم في ميادين العلم ... قد جاء به القرآن أو وجّه النظر إليه ... ومن عجب أن نقرأ أنّ هناك مَن يقولون إن القرآن إنما كان يصلح لعهد مضى ، ولم يعد يصلح للحاضر أو المستقبل »[1] .

ويرى عبد الرزاق نوفل أن القرآن معجزة علمية قد حوى أصول العلم الحديث ، وسبق الى كل مستحدث من العلوم ، وأن هذا الوجه من إعجاز القرآن كافٍ لإقناع رجال الغرب بمعجزةِ القرآن ، وأن إعجاز القرآن العلمي هو السبيلُ الى تبليغ الدعوة الاسلامية لغير العرب .

ويقول إن اليوم الذي ننشر على العالم بلغاته المختلفة ما قد سبق القرآن الى القول به وأثبته التقدم العلمي في مختلف العلوم لهو اليومُ الذي نكون فيه قد أدينا الرسالة ، وأبلغنا الدعوة ، وأظهرنا معجزةَ القرآن لغير العرب[2].

وتحت عنوان « البروتين النباتي والحيواني» يقول عبد الرزاق نوفل في تفسير الآية «٦١» من سورة البقرة (وإذْ قلتمْ يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تُنبت الارض من بَقلها وقِثّائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير...) « وهي تقرّر بذلك أن البقول والعدس والبصل أدنى وأقل خيراً مما كان يأكله قوم موسى وهو المنّ والسلوى ... وهما نوع من الحلوى عسلية وطير يرجّح أن يكون المعروف بالسُّمان .. وبها يعرف مقدار ما في هذه الآية من علم إلا بعد أن تقدمت علوم التغذية والصحة الغذائية ، فلم يصل العلم إلا أخيراً الى أن الأفضلية

(١) القرآن والعلم الحديث – مقدمة ، ص ٦ .

(٢) انظر المرجع السابق ، ص ٢٤ وما بعدها .

ليست في مقدار ما تحويه المواد الغذائية بل في نوع ما تحويه من مكونات التغذية . وقد أصدرت لجنة الأبحاث بإنجلترا تقريراً ضمنته حقائق هامة وصلت اليها وأهمها أن قيمة المواد الزلالية تختلف في نوعها وفي المقدار الذي يمنع المواد الزلالية المكونة للأنسجة من أن تحترق .... وإن البقول يضر الإكثار منها ... حتى أن التقرير نصح بعدم إعطائها للأطفال مطلقاً ، وبالقلة منها للكبار ، ولم يعرف إلا أخيراً أن الموادالبروتينية أو الزلالية ، والتي تعتبر أهم مكونات البقول ولو أنها مصدر طاقة لتوليدالحرارة والنشاط إلا أنها مرهقة لأجهزة الجسم في تحويلها إلى هذه الطاقة . ولهذا ينصح الطب الحديث بالاعتماد على النشويات كمصدر للطاقة ، وأن البروتينات أو المواد الزلالية الموجودة في الحيوان تفضل تلك الموجودة في البقول تفضيلاً كبيراً ... وتعتبر الأنواع التي ذكرها القرآن أكثر المواد احتواءً على المواد البروتينية أو الزلالية ؛ ففي كل مائة جرام من الفاصوليا والبسلة واللوبيا الجافة ٢١ جراماً من هذه المواد الزلالية ، وفي العدس ٢٠ جم وفي البيض ١٠ وفي الخبز ٦ . ومن أعجب ما يلاحظ أن الطير وهو الذي كان يأكله القوم يحتوي نفس النسبة تماماً من المواد الزلالية أي ٢١ جراماً في كل مائة جرام ، ولكنها من نوع آخر غير نوع المواد الزلالية التي في البقول . فالقرآن قد قارن بين الطير والبقول وهما متساويان في نسبة المواد الزلالية ، وقرر حقيقة علمية لم تظهر إلا أخيراً ، وهي أن البروتين الحيواني خير من البروتين النباتي الذي هو أدنى »[١] .

وتحت عنوان « حياة وأحياء في السماء » يقول عبد الرزاق نوفل في كتاب « الله والعلم الحديث » وتحت عنوان « سُكنى الكواكب»: أوضحت أن القرآن الكريم هو أول كتاب تعرض لوجود الاحياء في السماوات ، وهو يقرر ذلك من أربعة عشر قرناً ، مع أن العلم ما زال يجد في البحث في هذه

---

(١) القرآن والعلم الحديث ، ص ٧١ ،

الناحية . وبعد أن صدر الكتابُ بدأت الأخبار تتواتر لتؤيد هذه الحقيقة التي جاء بها القرآن الكريم ، فبعد أن تمَّ رصد المريخ في أواخر عام ١٩٥٦ حيث كان أقرب ما يكون إلى الأرض ، إذ لم يكن يفصله عنها سوى ٥٦ مليون كيلومتر ، وهذا لا يحدث سوى مرة واحدة كل سبعة عشر عاماً ... قرّرت نتائج الرّصد التي حصل عليها كلٌّ من مرصد خاركوف وقسم الفلك التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية أنه ظهرت بُقعٌ بيضاءُ في المنطقة القطبية للنصف الجنوبي للمريخ ، وظلّت عدة أيام واضحة ثم اختفت ... ودلّت هذه البقع على هطول كميات وافرة من الثلج .. الثلج الذي لا بُد أن يتحول إلى ماءٍ .

ويستند الفلكيون في قرارهم بوجود حياة وأحياءٍ في المريخ على أن ظروفه الجوية تقارب ظروف الأرض ... فكلُّ مقومات الحياة التي نعرفها على الأرض ومستلزماتها متوافرة في المريخ بل في الكواكب التي تقع على بُعد مقارب من بُعد الأرض ... أما الكواكب التي تقرب من الشمس أو تبعد عنها فقد قال الفلكيون إنها كواكب ميتة لأن الظروف التي يمكن العيش معها لا تتوافر » [1] .

وإن المعلومات التي قدمها لنا الأستاذ عبد الرزاق نوفل عن وجود ثلج في كوكب المرّيخ وبالتالي وجود حياة وأحياءٍ ترجع إلى سنة ١٩٥٦ م . فماذا يكون موقفه من أقوال بعض العلماء في هذا العام الجاري ١٩٧٢، التي تستبعد وجود حياة وأحياء على هذا الكوكب ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، أليس من الخطورة بمكان إقحام القرآن في ميدان العلم الذي يخضع للملاحظة والتجربة والاستنتاج ؟

وفي كتاب « بين الدين والعلم » يقول عبد الرزاق نوفل إن الصلاة تفيد

---

(١) انظر المرجع السابق ، ص ١٧٤ وما بعدها .

الإنسان صحياً ، فقد أثبت الطبُّ أن الانسان وهو في صلاته ينخفض ضغط دمه ... وأن تكرار الصلاة على أصولها وباستيفاء شروطها يجعل الإنسان في أمـــانٍ من أخطر أمراض العصر ألا وهي الناتجـــة عن الارتفاع المفاجىء للضغط [1] . ومن المعروف عند المسلمين أن العبادات لا تُعلـَّل ، وأن الصلاة أمرٌ تعبُّدي لا يعقـــل معناه . ومن المعلوم أن المسلم حتى لو بلغ الذروة في ممارسة الرياضة البدنية يجب عليه أن يؤدي الصلاة ، وهي فرض عَيْن . ولا تجوز الصلاة بغير وضوء حتى لو خرج المسلم من الحمام من غير أن يتوضأ ، مما يـدلُّ على أن الصلاة ليس مقصوداً بهـــا الرياضة ، وليس المقصود بالوضوء النظافـــة .

ويلوم المؤلف من قام بتفسير القرآن بأكمله تفسيراً علمياً ، ويعُدُّ هذا من أخطر ما يمكن على التفسير ؛ لأنه لا يمكن للفرد مهما كانت طاقته ودرجـة علمه القيام بتفسير آيات القرآن كلها ، فكيف يُـــلمُّ الإنسان منفرداً بكل ما تضمّنه القرآن من علوم وإعجاز ؟ إلماماً يجعله على درجة من العلم تمكنه من القيام بهذا العمل الضخم الجليل الخطير [2] . والمؤلف يقصد من كلامه الشيـخ طنطاوي جوهري الذي فسّر القرآن كله تفسيراً علمياً .

ويحاول المؤلف جاهداً تسويغ نزعته العلمية في تفسير بعض آيات القرآن الكريم ومناقشة بعض المعترضين والمانعين والمنكرين لهذا الاتجـــاه في تفسير القرآن الكريم على شاكلة قوله : « وقد يكون لبعض المعترضين الحق إذا مـا كان ندعو إليه هو التفسير بنظريات علمية ... ولكن لم يتجه أي إنسانٍ مخلص في دعوته إلى النظريات العلمية بل إلى الحقيقة العلمية . والفارق بـين النظرية العلمية والحقيقة العلمية كبير وكبير جداً. إذ أن النظرية العلمية هي ما لم يتم الدليل على صحتها بدرجة تجعلها حقيقة غير قابلة للتطور أو التغير أو

(١) انظر بين الدين والعلم : ص ٦٥ .
(٢) انظر المرجع السابق : ص ١٤٢ وما بعدها .

التعديل ... فإذا فسرنا الآيات الشريفة الواردة في القرآن والتي تشير إلى كروية الأرض قبل أن يصل العلم إلى ذلك بعشرات المئات من السنين أيكون هناك من خوف على هذه الآيات ، ونكون قد عرّضناها لنظريات متغيّرة ؟ ثم هذه الأوجه في الآية الواحدة ... والتي وصل المفسرون إلى ما يقرب من عشرة أوجه فيها ... ما ضرّ لو زادت وجهاً ... علمياً ... مؤكداً ... ثم هل إذا ظهر العلمُ بعد ذلك بحقيقة أخرى تُغاير ما فُسرت به الآية... هل يمكن لقائلٍ أن يقول : إن الخطأ في الآية ؟ أم تُرى سيقول الناس : لقد أخطأ المفسِّرُ ؟ كما أن مما قد يُثير الخصوم الشك به تفسير كل آية في موضع من القرآن تفسيراً يُغاير تفسير آية مماثلة في سورة أخرى لا سيما الآيات العلمية أو التشريعية . إن إعجاز القرآن العلمي ليظهر بجلاءٍ أكثر إذا ما درست آيات الموضوع الواحد وربطت بعضها ببعض وفسِّر بعضُها بعضاً وتمّ التعليق عليها بما أوضحه العلم . وهكذا فإنه لا تعارض بين العلم والدين إطلاقاً . وإذا كان التاريخ يحدّثنا أن كل تقدُّمٍ علمي إنما يُصاحبه دائماً نهضة دينية ، وأن ازدهار الدين وانتشاره إنما يعمُّ ويتسع في عصور العلم ، فيا تُرى ماذا يكون مستقبل الدين في القريب العاجل ؟ »[1] .

الاسلام والطبُّ الحديث

هذا عنوان كتاب ألّفه الطبيب عبد العزيز إسماعيل . وفي هذا الكتاب يميل المؤلف ميلاً شديداً إلى الاتجاه العلمي في تفسير كثير من آيات القرآن الكريم . وهذا الكتاب مجموع مقالات كان قد نشرها المؤلف في مجلة الأزهر تحت عنوان « الإسلام والطبّ الحديث ». والمؤلف يتوخّى من هذه المقالات التي يجمعها هذا الكتاب التوفيق بين معاني بعض الآيات القرآنية الكريمة وبين مقرّرات الطبّ الحديث .

(١) بين الدين والعلم : ص ١٤٥ وما بعدها .

ونرى المؤلف في مقدّمة كتابه يؤكد على ضرورة إظهار إعجاز القرآن من غير جهة فصاحته ، أي من نواحٍ أخرى وبخاصة أن المتأخرين أمثالنا لا يُقدّرون الفصاحة حق قدرها لعدم تبحُّرهم فيها .

ويقرّر المؤلف في المقدّمة أن القرآن ليس بكتاب طبّ أو هندسة أو فَلَك ، ولكنه يُشير أحياناً إلى سُننٍ طبيعية ترجع إلى هذه العلوم ... وإن لم يكن ذلك مُدركاً وقت نُزوله إلا على طريق الإجمال أو التأويل لعدم استبحارهم في العلوم ... فقوله تعالى : (خَلَقَ الإنسان من عَلَق) شبّه الحيوان المنويّ بالعلق ، مع أنه لا يُرى إلا بالميكروسكوب . والعبرة من هذه الآية لم تظهر وقت نزولها ولا بعده بمئات السنين حتى اكتشف الميكروسكوب .

ويقرر المؤلف أن الآية السابقة وكثيراً مثلها لا يفهم شيئاً من معناها الحقيقي إلا من درس العلوم الحديثة [1] .

وفي قوله هذا اتهام للرسول الكريم عليه السلام والصحابة والتابعين رضي الله عنهم بأنهم لم يفهموا شيئاً من المعنى الحقيقي لبعض الآيات القرآنية لجهلهم بهذه العلوم الحديثة . والرسول الأميُّ ﷺ هو شارح القرآن الأول ، والصحابة رضي الله عنهم تلقّوا هذا العلم عنه عليه السلام وزادوا عليه باجتهادهم . ومنهم ابن عباس رضى الله عنه ترجمان القرآن الذي دعا له الرسول الكريم بالتفقه في الدين وتعلّم التأويل .

وهذا التقرير المغلوط الفاسد إنما جاء بسبب إقحام القرآن في ميدان لا يجوز لكلّ من فهم مراد الله تعالى أن يُقحمه فيه البتة . ومن ذلك يبدو واضحاً لكل من عنده رمقٌ من ورع وتقوى وفهم فساد هذا الاتجاه وجُموحه .

---

(١) انظر الإسلام والطب الحديث – المقدمه : ص ١٤ .

وفي آخر مقدمة الكتاب نرى المؤلف يعترف بفضل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي لأنه أول من شجّعه على نشر هذه المقالات ، وكذلك الأستاذ فريد وجدي .

بحوث في تفسير القرآن ، سورة العلق

هذا عنوان كتاب ألّفه الأستاذ م. جمال الدين عيّاد. وفي هذا الكتاب نرى المؤلف ينحو نحو النزعة العلمية في التفسير. وفي تفسير قوله تعالى : (خَلَقَ الإنسان من عَلَق) نجده يناقش المفسرين القدماء والمحدثين في قولهم إن العلق هو الدم الجامد ، وهو تفسير لا يسمح به الطبّ أو علم الأجنّة خاصة على شاكلة قوله : « وتفسير العلقة بالدم الجامد تفسير تسمح به اللغة ولا يسمح به الطبّ أو علم الأجنّة خاصة . فإذا استشرت قاموساً من قواميس اللغة على اختلافها وجدت الدم الغليظ أو الجامد من معاني العلقة . ولكن الحقائق الثابتة في علم الأجنّة لا يمكن أن تفسّر العلقة بالدم الجامد أبداً . فالعلقة كما قرّر القرآن في آيات أخرى هي طورٌ من أطوار الجنين يعقب النطفة أو البويضة الملقحة ويسبق المضغة ، فهي ثاني أطوار الجنين . والثابت أن الطور الذي يعقب تلقيح البُويضة يتّصف أول ما يتّصف بظاهرة الانقسام Cleavage . ولئن كنّا نفتقد المعلومات عن انقسام البويضة الإنسانية فإن انقسام البويضة في الثدييات عامة وفي فصيلة من فصائل القرود قريبة الشبه بالإنسان خاصة ، قد كشف لنا الكثير عما يرجّح حدوثه في الإنسان . فمن دراسة لويس وهارتمان لفصيلة Macacus rhesus وهي فصيلة من القرود كبيرة الشبه بالإنسان – يتبين لنا – كما هو واضح من شكل (١) أن البويضة الملقحة تنقسم إلى خليتين خلال أربع وعشرين ساعة من وقت انطلاق البويضة من المبيض ثم إلى ثلاث فأربع ، ثم خمس فستّ ، فسبع فثمان . ويستمرّ الانقسام كذلك حتى تصبح البويضة الملقحة حول الساعة السادسة والتسعين مركبة من ست عشرة خليّة ، ويطلق عليها في هذه المرحلة من مراحل

النمو اسم التوتة لما بينها ككتلة من الخلايا المتراصة بعضها فوق بعض وبين ثمرة التوت من شبه . وعند هذه المرحلة يكون الجنين قد وصل إلى فراغ الرحم في شكل مجموعة من الخلايا المركزية محاطة تماماً بدائرة من الخلايا سيطلق عليها فيما بعد اسم التروفوبلاست ، ويحيط بهذه الدائرة غشاء يطلق عليه زونابللوسيدا ، وهو الغشاء الذي كان يحيط بالبويضة أصلا .... من هذا العرض الموجز لأطوار الجنين ، يتبيّن لنا أن ما سمّاه القرآن بالمضغة لا بُد أن يقابل المرحلة الثانية من المراحل الثلاث التي ذكرناها آنفاً ، وهي المرحلة التي يتخلّق فيها الجنين أو تتكوّن أجهزته وأعضاؤه ؛ ذلك أن المضغة قد وصفها القرآن بأنها مخلّقة وغير مخلّقة، فهي الطور الأول الذي يتخلّق فيه الجنين ، فتتكون أعضاؤه وأجهزته المختلفة أو لا يتخلّق كالسّقط الذي قد يحدث من شذوذ في نموّ الجنين ؛ كأن يغوص في غير المكان الطبيعي من جدار الرّحم فلا يتخلّق ويموت ، وتنزف الأم نزيفاً شديداً . وهذه الحالات الأخيرة حالات شاذّة ، يبلغ فيها الجنين مرحلة التخلّق ولا يتخلّق ، أو لا يكتمل تخلّقه فيولد ناقصاً غريب الخِلْقه .... وواضح من الوصف الذي قدّمناه للدم السائل والدم الجامد أن الجنين في المرحلة التي سماها القرآن بالعلقة ليس من الدم الجامد أو السائل في شيء . بل إن الجنين حتى الأيام الأخيرة من طور العلقة لم يكن يحتوي على خلايا دموية على الإطلاق . فالراجح أن الخلايا الدموية لا تتكون طلائعها إلا حول اليوم الثامن عشر من حياة الجنين . ومن أجل هذا نرفض ما ذهب إليه المفسرون من أن العلقة دم جامد، ونرفض ترجمة العلقة بالكلمة الإنجليزية Clot التي تقابل الدم الجامد في العربية . وحجّتنا في هذا الرفض تعارض هذا التفسير مع المفهوم الطبيّ لما يقابل العلقة من مراحل نموّ الجنين » (١) .

وهكذا نرى كيف تكونت الجذور الأولى للاتجاه العلمي في تفسير القرآن

---

(١) بحوث في تفسير القرآن ، سورة العلق ، ص ٦٣ - ٧٢ .

الكريم ُمنذُ العصر العباسي الثاني ، وكيف أن هـــذه الجذور كانت بطيئة الامتداد والحركة ، حتى جاء النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندمـــا اصطدمت العقلية الإسلامية المتخلفة علمياً وصناعياً بالعقلية الغربية الصليبية المتفوقة علمياً وصناعياً ، والتفت المفسرون والمفكرون من المسلمين إلى القرآن الكريم، فقالوا إن القرآن يحوي أصول هذه العلوم الحديثة ويشير إليها تصريحاً تارة وتلميحاً تارة أخرى ، ولذلك تثبت صلاحيته لكل زمان ومكان . ولا شك أن هؤلاء في نزعتهم هذه إنما يصدرون عن حرصٍ على الإسلام والمسلمين وعن تكريمٍ للقرآن الكريم وإعلاءٍ لشأنه .

فالاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم امتدت جذوره القديمة في العصر الحديث إلى أقصى الغاية ، وازداد رواجاً عند المفسرين والمفكرين المحدثين إلى درجة أن صار ُجلُّهم مشغوفاً به ، وكأن الهوس أصابهم . ولكن هـــذا الاتجاه لم يلق قبولاً واستحساناً عند بعض الأقدمين فأنكروه إنكاراً واضحاً، كما أنكره ورفضه بعض المتأخرين والمحدثين . ونرى الآن أن نقدّم صورة واضحة عن إنكار القدماء والمحدثين لهذا الاتجاه .

انكار أبي حيان الأندلسي للتفسير العلمي

نجد أبا حيان الأندلسي في تضاعيف تفسيره يحمل على الفخر الرازي لنزعته العلمية في تفسيره ويرفع عقيرتهُ في وجه من ينحو نحو هذا الاتجاه الذي يسميه فضولاً وتخليطاً وتخبيطاً على شاكلة قوله في تفسير قول الله تعالى: (ما نَنْسَخْ من آية أو نُنْسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مِثْلِها ... الآية) [1] : « وقد تكلّم المفسرون هنا في حقيقة النسخ الشرعي وأقسامه وما اتُّفق عليه منه ومـــا اختُلف فيه ، وفي جوازه عقلاً ووقوعه شرعاً وبماذا ُينسخ ، وغير ذلك من أحكام النسخ ودلائل تلك الأحكام وطوّلوا في ذلك . وهذا كله موضوعه علم أصول

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٠٦ .

الفقه فيبحث في ذلك كلّه فيه . وهكذا جرت عادتنا أن كل قاعدةٍ في علمٍ من العلوم يُرجع في تقريرها إلى ذلك العلم، ونأخذها في علم التفسير مُسلّمة من ذلك العلم ، ولا نطوّل بذكر ذلك في علم التفسير ، فنخرج عن طريقة التفسير كما فعله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي المعروف بابن خطيب الرّي ، فإنه جمع في كتابه في التفسير أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك حُكي عن بعض المتطرّفين من العلماء أنه قال فيه كل شيء إلا التفسير . وقد ذكرنا في الخطبة ما يحتاج إليه علم التفسير ، فمن زاد على ذلك فهو فضولٌ في هذا العلم . ونظيرُ ما ذكره الرازي وغيره أن النحويّ مثلاً يكون قد شرع في كتابٍ في النحو ، فشرع يتكلّم في الألف المنقلبة ، فذكر أن الألف في الله أهي منقلبة من ياءٍ أو واو ، ثم استطرد من ذلك إلى الكلام في الله تعالى فيما يجب له ويجوز عليه ويستحيل ، ، ثم استطرد من ذلك إلى إعجاز ما جاء به القرآن وصدّق ما تضمّنه ، ثم استطرد إلى أن من مضمونه البعث والجزاء بالثواب وبالعقاب ، ثم المثابون في الجنّة لا ينقطع نعيمهم ، والمعاقبون في النار لا ينقطع عذابهم ، فبينا هو في علمه يبحث في الألف المنقلبة إذا هو يتكلّم في الجنّة والنار . ومن هذا سبيله في العلم فهو من التخليط والتخبيط في أقصى الدرجة .

وكان أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي قدّس الله تربته يقول ما معناه : متى رأيت الرجل ينتقل من فنٍ إلى فنّ في البحث أو التصنيف فاعلم أن ذلك إما لقصور علمه بذلك الفن أو لتخليط ذهنه وعدم إدراكه ، حيث يظنّ أن المتغايرات متماثلات . وإنما أمعنت الكلام في هذا الفصل لينتفع به من يقف عليه، ولئلا يعتقد أنا لم نطّلع على ما أودعه الناس في كتبهم في التفسير ، بل إنما تركنا ذلك عمداً ، واقتصرنا على ما يليق بعلم التفسير . وأسأل الله التوفيق للصواب »[1] .

---

(١) البحر المحيط : ٣٤١/١ وما بعدها .

انكار الشاطبي للتفسير العلمي

يُعدُّ الفقيه الأصولي المالكي ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الأندلسي المتوفى سنة ٧٩٠ هـ يُعدُّ زعيم المعارضة لفكرة الاتجاه العلمي في تفسير القرآن في العصور السالفة ، فإنا نجده في كتابه « الموافقات في أصول الشريعة » يعقد بحثاً خاصاً لمقاصد الشريعة . ففي النوع الثاني – وهو النوع الذي يعنينا في هذه القضية – بيان قصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام – ويتضمن مسائل :

المسألة الأولى : إن هذه الشريعة المباركة عربية ، لا مدخل فيها للألسن الأعجمية . وهذا – وإن كان مبيَّناً في أُصول الفقه ، وأن القرآن ليس فيه كلمة أعجمية عند جماعة من الأصوليين ، أو فيه ألفاظ أعجمية تكلمت بها العرب ، وجاء القرآن على وفق ذلك ، فوقع فيه المعرَّب الذي ليس من أصل كلامها – فإن هذا البحث على هذا الوجه غير مقصود هنا . وإنما البحث المقصود هنا أن القرآن نَزَل بلسان العرب على الجملة ، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة ... فمن أراد تفهُّمه فمن جهة لسان العرب يُفهم ، ولا سبيل إلى تطلُّب فهمه من غير هذه الجهة [١] .

وفي المسألة الثالثة من مسائل النوع الثاني يُقرِّر الشاطبي أن هذه الشريعة المباركة أُميَّة ، لأن أهلها كذلك ، فهو أجرى على اعتبار المصالح ، ويدلُّ على ذلك أمور :

(أحدها) النصوص المتواترة اللفظ والمعنى كقوله تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم) وقوله (فآمنوا بالله ورسوله النبي الأميّ الذي يُؤمن بالله وكلماته) وفي الحديث (بُعِثْتُ إلى أمةٍ أميَّةٍ) لأنهم لم يكن لهم علمٌ بعلوم الأقدمين ..

(والثاني) أن الشريعة التي بُعث بها النبي الأميُّ ﷺ إلى العرب خصوصاً

---

(١) انظر الموافقات : ٢/٦٤ .

وإلى من سواهم عموماً إما أن تكون على نسبة ما هم عليه من وصف الأمية ، أو لا ، فإن كان كذلك فهو معنى كونها أُميّة أي منسوبة إلى الأميين ، وإن لم تكن كذلك لزم أن تكون على غير ما عهدوا ، فلم تكن تنزل من أنفسهم منزلة ما تعهد ، وذلك خلاف ما وضع عليه الأمر فيها . فلا بُدّ أن تكون على ما يعهدون . والعرب لا تعهدُ إلا ما وصفها الله به من الأميّة . فالشريعة إذاً أُميّةٌ .

(والثالث) أنــه لو لم يكن على ما يعهدون لم يكن عنـدهم معجزاً ، ولكانوا يخرجون عن مقتضى التعجيز ، بقولهم : هذا على غير ما عهدنا ؛ إذْ ليس لنا عهدٌ بمثل هذا الكلام ، من حيث أن كلامنا معروف مفهوم عندنا ، وهذا ليس بمفهوم ولا معروف ، فلم تقم الحجّة عليهم به ... » [1] .

ثم يعقد الشاطبيُّ فصلاً يتحدث فيــه عن علوم العرب الأميين ، يقول : « واعلم أن العرب كان لها اعتناءٌ بعلومٍ ذكرها الناس ، وكان لعقلائهــم اعتناءٌ بمكارم الأخلاق ، واتصافٌ بمحاسن الشِّيَم ؛ فصححت الشريعة منهـا ما هو صحيح ، وزادت عليــه ، وأبطلت ما هو باطل ، وبيّنت منافـع ما ينفع من ذلك ، ومضارّ ما يضرُّ منه ؛ فمن علومها : علم النجوم ومـا يختصُّ بها من الإهتداء في البرّ والبحر ، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها ، وتعرّف منازل سَيْر النيّرين ، وما يتعلق بهذا المعنى . وهو معنىً مقرَّر في أثناء القرآن في مواضع كثيرة ، كقوله تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر) وقوله (وبالنجم هم يَهْتَدونَ) وقوله (والقمر قدّرناهُ منازل حتى عاد كالعُرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لهـا أن تُدرك القمر ولا الليل سابقُ النهار وكلٌّ في فلكٍ يسبحون) ...

ومنها علم الأنواء وأوقات نزول الأمطار وإنشاء السّحاب وهبوب الرياح

---

(١) انظر الموافقات : ٢/٦٩ - ٧١ .

المثيرة لها . فبيّن الشرعُ حقها من باطلها ، فقال تعالى : (هو الذي يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً ويُنشيء السّحاب الثّقال ، ويُسبّحُ الرعدُ بحمده ... الآية) وقال : (أفرأيتمُ الماء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتمُوه من المُزنِ أم نحن المنزلون) ... وقال تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه ... الآية) إلى كثير من هذا .

ومنها علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية . وفي القرآن من ذلك ما هو كثير ، وكذلك في السنّة ، ولكن القرآن احتفل في ذلك . وأكثره من الأخبار بالغيوب التي لم يكن للعرب بها علم ، لكنها من جنس ما كانوا ينتحِلُون . قال تعالى : (ذلك من أنباءِ الغيْب نُوحيه إليك وما كنتَ لديهم إذْ يُلقون أقلامهم أيُّهُم يكفلُ مَريمَ ... الآية) وقال تعالى: (تلك من أنباء الغيب نُوحيها إليك ما كنت تعلمُها أنت ولا قومكَ من قبل هذا ... الآية) ... ومنها ما كان أكثره باطلا أو جميعه ، كعلم العيافة ، والزجر ، والكهانة ، وخطّ الرمل ، والضّرْب بالحصى ، والطيرة ، فأبطلت الشريعة من ذلك الباطل ونهت عنه ؛ كالكهانة ، والزجر ، وخطّ الرّمل ، وأقرّت الفأل لا من جهة تطلّب الغيب ، فإن الكهانة والزّجر كذلك . وأكثر هذه الأمور تخرُّصٌ على علم الغيب من غير دليل ، فجاء النبي ﷺ بجهةٍ من تعرُّف علم الغيب مما هو حقٌ محضٌ – وهو الوحي والإلهام؛ وأبقى للنّاس من ذلك بعد موته عليه السلام جزءٌ من النبوة – وأُنموذج من غيره لبعض الخاصة وهو الإلهام والفراسة .

ومنها علم الطبّ ، فقد كان للعرب منه شيء لا على ما عند الأوائل ، بل مأخوذٌ من تجاريب الأميين ، غير مبنيّ على علوم الطبيعة التي يقرّرها الأقدمون . وعلى ذلك المساق جاء في الشريعة ، لكن وجهٌ جامعٌ شافٍ قليلٌ يُطلّع منه على كثير ، فقال تعالى : (كُلُوا واشربُوا ولا تُسرفوا). وجاء في الحديث التعريفُ ببعض الأدوية لبعض الأدواءِ ، وأبطل من ذلك

ما هو باطلٌ ، كالتداوي بالخمر والرُّقى التي اشتملت على ما لا يجوز شرعاً . ومنها التفنُّن في علم فنون البلاغة والخوض في وجوه الفصاحة والتصرُّف في أساليب الكلام ، وهو أعظم منتحلاتهم ، فجاءهم بما أعجزهم من القرآن الكريم ، قال تعالى : (قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثلهِ ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً) . ومنها ضربُ الأمثال ، وقد قال تعالى : (ولقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثلٍ) إلا ضرباً واحداً ، وهو الشعر ، فإن الله نفاهُ وبرّأ الشريعة منه ، قال تعالى في حكايته عن الكفار (أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعرٍ مجنون ، بل جاء بالحق وصدّق المرسلين) أي لم يأت بشعرٍ فإنه ليس بحقٍ .. فهذا أنموذج يُنبهك على ما نحن بسبيله بالنسبة إلى علوم العرب الأميّة »[1] .

وفي المسألة الرابعة من مسائل النوع الثاني يشير الشاطبي إلى أن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحدّ فأضافوا إليه كل علم يُذكر للمتقدمين أو المتأخّرين : من علوم الطبيعيات ، والتعاليم كالهندسة وغيرها من الرياضيات ، والمنطق ، وعلم الحروف ، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها . وهذا إذا عرضناه على ما تقدّم لم يصحّ . ويذكر الشاطبي — مُحتجاً لرأيه في إنكار هذا الاتجاه — أن السلف الصالح — من الصحابة والتابعين ومن يليهم — كانوا أعرفَ بالقرآن وبعلومه وما أُودع فيه ، ولم يبلغنا أنه تكلّم أحدٌ منهم في شيء من هذا المدّعى ، سوى ما تقدّم ، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف ، وأحكام الآخرة وما يلي ذلك . ولو كان لهم في ذلك خوضٌ ونظرٌ ، لبلغنا منه ما يدلّنا على أصل المسألة . إلا أن ذلك لم يكن ، فدلّ على أنه غير موجودٍ عندهم . وذلك دليلٌ على أن القرآن لم يُقصد فيه تقريرٌ لشيءٍ مما زعموا . نعم تضمن علوماً هي من جنس علوم العرب أو ما ينبني على معهودها مما يتعجب منه أولوا الألباب ، ولا

---

(١) الموافقات : ٢/٧١ – ٧٦ .

تبلغه إدراكات العقول الرّاجحة دون الاهتداء بأعلامه ، والاستنارة بنوره، أمّا أن فيه ليس من ذلك فلا [1] .

ثم شَرَعَ الشاطبيُّ يقدّم لنا الأدلة التي تؤيد دعاوى أصحاب الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم ، يقول : « وربما استدلّوا على دعواهم بقوله تعالى : (ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء) ، وقوله : (ما فرّطنا في الكتاب من شيء) ونحو ذلك ، وبفواتح السُّور — وهي مما لم يُعهد عند العرب — وبما نُقل عن الناس فيها ، وربما حُكي من ذلك عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أشياء » [2] .

ثم يتصدّى لهذه الأدلّة فيُفندها وينقضها على شاكلة قوله: « فأما الآيات: فالمرادُ بها عند المفسرين ما يتعلق بمجال التكليف والتعبُّد، أو المراد بالكتاب في قوله (ما فرّطنا في الكتاب من شيء) : اللوح المحفوظ ، ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية .

وأما فواتح السُّور فقد تكلّم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهداً ، كعددِ الجُمَّل الذي تعرّفوه من أهل الكتاب، حسبما ذكره أصحاب السِّيَر، أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى ، وغير ذلك . وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ، ولم يدّعه أحدٌ ممن تقدّم ، فلا دليل فيها على ما ادّعوا . وما يُنقلُ عن عليّ وغيره في هذا لا يثبت، فليس بجائزٍ أن يضافُ إلى القرآن ما لا يقتضيه ، كما أنه لا يصحُّ أن يُنكر منه ما يقتضيه ، ويجب الاقتصار — في الاستعانة على فهمه — على كلّ ما يُضاف علمه إلى العرب خاصة ، فبهِ يوصلُ إلى علم ما أُودع من الأحكام الشرعية ، فمن طلبه بغير ما هو أداةٌ له ضلّ عن فهمه ، وتقوّلَ على الله ورسوله فيه ،

---

(١) انظر المرجع السابق : ٢/٧٩ وما بعدها .

(٢) الموافقات : ٢/٨٠ .

والله أعلم ، وبه التوفيق »[1] .

وهكذا ترى كيف دعّم الشاطبي فكرته ورأيه في إنكار الاتجاه العلمي في التفسير بطريقة الأصوليين ومنهجهم في بحث المسائل والقضايا .

أما المحدثون من العلماء والمفكرين الإسلاميين فقد أنكر كثير منهم الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم . ونحن الآن نُقدّم أقوالهم في هـذه القضية التي راجت في هذا العصر .

انكار محمد رشيد رضا للتفسير العلمي

على الرغم من وجود اتجاه علمي في تفسير القرآن عند الشيخ محمد عبده فإن محمد رشيد رضا تلميذه ينعي في مقدّمة تفسيره على من اتجهوا في تفسيرهم الاتجاه العلمي ، ومن القدماء يلوم الفخر الرازي ، ومن المحدثين يلوم صاحب الجواهر الشيخ طنطاوي جوهري دون ذكر اسمه ، على شاكلة قوله : « كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كُتب في التفسير يُشغل قارئه عن هـذه المقاصد العالية ، والهداية السامية ؛ فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب وقواعد النحو ، ونكت المعاني ومصطلحات البيان ، ومنها ما يصرفه عنه بجـدل المتكلّمين ، وتخريجات الأصوليين ، واستنباطات الفقهاء المقلّدين ، وتأويلات المتصوّفين ، وتعصّب الفِرق والمذاهب بعضها على بعض . وبعضها يلفتُه عنه بكثرة الروايات ، وما مزجت به من خرافات الإسرائيليات . وقـد زاد الفخر الرازي صارفاً آخر عن القرآن هو ما يُورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في المِلّة على ما كانت عليه في عهده ؛ كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها . وقلّده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة ، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولاً طويلة بمناسبة كلمة مُفردة كالسماء والأرض من علوم الفلك

---

(١) المرجع السابق : ٢/٨٠ - ٨٢ .

والنبات والحيوان ، تصدّ قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن . نعم ، إن أكثر ما ذُكر من وسائل فهم القرآن: فنون العربية لا بُدّ منها ، واصطلاحات الأصول وقواعده الخاصة بالقرآن ضرورية ، كقواعد النحو والمعاني، وكذلك معرفة الكون وسُنن الله تعالى فيه . كل ذلك يُعين على فهم القرآن »[1] .

انكار الشيخ محمود شلتوت للتفسير العلمي

تناول الشيخ محمود شلتوت هذه القضية بالبحث ، كما يقول الأستاذ محمد حسين الذهبي ، في العدد ٤٠٧ ، ٤٠٨ من السنة التاسعة لمجلة الرسالة « إبريل سنة ١٩٤١ » وفيه يردُّ على من يذهب إلى هذا اللون من التفسير بحُجَجٍ قوية واضحة[2] .

ويتناول الشيخ محمود شلتوت هذه القضية بالبحث في مقدمة « تفسير القرآن الكريم – الأجزاء العشرة الأولى » له . وفي هذه المقدّمة يتحدث عن ناحيتين يجب تنزيه التفسير عنهما . وتفسير القرآن على مقتضى النظريات العلمية كان من الناحية الثانية . وإنني من خلال دراستي لهذه المقدمة وتضاعيف التفسير أدرك دقة الشيخ العلمية وبُعد نظره وبراعته في فهم مُراد الله تعالى. فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً . وتحت هذا العنوان : « ناحيتان يجب تنزيه التفسير عنهما » يبدأ قوله في هذه القضية التي نحن بصددها ، يقول : « وإذا كان المسلمون قد تلقّوا كتاب الله بهذه العناية ، واشتغلوا به على هذا النحو الذي أفادت منه العلوم والفنون ، فإن هناك – مع الأسف الشديد – ناحيتين كان من الخير أن يظلّ القرآن بعيداً عنهما ، احتفاظاً بقدسيّته وجلاله ، هاتان الناحيتان هما : ناحية استخدام آيات القرآن لتأييد الفرّق والخلافات المذهبية ، وناحية استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية

---

(١) تفسير المنار المقدمة : ١/٧ . (الطبعة الرابعة) .

(٢) انظر « التفسير والمفسرون » : ٣/ ١٨٤ .

الحديثة منه ، وأُحبُّ أن أُثبت هنا - بين يدي ما سأكتبه من التفسير - رأيي في هاتين الناحيتين واضحاً ، فأقول : تأويل القرآن وفق المذاهب ... وهذه هي الناحية الأولى .

وأما الناحية الثانية : فإن تفسير القرآن على مقتضى النظريات العلمية طائفة أخرى هي طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث ، وتلقنوا أو تلقفوا شيئاً من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها ، أخذوا يستندون الى ثقافتهم الحديثة، ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها . نظروا في القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا في القرآن فتحاً جديداً ؛ ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة،وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية ، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن ، ويرفعون من شأن الاسلام ، ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية . نظروا في القرآن على هذا الأساس ، فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن، وأفضى بهم الى صور من التفكير لا يريدها القرآن،ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله ، فإذا مرت بهم آية فيها ذكر للمطر ، أو وصف للسحاب ، أو حديث عن الرعد او البرق ، تهللوا واستبشروا وقالوا : هذا هو القرآن يتحدث الى العلماء الكونيين ، ويصف لهم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسحاب وكيف ينشأ وكيف تسوقه الرياح .

وإذا رأوا القرآن يذكر الجبال أو يتحدث عن النبات والحيوان وما خلق الله من شيء ، قالوا : هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة وأسرار الطبيعة. وإذا رأوه يتحدث عن الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، قالوا : هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين أن القرآن كتاب علمي دقيق . ومن عجيب ما رأينا من هذا النوع أن يفسر بعض الناظرين في القرآن قوله : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم) بما

ظهر في هذا العصر من الغازات السامة ، والغازات الخانقة التي أنتجها العقل البشري فيما أنتج من وسائل التخريب والتدمير ، يفسرون الآية بهذا ويغفلون عن قوله تعالى (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) ، (أنّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولّوا عنه وقالوا معلم مجنون) .

رُوي أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود وقال له : تركت في المسجد رجلاً يفسر القرآن برأيه ؛ يفسر قوله تعالى (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) بأن الناس يوم القيامة يأتيهم دخان فيأخذ أنفاسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام ، فقال ابن مسعود : « من علم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ؛ إنما كان هذا لأن قريشاً استعصوا على النبي ﷺ ، فدعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظـام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد . وأغرب من هـذا وأعجب ان يفسر بعض هؤلاء المفسرين الحديثين شأناً غيبياً من شؤون الله الخاصة ، لم ينزل بتفصيله وحي ، ولم يُطلع الله على حقيقته أحداً من خلقه ، ببعض الظواهر الحاضرة التي اكتشفها العلم واهتدى اليها بنو الانسان ؛ ويفسر : (الكتاب المبين) و (الامام المبين) الذي تحصى فيه الحسنات والسيئات ويعرض على أصحـابها يوم القيامة ، بالتسجيل الهوائي للأصوات ، ويقول : أظهر العلم ذلك بالمخترعات البشرية ، واستخدمه الانسان فيما يختص بالأصوات : ولا يبعد أن يستخدمه فيما يختص بحفظ الحركات والسكنات والخواطر النفسية ، والله القادر خلق الكون على هذه السنن لغاية أسمى من ذلك ، هي محاسبة الناس يوم القيامة ، وعرض أعمالهم عليهم ، كشريط مسجّل يضم حركات الناس وسكناتهم وخواطرهم وأقوالهم ، وما قدموا من عمل . يقولون هذا ويفسرون به قوله تعالى : (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) وقوله تعالى: (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً) ويهجمون على الغيب بما لم يأذن به الله ، ويجـدون من العلمـاء من يؤيدهم ويشجعهم ويزكيهم ويتمنى ان يكثر الله من أمثالهم !

إن هؤلاء في عصرنا الحديث لمن بقايا قوم سالفين فكروا مثل هـــذا التفكير ولكن على حسب ما كانت توحي به اليهم أحوال زمانهم ، فحاولوا أن يخضعوا القرآن لما كان عندهم من نظريات علمية او فلسفية أو سياسية . ولسنا نستبعد – إذا راجت عند الناس في يوم ما نظرية داروين مثلاً – أن يأتي الينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول : إن نظرية داروين قد قال بها القرآن منذ مئات السنين !

جوانب الخطأ في هذا الاتجاه : هذه النظره للقرآن خاطئة من غير شك ؛ لان الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيـــه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف . وهي خاطئة من غير شك ، لانهـــا تحمـــل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلّفاً يتنافى مع الاعجاز ، ولا يُسيغه الذوق السليم . وهي خاطئـة ؛ لانها تُعرّض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان ، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الاخير ، فقد يصح اليوم في نظر العلم ما يصبح غـــداً من الخرافات . فلو طبقنا القرآن على هـــذه المسائل العلمية المتقلبة ، لعرضناهُ للتقلب معها وتحمل تبعات الخطأ فيها ، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجاً في الدفاع عنـــه . فلندع للقرآن عظمته وجلالته ، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته ، ولنعلم أن ما تضمنه من الاشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنمـــا هو لقصد الحث على التأمـل والبحث والنظر ، ليزداد الناس إيماناً مع إيمـانهم . وحسبنا أن القرآن لم يصادم – ولن يُصادمَ – حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول. قيل: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان، لا يكون على حالة واحدة ؟ فنزل قوله تعالى : (يسألونك عن الأهلة ، قـــل هي مواقيت للناس والحج . وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورهـــا ، ولكنّ البرّ من أتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، وأتقوا الله

لعلكم تفلحون) . وإنك لتجد هـــذا في سؤالهم عن الروح حيث يقول الله عز وجل : (ويسألونك عن الروح ، قُل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتمْ من العلم إلا قليلاً) . أليس في هـذا دلالة واضحة على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون ، وإنما هو كتاب هداية وإصلاحٌ وتشريع ؟ وإني لأرجو أن أوفـّق فيما أعرض له من تفسير آيات القرآن الكريم إلى الخطة المثلى التي يجب أن يستقبل بها المسلمون كتاب الله (ربنا آتنا من لدُنكَ رحمة وهيءْ لنا من أمرنا رشداً » [1] .

انكار الشيخ محمد مصطفى المراغي للتفسير العلمي

في تقريظ الشيخ محمد مصطفى المراغي لكتاب «الاسلام والطب الحديث» للطبيب عبـد العزيز إسماعيل ، ينكر الاتجاه العلمي في التفسير ، على الرغم من أنه أشاد بالكتاب وأثنى على مؤلفه ومَدَحَهُ على شاكلة قوله : « لستُ أريد من هـــذا أن أقول : ان الكتاب الكريم أشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلاً بالأسلوب التعليمي المعروف ، وإنما أريد أن أقول إنـه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الانسان معرفته والعمل به ، ليبلغ درجـــة الكمال جسداً وروحاً ، وترك الباب مفتوحا لأهـــل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ، ليبينوا للناس جزئياتها بقدر مـــا أوتوا منها في الزمان الذي هم عائشون فيـــه » [2] .

ومع إنكار الشيخ محمد مصطفى المراغي للإتجاه العلمي في تفسير القرآن إلا أنـــه يحاول التوفيق – جَرْياً على طريقة أستاذه محمد عبده في التوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية – يحاول التوفيق بين موقف المعارضين لهـــذا الاتجاه وبين موقف المؤيدين والداعين إليه . ولهـــذا لا يجدُ بأساً إن اتفق

(١) تفسير القرآن الكريم – الأجزاء العشرة الأولى – ، المقدمة ، ص ٩ – ١٤ .
(٢) الإسلام والطب الحديث ، ص ٢ .

ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها ، على شاكلة قوله : « يجب ألا نجر الآية الى العلوم كي نفسرها ، ولا العلوم إلى الآية : ولكن إن اتفق ظاهرُ الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها » [١] . ويفهمُ من هـذا أن الشيخ المراغي يُنكر إخضاع الآيات القرآنية للنظريات العلمية وحسب ، أما إخضاعها للحقائق الثابتة والقواعد العلمية المستقرة فلا جَرمَ أنه يُسوغ ذلك ولابأس به ، مما جعل الطبيب عبد العزيز إسماعيل يعترف بفضل الشيخ المراغي ، لأنه أول من شجعه على نشر هذه المقالات في مجلة الأزهر تحت عنوان « الاسلام والطب الحديث » . وهكـذا يتبين للقارىء الفرق بين موقف الشيخ محمود شلتوت من الاتجاه العلمي في تفسير القرآن وبين مـوقف الشيخ محمد مصطفى المراغي . وكلاهما كان شيخ الجامع الأزهر . فموقف الشيخ شلتوت يعتمد على الرفض القاطع الصريح لهـذا الاتجاه ، بينما نجد موقف الشيخ المراغي توفيقياً ليس فيه حسم أو ركون الى موقف ثابت صريح .

انكار محمد عزة دروزة للتفسير العلمي

من يتصفح « التفسير الحديث » لمحمد عزة دروزة يجـده ينكر استخراج النظريات العلمية والفنية والكونيـة من الآيات القرآنية للتدليل على صدق القرآن وإعجازه ، على شاكلة قوله في تفسير قول الله تعالى : (بـلى قادرين على أن نُسَوِّيَ بنانهُ) [٢] : « ولقد قرأنا مقالاً أراد كاتبهُ أن يجعل صلةً بين اختصاص البنان بالذكر وبين ما ظهر حديثاً من علم بصمات الأصابع وما صار له من خطورة في إثبات شخصيات الناس ، وتمشياً مـع الفكرة التي سادت بعض النـاس من استخراج النظريات العلمية والفنية والكونية من الكلمات والآيات القرآنية للتدليل على صدق القرآن وإعجازه ، ومعجزات الله

---

(١) الإسلام والطب الحديث ، ص ٣ .

(٢) سورة القيامة ، الآية ٤ .

المشار إليها فيه . وفي هذا – في اعتقادنا – تحميلٌ لكلمات القرآن وآياته غير ما تتحمل ، وإخراجٌ له من نطاق قدسيته وغايته ، وتعريضٌ له للجدل والنقاش . ولقد نزل القرآن بلسان العرب على قوم يفهمونه ، وأمرَ اللهُ نبيَّه ﷺ بشرحه وتبيانه . والنظريات الحديثة لم تكن معلومة ولا مكشوفة . ولا يصحُّ لمسلم – مهما حسنت نيته – أن يدعي أن النبي ﷺ لم يكن يعرف جميع ما تضمنته آيات القرآن »[1] .

انكار أمين الخولي للتفسير العلمي

في كتاب « التفسير – معالم حياته ، منهجه اليوم » للشيخ أمين الخولي دراسة للإتجاه العلمي في التفسير . ونجد أمين الخولي يعرِّف التفسير العلمي بالتفسير الذي يحكّم الاصطلاحات العلمية في عبارة القرآن ، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها وقد وقع ذلك على رغم ما قرِّر في ميادين علمية إسلامية مختلفة من قواعد فهم عبارة القرآن ، واتسع القول في احتواء القرآن جمل العلوم جميعاً ، فشمل إلى جانب العلوم الدينية اعتقادية وعملية ، وظاهرة وخفية ، سائر علوم الدنيا . . . ويذكر أمين الخولي أن هذه النزعة استمرت ، وأصبحت فيما يبدو وجهاً من تعليل إعجاز القرآن ، أو بيان صلاحية الاسلام للحياة . وإذا كان هذا التفسير قد ظهر في مثل محاولة الفخر الرازي ضمن تفسير القرآن فقد وجدت بعد ذلك كتب مستقلة في استخراج العلوم من القرآن وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم ، وراجت هذه الفكرة في العصر المتأخر ، فأخرجت لنا مثل كتاب « كشف الأسرار النورانية القرآنية . . . . »[2]

ويمضي الأستاذ أمين الخولي فينكر هذا الاتجاه العلمي معتمداً على أقوال

---

(١) التفسير الحديث ، ٢/٧ .

(٢) انظر التفسير ، معالم حياته ، منهجه اليوم : ص ١٩ – ٢١ .

الشاطبي وأدلته ، ومضيفاً إليها أدلة أخرى جديدة من عنده ، ومن عند بعض المحدّثين ، على شاكلة قوله : « إذا كان الاتجاه الى التفسير العلمي قديماً، وكانت العناية به أكثر نوعاً ما في العصر المتأخر ، فإن المخالفة في صحة هذا التفسير قديمة أيضاً ، ولعله اليوم أقل رواجاً عند المثقفين . . . فأما المخالفة القديمة فيه فهي ما يبديـــه الأصولي الاندلسي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ت ٧٩٠ هـ في كتابه « الموافقات » في أثنـاء أبحاثـه عن القرآن إذ تكلم أولاً عن أن هذه الشريعة المباركة أمية . . . وإذا كان هذا هو الرأي القديم العهد في فهم القرآن فهماً يجعله مصدر العلوم المختلفة ، ويأخـــذ كلمه باصطلاحات حادثة بعده بأزمنة غير قصيرة ، فإنك لتضم إلى هذا البيان من النظرات الحديثة ما يؤيده ويعززه ، فمنها :

١ - الناحية اللغوية ، في حياة الالفاظ وتدرّج دلالتها ؛ لو ملكنا منها مالا بُدّ لنا أن نملكه ، في تحديد هذا التدرج ، وتاريخ ظهور المعاني المختلفة للكلمة الواحدة ؛ وعهـد استعمالها فيها لوجدنا من ذلك ما يحول بيننا وبين هذا التوسع العجيب في فهم ألفاظ القرآن، وجعلها تدل على معاني وإطلاقات لم تعرف لها ؛ ولم تستعمل فيها ؛ أو إن كانت تلك الالفاظ قـد استعملت في شيء منها ، فباصطلاح حادث في الملة ؛ بعد نزول القرآن بأجيال . وسترى فيما يلي - من بيان عن التفسير اليوم ؛ وكيف يتناول - ما يكشف عـــن هذا الجانب كشفاً كافياً .

٢ - الناحية الادبية أو البلاغية - إن شئت - والبلاغة - فيما يقال - : مطابقة الكلام لمقتضى الحال . فهل كان القرآن على هذا النحو المتوسع مـن التفسير العلمي ؛ كلاماً يوجه إلى من خوطب به من النـاس في ذلك العهد ؛ مراماً به تلك المعاني المذكورة مع أنها معانٍ من العلم لم تعرفها الدنيا إلا بعد ما جازت آماداً فسيحة؛ وجاهدت جهاداً طويلاً،ارتقى به عقلها وعلمها !!! وهب هذه المعاني العلمية المدعاة كانت هي المعاني المرادة بالقرآن فهل فهمهـا

أهل العربية منه إذ ذاك وأدركوها ؟! وإذ كانوا قـد فهموها فما لنهضتهم العلمية في علوم الحياة المختلفة لم تبدأ بظهور القرآن ، ولم تقم على هذه الآيات الشارحة لمختلف نظريات العلوم المفهمة لدقائقها !! وإن كانت لم تفهم منها ولم يدركها أصحاب اللغة الخلص من عبارتها كما هو الواقع فعلاً ، فكيف تكون معاني القرآن المرادة ؟! وكيف تكون تلك الالفاظ مفهمة لها ، وهل هـذه هي المطابقة لمقتضى الحال ؟! .

٣ — وهناك الناحية الدينية ؛ او الاعتقادية ؛ وهي التي تبين مهمة كتاب الدين ، وهل هو كتاب يتحدث الى عقول الناس وقواهم العالمة عن مشكلات الكون ، وحقائق الوجود العلمية ؟؟ وكيف يساير ذلك حياتهم ، ويكون أصلاً ثابتاً ؛ تختم به الرسالات السماوية ، كما هو الشـأن في القرآن ؛ مع ان هؤلاء المتدينين لايقفون من معرفةهذه الحقائق عند غاية محدودة، ولا ينتهون عنـد مدى ما ؟! فكيف تؤخذ جوامع الطب والفلك والهندسة والكيمياء عن القرآن على نحو ما سمعت آنفاً ، وهي جوامع لا يضبطها اليـوم احد إلا تغير ضبطه لها بعد يسير من الزمن أو كثير ؛ وما ضبطه منها القدمـاء قد تغير عليهم فـيما مضى ، ثم تغير تغيراً عظيماً فيما تلا !! والحق البين ان كتاب الدين لا يعنى بهذا من حياة الناس ولا يتولاه بالبيان ، ولا يكفيهم مؤنته حتى يلتمسوه عنده ، ويعدوه مصدراً فيه .

واما ما اتجهت اليه النوايا الطيبة من جعل الارتباط بين كتـاب الدين والحقـائق العلمية المختلفة ، ناحية من نواحي بيان صدقه أو إعجازه ، او صلاحيته للبقاء ... الـخ فربما كان ضره أكثر من نفعه ؛ على أنه كان لا بد لأصحاب هذه النوايا ومن لف لفهم من انيتجهوا اليه ليدفعوا مناقضة الدين للعلم ، فلعله يكفي في هذا ويفي ألا يكون في كتاب الدين نصصريح يصادم حقيقة علمية يكشف البحث أنها من نواميس الكون ونظم وجوده ؛ وحسب كتاب الدين بهذا القدر صلاحية للحياة ؛ ومسايرة للعلم ، وخلاصاً

من النقد .. على اني حين أتسمح بهذا القدر في سبيل ارضاء رغبات هؤلاء الطيبي النية ، لا أنسى أن أذكرهم بأن التناول الفني لحقائق الكون ومشاهده ، هو التناول الذي يقصد به الدين رياضة وجدانات الناس ، ويوجههم لعامتهم وخاصتهم ، وعلمائهم وأنصاف علمائهم بل لجهلائهم أيضاً – كما هي مهمة الدين والغاية من تلاوة كتابه بينهم جميعاً . وهذا التناول إنما يقوم على المشهود البادي من ناحية روعته في النفس ووقعه على الحواس ، وانفعال الناس به ، لامن ناحية دقائق قوانينه ومنضبط نواميسه في معادلات جبرية او ارقام حسابية ، او بيان جاف لخصائصه وحقائقه ... وبقيام هذا التناول على المشاهد ؛ والمدرك باديء الرأي ، والمؤثر في النفس المثير للانفعال ، لا يجب الوفاء فيه بحماية الحقائق العلمية والخصائص المجربة لهذه العوالم الموصوفة والمناظر التي لا يراد من تناولها إلا إثارة الشعور بجلالها وجمالها ؛ ودلالتها على عظمة القوة المدبرة لها المحققة لنظامها ؛ ولو التزم في شيء من هذا تصحيح المقررات العلمية لأخل هذا الالتزام كثيراً بالأهداف الفنية الوجدانية ، التي يريد الدين تحقيقها ونفع الحياة بها عن طريق التأمل المتدين ، والاعتبار النفسي العاطفي المريح قبل كل شيء آخر . ومن هنا قد يبدو في تعبير القرآن ما يظهر متعارضاً مع شيء من المقررات العلمية وإن أمكن التوفيق بينهما . ولا أحسب أن عليه بأساً بشيء من هذا ولا فيه ضير ... فخير لأصحاب هذه الرغبات الذين يبينون الصدق ؛ والإعجاز ؛ او الصلاحية لكتاب الدين بهذا النحو من التفسير العلمي خير لهم ان يقدروا مثل هذا الاعتبار ، فلا يتكلفون ما يتكلفون من ربط الكتاب بالعلم ؛ على أنهم إن كانوا لا بد فاعلين فحسبهم كما تقدم ، ألا يكون في القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ، دون ان يمكن التوفيق بينه وبينها ....وبين هذا الأصل مما لا يسمح المقام فيه بأكثر مما قيل . وهناك نواح أخرى من النظر محدثة ، تؤيد الرأي القديم الذي بينه الشاطبي في كيفية فهم عبارة القرآن وتجعل من الخير ألا توجه العناية إلى مثل هذا الضرب من التفسير العلمي ، لأنه ليس بذي

جدوى على القرآن نفسه ، والقرآنُ غنيٌّ عن أن يعتز بمثل هذا التكلف الذي يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنساني الاجتماعي في إصلاح الحياة ، ورياضة نفوس الناس جميعاً على أختلاف حظهم من العلوم الطبيعية والرياضية وما إليها»(١).

انكار الدكتور شوقي ضيف للتفسير العلمي

عرض الدكتور شوقي ضيف في مقدمة كتابه « سورة الرحمن وسُوَر قصار عرض ودراسة » لأولئك الذين فسروا القرآن الكريم وأتخذوه ذريعة لإثبات نظريات علمية في الطبيعة والعلوم الكونية والفلكية . وقد استنكر هذا الاتجاه وحذر من خطورته على شاكلة قوله : « . . . وقد تَلَتْ الشيخ الإمام « محمد عبده » تفاسير كثيرة منها ما اهتدى بهديه ومنها ما خاض في مباحث علمية كنت ولا أزالُ أراها تجنح عن الجادة ، إذ القرآن فوق كلّ علم ، ومن الخطأ أن يتخذ ذريعة لإثبات نظريات علمية في الطبيعة والعلوم الكونية والفلكية ، وهو لم ينزل لبيان قواعد العلوم ولا لتفسير ظواهر الكون، وما ذكر فيه من خلق السموات والأرض والأفلاك والكواكب إنما يراد به بيان حكمة الله وأن للوجود خالقاً أعلى يُدبره وينظم قوانينه . ولا ريب في أن القرآن يدعو اتباعه دعوةً عامة إلى العلم والتعلم للعلوم الرياضية والطبيعية والكونية ، ولكن هذا شيء والتحول بالقرآن إلى كتاب تُستنبطُ منه النظريات العلمية شيء آخر لا يتصل برسالته ولا بدعوته . إنه دينٌ لهداية البشر ، يزخرُ بما لا يحصى من قيم روحية واجتماعية وإنسانية ، وحسبُ المفسر أن يُعنى ببيان ما فيه من هذه القيم ومن أصول الدين الحنيف وتعاليمه التي أضاءت المشارق والمغارب أضواءً غامرة »(٢).

ويفهم القارىء أن الدكتور شوقي ضيف يعتبر تفسير محمد عبده المثال

---

(١) التفسير – معالم حياته ، منهجه اليوم ، ص ١٩ – ٢٧ .

(٢) سورة الرحمن وسور قصار – عرض ودراسة – المقدمة ، ص ١٠ .

الصحيح الذي يجب على المسلمين أن يهتدوا بطريقته في التفسير . وكل من يتعمق ما وصلنا إليه عند دراستنا لمدرسة محمد عبده في التفسير يجد أن كلام الدكتور شوقي ضيف غير صحيح . وقول الدكتور شوقي ضيف « ومنها ما خاض في مباحث علمية . . . » مشعرٌ بأن محمد عبده لم يخض في مباحث علمية . ولقد بينا أن محمد عبده كان يميل الى الاتجاه العلمي في بعض تفسيره حتى أنه تصدى للبحث في موضوعات أبهمها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم . ومن أراد أن يتوثق في ذلك فليراجعه في موضعه .

موقفنا من هذه القضية

بعد هذا العرض للاتجاه العلمي في تفسير القرآن قديماً وحديثاً ، وموقف المنكرين والمعارضين لهذا الاتجاه قديماً وحديثاً أيضاً ، يجب عليَّ أن أبيّن موقفي من هذه القضية سواء أكان تأييداً وتسويغاً أم رفضاً وإنكاراً فأقول : إنني أنكر نزعة التفسير العلمي للقرآن الكريم ولا أسوّغ إخضاع الآيات القرآنية للعلوم الكونية والطبيعية البتة ، ولا أوافق الذين يستخرجون النظريات العلمية من الآيات القرآنية ، لأن القرآن الكريم ليس كتاب علم مثل الكيمياء والذرّة والهندسة والفلك والفيزياء وغير ذلك ، وإنما هو كتاب أنزله الله تعالى على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام ليكون هدًى ورحمة للناس . هو كتاب الاسلام الذي يشتمل على العقيدة الإسلامية التي ينبثق عنها نظام ينظّم علاقة الانسان بخالقه « العبادات » وينظّم علاقة الانسان بنفسه « المطعومات والملبوسات » وعلاقته بغيره من بني الانسان « المعاملات » . وحتى يكون موقفي هذا من هذه القضية واضحاً ومعللاً وجدت أن أسجّل هذه النقاط التي أعتبرها أدلّتي في اتخاذ هذا الموقف :

١ – إنّ جعل الارتباط بين القرآن وبين الحقائق العلمية المختلفة ناحية من نواحي بيان صدقه أو إعجازه أو صلاحيته للبقاء هو خلط بين علم التفسير

وعلم إعجاز القرآن . وبهذا الصدد يقول الأستاذ محمود شاكر : « وغاية علم تفسير القرآن ، كما ينبغي أن يعلم ، إنما هي بيان معاني ألفاظه مفردة ، وجمله مجتمعة ، ودلالة هذه الألفاظ والجُمَل على المباني ، سواء في ذلك آيات الخبر والقصص ، وآيات الأدب ، وآيات الأحكام ، وسائر ما اشتملت عليه معاني القرآن . وهو أمر عن « إعجاز القرآن » بمعزل . أما الأمر المرتبط بالشعر الجاهلي ، أو بقضايا الشعر جميعاً ، والمتصل بأساليب الجاهلية وغير الجاهلية ، وأساليب العربية وغير العربية ومقارنتها بأسلوب القرآن ، فهو علم « إعجاز القرآن » ، ثم « علم البلاغة » . ولا مناص لمتكلم في « إعجاز القرآن » من أن يتبيّن حقيقتين عظيمتين قبل النظر في هذه المسألة ، وأن يفصل بينهما فصلاً ظاهراً لا يلتبس ، وأن يميّز أوضح التمييز بين الوجوه المشتركة التي تكون بينهما :

أولاهما : أن « إعجاز القرآن » كما يدلُّ عليه لفظه وتاريخه ، وهو دليل النبي ﷺ على صدق نبوّته ، وعلى أنه رسول من الله يوحى إليه هذا القرآن ، وأن النبي ﷺ كان يعرف « إعجاز القرآن » من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به من قومه العرب ، وأن التحدّي الذي تضمّنته آيات التحدّي ، من نحو قوله تعالى : (أم يقولون افتراه قُل فأتوا بعَشْر سُوَر مثله مفتريات وادْعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) . (سورة هود : ١٣ ، ١٤) .

وقوله : (قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) . (سورة الاسراء : ٨٨)

إنما هو تحدٍ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك . فما هو بتحدٍ بالإخبار بالغيب المكنون ، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهرٍ

من تنزيله ، ولا بعلم ما لا يدركه علم المخاطبين به من العرب ، ولا بشيء من المعاني مما لا يتصل بالنظم والبيان . . . . » [1] .

والآية (قل لئن أجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لا يـأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) تسجل وتثبت عجز العرب المعاصرين للنبي عليه السلام عن معارضة القرآن والاتيان بسورةٍ من مثله . وبما أنهم عجزوا وثبت عجزهم ـ وهم سادةُ البيان وملوك الفصاحة ـ فالعرب اليوم أولى بالعجز . والأعاجم بالضرورة عاجزون .

فإعجاز القرآن قد ثبت وأستقر وصار فكرة مفروغاً منها لا تحتاج إلى إثبات . والقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة ، أمـا صحة النبوة فليست برهاناً على إعجاز القرآن . إذن ، فجعل القرآن بما يحويه من أصول العلوم المختلفة دليلاً على إعجازه وصلاحيته للبقاء لا يستقيم مع ثبوت إعجازه في حياة النبي ﷺ .

ونحن نعلم أن معجزة موسى عليه السلام كانت العصا أمام السحرة الذين جمعهم فرعون ، وكانت معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . والقرآن كان معجزة محمد عليه السلام الباقية ، إذ كان له معجزات غير القرآن لم يتحدّ الناس بها كخروج الماء من بين أصابعه عليه السلام ، وإطعام الجيش الكثير الزاد القليل .

وحتى تتم المعجزة وتكون قاطعة ومفحمة كانت من جنس ما يتفوق بـه الناس الذين يبعث إليهم الرسل عليهم السلام. فأهل مصر انتشر بينهم السحر ووصل إلى درجة عالية في الفن ، ووصل الطب الى درجة متفوقة في العصر الذي كانت فيه معجزة المسيح عليه السلام . والعرب كانوا عبدة البيان

---

(١) أنظر كتاب الظاهرة القرانية ـ تقديم ص ١٦ ـ ١٩

وسادة الفصاحة والبلاغة أكثر ما كانوا يعبدون الأوثان . فتحداهم القرآن بجنس ما يتفوقون به . وكانوا أميين ، وكان الرسول عليه السلام كذلك وهو منهم . والعلوم التي يعرفها العرب ليست بشيء ، وأكثرها يعتمد على الملاحظة البسيطة الساذجة الفطرية . فإذا كان ذلك كذلك فإن جعل القرآن معجزاً لأنه يحوي بين تضاعيفه أصول العلوم المختلفة مصادم لواقع العرب الغير العلمي ، وبالتالي هو مصادرة لاعجاز القرآن ونسف له من الجذور .

٢ – من المعروف بداهة أن النبي ﷺ كان يفهم القرآن جملة وتفصيلا بعد ان تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان بدليل قوله تعالى: (لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه)[١] .

ومن الطبيعي كذلك أن يفهم أصحاب النبي ﷺ القرآن في جملته ، أي بالنسبة لظاهره وأحكامه . وكان الواحد من الصحابة رضي الله عنهم إذا أشكلت عليه آية من كتاب الله رجع إلى رسول الله ﷺ في تفسيرها ، فيبين له ما خفي عليه ، لأن وظيفته البيان ، كما أخبر الله تعالى عنه بذلك في كتابه حيث يقول : (.... وأنزلنا إليك الذكر لِتُبيِّنَ للناس ما نُزّل إليهم ولعلهم يتفكرون)[٢] . وكل من يرجع إلى كتب السنة يجد أنها قد أفردت للتفسير باباً من الأبواب التي اشتملت عليها ، ذكرت فيه كثيراً من التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ . وإذا أمعنا النظر في هذا التفسير المأثور فإنا لا نجد فيه أي أصل من أصول العلوم المختلفة التي يتبجح بها أنصار وأصحاب الاتجاه العلمي في تفسير القرآن . وإذا كان النبي محمد عليه السلام لا ينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى ، فهل يجوز – عقلا أو سمعاً – أن يخفي الله عن

---

(١) سورة القيامة، الآيات ١٦–١٩

(٢) سورة النحل ، الآية ٤٤

نبيّه أصول هذه العلوم المختلفة كالهندسة والطب والفلك والكيمياء وغيرها لو كان القرآن يحتوي عليها ويتضمنها ؟! هذه واحدة . والثانية : أن هناك آيات في القرآن الكريم تُبدأ بقوله تعالى (يسألونك) . ومن مثل ذلك قوله تعالى : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) [1] وقوله تعالى (يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للناس والحج . . . الآية) [2] . ففي الآية الأولى الأكثر على أنه الروح الذي في الحيوان ؛ سألوا النبي عليه السلام عن حقيقته فأخبر أنه من أمر الله ، أي مما استأثر الله بعلمه . وقالوا: بعثت اليهود إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين ، وعن الروح ؛ فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبيّ ، وإن أجاب عن بعضٍ وسكت عن بعضٍ فهو نبيٌّ ، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح ، وهو مُبهمٌ في التوراة ، فندموا على سؤالهم . والآية الثانية نزلت على سؤال قوم من المسلمين النبي ﷺ عن الهلال وما فائدة محاقه وكماله ومخالفته لحال الشمس . قال ابن عباس وقتادة والربيع وغيرهم . وروي أن من سأل هو معاذ بن جبل وثعلبة بن غنْم الأنصاري قالا : يارسول الله ما بالُ الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلىء ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا ، لا يكون على حالة واحدة فنزلت . فكان الجواب : قل هي أي الأهلة مواقيت للناس . وهذه الحكمة في زيادة القمر ونقصانه ، إذ هي كونها مواقيت في الآجال والمعاملات والصوم والفطر ومدة الحمل والرضاع والنذور المعلقة بالأوقات وفضائل الصوم في الأيام التي لا تُعرف إلا بالأهلة . ويعرف بالأهلة أشهر الحج ومواقيته ، لأنه لا يجوز نقل الحج عن تلك الأشهر التي عينها الله تعالى لفرض الحج لأشهر أُخَر .

فأنت ترى أن الله سبحانه أبهم أمر الروح على رسوله محمد عليه السلام

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٨٩

وعلى الخلق جميعاً ، لأن ذلك من أمر الله ، وهو مما استأثر الله بعلمه ، لأن فيه سر الخلق ، فلا يجوز لأحد أن يعرفه . كما أن الله سبحانه لم يبين لرسوله الكريم الحقيقة العلمية لزيادة الهلال ونقصانه ومحاقه وما يعتوره من تغييرات ، وإنما كان جوابه – سبحانه وتعالى – منصباً على المنافع العملية التي تحصل للناس من جراء هذه التغييرات التي تتعاور الهلال . ولو كان القرآن كتاب علم لكان النبي محمد عليه السلام هو أولى الأنبياء عليهم السلام وأولى الناس بتلقي الحقائق العلمية في هذه الآية وغيرها عن ربه سبحانه وتعالى بطريق الوحي .

٣ – القرآن الكريم ، كما يبدو لكل من يمعن النظر فيه ، كتاب الاسلام الذي بيّنت فيه العقيدة الاسلامية . وهذه العقيدة الاسلامية هي فكرة كلية شاملة عن الكون والانسان والحياة ينبثق عنها نظام من جنسها . وإن الله سبحانه وتعالى خلق في الانسان استعداداً فطرياً للايمان ، فيؤمن إيماناً فطرياً بالله الواجب الوجود . ولكن هذا الاستعداد الفطري لو ترك وحده في الميدان فقد ينحرف بالانسان عن الطريق الصحيح للايمان . ولذلك كانت حكمة الله في ربط هذا الايمان الفطري بالايمان العقلي . وكيف يكون هذا الايمان العقلي ؟ لا جدال في أن من يبحث بحثاً بسيطاً ومتواضعاً في الانسان والكون والحياة التي هي مكونات الوجود وحسب ، يتبين له ان الانسان محدود ؛ محدود في طوله وعرضه وتحصيله العلمي ومقدار رؤيته وعمره ونومه وأكله وشربه الى غير ذلك .

والكون عبارة عن أجرام ، وكل جرم محدود ، ومجموع المحدود محدود بالضرورة . والحياة محدودة لأن الانسان لا يدركها إلا بمفرده ، وإذا مات لم يعد يدرك الحياة . ومهما عاش الانسان فنهايته الموت. وإذا كانت مكونات الوجود ؛ الانسان والكون والحياة محدودة ، فهي تحمل الدليل على وجود الغير المحدود ، لأن الأشياء بأضدادها تتميز. وإذا كانت هذه المحدودات ناقصة

وعاجزة ومحتاجة الى غيرها ، فان هذا الغير المحدود أزلي وغير ناقص وغير عاجز وغير محتاج الى غيره . وهذا الأزلي الغير المحدود هو الله تعالى الواجب الوجود . فالخطوة الأولى إذن هي الايمان بالله الواجب الوجود. ويترتب على الايمان بالله الواجب الوجود فكرة مقتضاها أن هذا الخالق سبحانه لا يمكن ان يترك الناس هملا بدون تنظيم ، ولذلك كان بعث الرسل عليهم السلام وكانت الرسالات السماوية . ومحمد ﷺ أخبر الناس وعرفهم أنه رسول الله الى الناس كافة .

وقد تحدى العرب بأن يأتوا بعشر سور مفتريات مثل القرآن، ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، فلم يستطيعوا وثبت عجزهم عن معارضة القرآن الذي نزل بلسانهم وعلى منوالهم . وهذا القرآن إما أن يكون من عند الله سبحانه ، أو من عند العرب ، أو من عند محمد عليه الصلاة والسلام . ولا يمكن أن يكون من عند الأعاجم لان العرب عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فالاعاجم بالضرورة أعجز . فالقرآن ليس من عند العرب . أما محمد عليه السلام فكان يتلو الآية القرآنية ويقول الحديث في نفس الوقت. ومعروف أنه عليه السلام كان يصوغ الحديث . فلو كان القرآن من عند محمد عليه السلام لكان أسلوب الحديث هو نفس أسلوب القرآن . والمعروف أن القرآن يختلف عن أسلوب الحديث . ويدرك ذلك كل من عنده رمق من فهم في العربية وأساليب التعبير العربي .

إذن فالقرآن لا يمكن أن يكون من عند محمد عليه السلام، كما أنه لا يمكن أن يكون من العرب .

فالقرآن إذن من عند الله سبحانه وتعالى أنزله على رسوله محمد ﷺ بطريق الوحي .

هذه هي الطريقة الصحيحة لإثبات صدق القرآن وصلاحيته للحياة ، وليست طريقة إثبات نظريات علمية في القرآن الكريم .

فالقرآن فكرٌ من عند الله سبحانه . والعلم يعتمد على الملاحظة والتجربة والاستنتاج . والعرب وسائر البشر قبل البعثة النبويّة لم يكونوا بحاجة إلى العلوم لتنقذهم من الظلم والاستعباد بقدر ما كانوا بحاجة إلى فكرٍ يجمعهم ويوحدهم ونظام ينظم علاقاتهم . فالرقيُّ الفكري شيء والتفوق العلمي شيء آخر . وقد يكون تفوق علمي ولا يكون رقيٌّ فكريٌّ ألبتة . والدليل على ذلك أن الولايات المتحدة الأميركية زعيمة المعسكر الرأسمالي والاتحاد السوفيتي زعيمة المعسكر الشيوعي قد وصلتا إلى قمة التفوق العلمي في عصرنا الحاضر . ومع ذلك فإن العالم يئنُّ تحت ظلم هذين النظامين الفاسدين . ففي الاتحاد السوفيتي تُداس كرامة الإنسان ، ويُقتل رمياً بالرصاص إذا سرق . وفي الولايات المتحدة الأمريكية عشرون مليوناً من الزنوج يُعاملون معاملة البهائم . والفكر الإسلامي هو الفكر المستنير الراقي الذي يرتفع بالإنسان إلى المستوى الذي أراده الله له. وهذا الفكر هو الذي هيّأ أمتنا ووضعها عند أول الطريق إلى الإبداع العلمي المادي .

٤ – إن القرآن الكريم يُشير كثيراً إلى أشياء في الكون مثل الشمس والقمر والأهلّة والنجوم والرياح والأمطار والبحر وما فيه من أسماك وحُليّ والليل والنهار والنّحل والشّهد والأنعام وتدرُّج خلق الجنين والأشجار والثمار . وحثّ القرآنُ الإنسان على أن يتدبَّر خلق السموات والأرض في أكثر من آية ، وحرّضه كذلك على التفكُّر في نفسه هو ، كل ذلك لتهيئة الإنسان إلى الإيمان عن طريق العقل بالخالق الواجب الوجود ، وليربط الإيمان بالله عن طريق الفطرة بالإيمان بالله عن طريق العقل . ولكن الله سبحانه وتعالى لم يطلق للعقل البشري العنان في بحث كل ما ورد في القرآن الكريم . لأن عقل الإنسان قاصر كما أسلفنا . وقد يضيع في متاهات إذا بحث بعض الموضوعات . وغير قليل من الأحكام الشرعية لا تخضع للعقل ، ولا يمكن أن يدرك كُنْهها . ولا يعني ذلك أن الله سُبحانه قد ألغى عقل الإنسان وصادره . فللعقل ميدانه الذي يُبدع فيه مثل الاجتهاد .

ولا جدال في أن جعل القرآن معجزاً لأن آياته تشير إلى أُصول العلوم له خطرٌ شديدٌ على إعجاز القرآن، وإن شئت فقل إنه إتيانٌ عليه من قواعده. فالعرب أُميون. والقرآن الكريم تحدّى العرب بأن يأتوا بسورةٍ من مثله فلم يستطيعوا وقد سجّل القرآن عجزهم.

وإذا قلنا إن بعض الآيات القرآنية تحوي أُصول العلوم الحديثة، فمعنى ذلك أن القرآن الكريم تحدى أُناساً عاجزين ليس لهم حظ في العلوم بالمعنى الدقيق. ومن ثم فالتحدّي باطلٌ من أساسه. وبالتالي فإن صحة نبوّة محمد عليه السلام باطلة. وهذه النتيجة المغايرة لواقع العرب وواقع مراد الله تعالى في القرآن إنمـــا جاءت بسبب إقحام القرآن في ميدانٍ لا يمتُّ إليه بصلةٍ. وهذا لا يأخذ به إلا كل جاهلٍ مكابرٍ بالمحسوس.

وقد يكون التقدم العلمي في أحوال كثيرة عاملاً مساعداً على الوصول إلى الايمان بالخالق الواجب الوجود، وقد يكون خلاف ذلك. ولكن هـــذا شيء، وإخضاع الآيات القرآنية للعلوم المختلفة شيءٌ آخر وبخاصة للنظريات المتغيّرة.

فبُعد الأرض عن الشمس ثلاثة وتسعون مليون ميـــل تقريباً. وهناك كوكب مثل عطارد قريب من الشمس، وهناك كوكب مثل بلوتو بعيد جداً عن الشمس. ومن المعروف أنه لا توجـــد حياة على هذين الكوكبين. فمن الذي جعل بُعد الأرض عن الشمس هذا البُعد الذي أوجد الحياة على كوكب الأرض؟ فلو كانت هذه المسافة بإرادة الشمس أو الأرض لكانت الشمس أو الأرض ذات إرادة. وبما أن هـذه المسافة ثابتة لا تتغير، فليس أمامنا إلا أن نقول إن الشمس والأرض وسائر الأجـرام تخضع لناموس ثابت مفروض عليها من خارجها، وهو ما نسميه إرادة الله وإبداعه وتنظيمه لهذا الكون.

وقد أثبت العلم الحديث أن قُطر المجرّة الأرضية مائة ألف سنة ضوئية. وهذه المجرّة هي واحدة من آلاف المجرّات في هذا الكون الرحيب. ومعنى

ذلك أن كوكب الأرض بالنسبة للكون مثل حبة رمــل بالنسبة لصحراء شاسعة مترامية الأطراف .

ولا يمكن أن يكون هــذا الكون الواسع إلا خاضعاً لمشيئة خالق حكيم قدير أزلي هو الله سبحانه وتعالى .

وحسبُنا أن القرآن لم يصادم - ولن يُصادم - حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول. وحسبنا أن القرآن هو الذي فتح النوافذ لعقول المؤمنين وحبّب إليهم التدبُّر والتفكّر والتأمُّل والبحث والنظر والدقّة العلمية .

وحسبُنا أن الذين كان كتابهم القرآن عاشوا مــع العلم في وئام ومودّة بينما تحوّلت كتب أهل الملــل الأخرى إلى حجر عثرة وعقبة كؤُد أمــام العلم وأهله في العصور الوسطى مما جعل أحــد المفكرين الضّالين أن يقول أخيراً: الدين أفيون الشعوب. وفي هذه العبارة قياس شمولي فاسد إذا جازت في ملة من الملل فإنها لا تنسحب أبداً على القرآن كتاب الاسلام .

مصادر البحث ومراجعه

١ – الاتجاهات الحديثة في الإسلام ، تأليف هـ. أ. ر. جيب Gibb ، ترجمة هاشم الحسيني . بيروت دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٦ م .

٢ – الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، تأليف الدكتور محمد محمد حسين . القاهرة ، المطبعة النموذجية ، ١٣٨٢ هـ . الطبعة الثانية .

٣ – الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٧٠ هـ. .

٤ – إحياء علوم الدين ، تصنيف الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزّالي . مؤسسة الحلبي ، القاهرة . ١٩٦٨ م ، ١٣٨٧ هـ. .

٥ – أزمة الفكر السياسي الإسلامي في العصر الحديث « مظاهرها – أسبابها – علاجها » ، للدكتور عبد الحميد متولي ، الإسكندرية ، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠ م .

٦ – أسرار الماسونية أو السرّ المصون في شيعة الفرمسون ، للأب لويس شيخو . دار منشورات البصري ، ١٩٦٥ م ، ١٣٨٥ هـ..

٧ – أسرار الماسونية ، تأليف الجنرال التركي جواد رفعت آتلخان . ترجمه عن التركية وعلّق عليه نور الدين رضا الواعظ المحامي وسليمان محمد

أمين القابلي كاتب عَدل كركوك . كركوك ، ٣ رجب ١٣٧٦ هـ .

٨ – الإسلام والحضارة الغربية ، للدكتور محمد محمد حسين . بيروت ، دار الإرشاد ، ١٩٦٩ م .

٩ – الإسلام والطبُّ الحديث ، لعبد العزيز إسماعيل . القاهرة ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، ١٩٥٩ م ، الطبعة الثانية .

١٠ – الإسلام والعقل ، للدكتور عبد الحليم محمود . القاهرة ، دار الكتب الحديثة .

١١ – الإسلام والعلم الحديث ، تأليف عبد الرزاق نوفل . دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى ، رمضان ١٣٧٧ هـ ، إبريل ١٩٥٨ م .

١٢ – الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنيّة ، تأليف الشيخ محمد عبده . مطبعة الموسوعات بمصر .

١٣ – اشتراكية الإسلام ، بقلم الدكتور مصطفى السباعي . دمشق ١٣٧٩ هـ ، الطبعة الثانية .

١٤ – أُصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب الله . دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٩ هـ ، ١٩٥٩ م .

١٥ – إعجاز القرآن والبلاغة النبوّية ، لمصطفى صادق الرافعي. المكتبة الأهلية بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٢٦ م ، ١٣٤٥ هـ .

١٦ – الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ، للأستاذ عبد الله التلّ . بيروت ، دار الإرشاد ، الطبعة الأولى ، ١٩٧١ م ١٣٩١ هـ .

١٧ – أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، لقاضي القضاة ناصر الدين عبد الله ابن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشافعي . استانبول ، المطبعة العثمانية ، ١٣٠٥ هـ .

١٨ ـ البحر المحيط ، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الأندلسي . مطبعه السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٨ هـ .

١٩ ـ بُحوث في تفسير القرآن ، سورة العَلَق ، تأليف م. جمال الدين عيّاد . القاهرة ، دار الحمامي للطباعه ، ١٩٦١ م ، ١٣٨٠ هـ .

٢٠ ـ البُرهان في علوم القرآن ، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٧ هـ ، ١٩٥٧ م .

٢١ ـ بَيْن الدين والعلم ، لعبد الرزاق نوفل . القاهرة ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى .

٢٢ ـ تاريخ الأُستاذ الإمام ، الشيخ محمد عبده ، تأليف محمد رشيد رضا . مطبعة المنار بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٠ هـ ، ١٩٣١ م .

٢٣ ـ تاريخ التفسير ، للشيخ قاسم القيسي . مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٦ م .

٢٤ ـ تاريخ الدعوة إلى العاميّة وآثارها في مصر ، للدكتورة نفُوسة زكريّا سعيد. دار نشر الثقافة بالإسكندرية ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٣هـ ، ١٩٦٤م .

٢٥ ـ التّبشير والاستعمار في البلاد العربيـة ، تأليف الدكتور مصطفى الخالديّ والدكتور عمر فرُّوخ . المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، صيدا ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٧ م .

٢٦ ـ تجديد الفكر العربيّ للدكتور زكي نجيب محمود . دار الشُروق ، بيروت ١٩٧١ م .

٢٧ ـ تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، للإمام العلاّمة عبد الحميد بن باديس . دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩١ هـ ، ١٩٧١ م .

٢٨ – تفسير جزء عمّ مع مقدّمة التفسير ، تأليف محمد المبارك عبد الله شيخ علماء السودان . مطبعة محمد علي صبيح ، القاهرة .

٢٩ – التفسير الحديث ، لمحمد عزّة دَرْوَزَة. دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ ، ١٩٦٢ م .

٣٠ – التفسير العلمي للآيات الكونيّة في القرآن ، تأليف حَنَفي أحمد . دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٠ م .

٣١ – تفسير الفاتحة وست سُوَرٍ مِنْ خواتيم القرآن ، بقلم السيد محمد رشيد رضا إلا تفسير سورة العصر المطوّل فهو للأستاذ الإمام . مطبعة المنار ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٣ هـ .

٣٢ – تفسير القاسمي المسمّى محاسن التأويل ، تأليف علاّمة الشام محمد جمال الدين القاسمي . دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٧ م .

٣٣ – تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار ، تأليف محمد رشيد رضا . دار المنار بمصر ، الطبعة الرابعة ، ١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م .

٣٤ – التفسير القرآني للقرآن ، للأستاذ عبد الكريم الخطيب . دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

٣٥ – تفسير القرآن الكريم ، جزء عمّ ، للأستاذ الإمام محمد عبده . الجمعية الخيرية الإسلامية ، مطبعة مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٤١ هـ .

٣٦ – تفسير القرآن الكريم ، الأجزاءُ العشرة الأولى ، للإمام الأكبر محمود شلتوت . دار القلم ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٦ م .

٣٧ – التفسير ، معالم حياته – منهجه اليوم ، للأستاذ أمين الخولي . مصر ، ١٩٤٤ م .

٣٨ – التفسير والمفسّرون ، تـأليف الأستاذ محمد حسين الذهبي . دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ١٩٦٢ م .

٣٩ – تهافت الفكر المادي والتاريخي بين النظر والتطبيق ، للدكتور محمد البهيّ . دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠ م .

٤٠ – جذور البلاء ، تأليف الأستاذ عبدالله التلّ . دار الإرشاد ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٠ هـ ، ١٩٧١ م .

٤١ – الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، تأليف الشيخ طنطاوي جوهري ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٠ هـ .

٤٢ – جواهر القرآن ، للإمـــام أبي حامد بن محمد الغزّالي . مكتبة الجندي ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م .

٤٣ – حصوننا مُهدّدة مِنْ داخلها ، للدكتور محمد محمد حسين . دار الإرشاد ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م .

٤٤ – حكم الإسلام في الاشتراكية ، للأستاذ عبد العزيز البدريّ . منشورات المكتبة العلمية ، المدينة المنوّرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٥ م .

٤٥ – الدولة الإسلامية ، للأستاذ تقيّ الدين النّبهاني . القدس .

٤٦ – الدولة العثمانيـة والشّرق العربي ، للدكتور محمد أنيس . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .

٤٧ – الديموقراطية في الإسلام ، للأستـــاذ عباس محمود العقاد . دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ م .

٤٨ – رائد الفكر المصري ، الإمـام محمد عبده ، تأليف الدكتور عثمان أمين . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥ م .

٤٩ – رُوح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي . إدارة الطباعة المنيرية بِمصر .

٥٠ – زعماءُ الاصلاح في العصر الحديث ، تأليف الأستاذ أحمد أمين . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ م .

٥١ – سورة الرحمن وسُوَر قِصار ، عَرْضٌ ودراسة ، تأليف الدكتور شوقي ضيف . دار المعارف بمصر ، ١٣٩٠ هـ .

٥٢ – شُبُهات حول الاسلام ، تأليف محمد قطب . الطبعة السادسة .

٥٣ – الشركات في الشريعة الاسلاميّة والقانون الوضعي ، للدكتور عبد العزيز عِزّة الخيّاط . منشورات وزارة الأوقاف والشؤون والمقدّسات الاسلامية ، عَمّان ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٠ هـ ، ١٩٧١ م .

٥٤ – الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميّين، للدكتور سليمان دُنْيا . دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة، الطبعة الأولى ، ١٣٧٧ هـ ، ١٩٥٨ م .

٥٥ – طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، للرحالة ك. عبد الرحمن الكواكبي . المطبعة الرحمانية بمصر ، ١٣٥٠ هـ ، ١٩٣١ م .

٥٦ – الظاهرة القرآنية ، تأليف الأستاذ مالك بن نبيّ . ترجمة عبد الصّبور شاهين ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٨ م .

٥٧ – غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تأليف نظام الدين الحسن بن محمد ابن الحسين القُمّي النيسابوري. تحقيق ومراجعة إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٨١ هـ ، ١٩٦٢ م

٥٨ – الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية ، للأستاذ محمد المبارك . دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ م .

٥٩ – الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، تأليف الدكتور محمد البهيّ . الطبعة الثانية ، ١٩٦٠ م .

٦٠ – الفنّ القصصي في القرآن الكريم ، للدكتور محمد أحمد خلف الله . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٥ م .

٦١ – القرآن والعلم الحديث ، تأليف عبد الرزاق نوفل . دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى ، رمضان ١٣٧٨ هـ ، مارس ١٩٥٩ م .

٦٢ – كَشْفُ الأسرار النورانية القرآنية ، لمحمد بن أحمد الإسكندراني. المطبعة الوهبيّة ، القاهرة ، ١٢٩٧ هـ ، ١٨٧٧ م .

٦٣ – ما دلّ عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان ، تأليف السيد محمد شكري الآلوسي . المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانيه ، ١٣٩١ هـ ، ١٩٧٢ م .

٦٤ – مُعْتَرك الأقران في إعجاز القرآن، للحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي . تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر العربي بمصر .

٦٥ – مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ، للإمام أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الملقّب بفخر الدين الرازي . المطبعة العامرة ، استانبول ، نشر الشركة الصحافية العثمانية ، ١٣٠٨ هـ .

٦٦ – من زُعماء الإصلاح ، محمد عبده ، تأليف الأستاذ أحمد أمين . مؤسسة الخانجي بالقاهرة ، ١٩٦٠ م .

٦٧ – الموافقات في أُصول الشريعة، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي الأندلسي . مطبعة الشرق الأدنى بالموسكي ، القاهرة .

٦٨ – موجز تاريخ الشرق الأوسط ، من ظهور الإسلام إلى الوقت

الحاضر ، تأليف جورج كيرك . ترجمة عمر الاسكندري، مركز كتب الشرق الأوسط ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٥٧ م .

٦٩ – النَّسْخُ في القرآن الكريم ، دراســة تشريعية تاريخية نقدية ، للدكتور مصطفى زيــد . دار الفكر العربي ، القاهــرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٣ م .

الفهرس

	الصفحة

الفصل الثالث

الصفحة